الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

مكتبة
الحبر الإلكتروني
@bookkn
d110d

نبيل قدورة

الإسلام

أرويه لأبنائي

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾

الإسلام

أرويه لأبنائي

مكتبة الحبر الإلكتروني
مكتبة العرب الحصرية

الإسلام
أرويه لأبنائي

نبيل قدورة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: أيلول/سبتمبر 2017 م - 1438 ه

ردمك 978-614-02-3327-0

جميع الحقوق محفوظة

توزيع

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

تصميم الغلاف: علي القهوجي

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت – هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت – هاتف 786233 (9611+)

إهداء

إلى والدي الشيخ عثمان، نبراس العلم الذي لا ينفد،

والدي الذي سعى في طلب العلم إلى الأزهر الشريف وتخرج منه،

والدي الذي تعلم العلم وعلمه،

والدي الذي كان يردد على مسمعي حديث الرسول الكريم: "من يرد الله به خيراً، يفقهه في الدين"،

والدي الذي أرسلني إلى دمشق لأدرس علوم الدين على يد مشايخها وعلمائها الأفاضل،

ولقد أدركتُ أهمية ذلك كله عندما بدأت تدوين هذا الكتاب، فجزاه الله عني كل خير.

إلى والدتي، الحاجة صفية، نبع الحنان الذي لا ينضب،

والدتي التي علمتني مكارم الأخلاق، وقيم الإسلام السمحة،

والدتي التي غمرتني بحبها ودعائها في كل حين، فكان ذلك لي خير عطاء، فلها الرحمة والرضى من رب العالمين.

إلى زوجتي، سمر، شعلة الإيمان التي لا تنطفئ،

سمر التي حاورتني في الدين ودفعتني للغوص في أعماقه للبحث عن مبادئه الأصيلة وقيمه السامية، فجاء هذا الكتاب ترجمة وتعبيراً عما توصلتُ إليه من آراء وأفكار،

سمر التي عرفَتْ الإيمان منذ طفولتها، بما حباها الله من فطرة سليمة صافية عذبة ونقية،

سمر التي وعَتْ الإيمان بعد ذلك، بعقلها وفكرها وقلبها، فترجمته في أخلاقها وسلوكها،

سمر التي عرفَتْ بأن الإيمان عطاءٌ وفضلٌ ومِنَّةٌ من الله رب العالمين، لقوله تعالى: يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (البقرة 269).

سمر التي طالما كانت تردد على مسمعي بأن إيمان المسلمين من حولها يبدو لها، في أغلب الأحيان، إيماناً مادياً دنيوياً، بدل أن يكون روحانياً ربانياً، يسمو بالإنسان إلى ملكوت السماوات وليس إلى ملكوت الأرض.

إلى أولادي، بتول وأسامة ولينا، ثمرة الحب الذي لا ينتهي،

أولادي الذين شرحتُ لهم بأن الإسلام هو دين الفطرة والحس السليم، فإذا ارتاب أحدهم حيال أي موضوعٍ أو رأيٍ أو حكمٍ شرعي، فإن عليه أن يبحث ويتحقق حتى يجد الجواب المقنع الذي يرتاح له عقله وقلبه، كما جاء في الحديث الشريف: "اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَاسْتَفْتِ نَفْسَكَ، كررها ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ".

أولادي الذين لم تسمح لي الظروف أن انقل لهم بشكل منظم ومفصل مبادئ الإسلام وقيمه الخالدة، فجاء هذا الكتاب تعويضا عن تقصيري وتكملة لما كنت أتمناه.

إلى أهلي وأصدقائي.

إليهم جميعاً أهدي هذا الكتاب، عربون محبة وصداقة ووفاء

نبيل

الإسلام أرويه لأبنائي

سألني أحد أطفالي ذات يوم أن أحدثه عن الأديان السماوية، ورغم أنني تفاجأت بسؤاله، إلا أنني أجبتُه بكل عفوية ودون تفكير، بأنه لا توجد أديان سماوية، بل دين سماوي واحد!

ويبدو أن جوابي لم يكن مُقنعاً له، أو أنه لم يجد الجواب الذي كان ينتظره كرد على سؤاله وحيرته، فأصر وأعاد سؤاله قائلاً: إذا كان هناك دين واحد، فهل هذا يشمل الإسلام واليهودية والمسيحية معاً؟ وإذا كان ذلك صحيحاً، فماذا تُسمّي هذا الدين الواحد؟

فأجبته مُوَضّحا بنفس البساطة والعفوية، بأنَّ كلَّ الرسالات والشرائع السماويّة تدعوا إلى عبادة الله الواحد، وهي من حيث أصولها وغاياتها فيض إلهي، مصدرها واحد وغايتها واحدة، وهي متحدة في سعيها لتربية الإنسان وعلاج ما اختل من شؤون المجتمع البشري، بما يتفق مع درجة بلوغه ورشده، وإعداده لمتابعة السير نحو قمم التطوّر الروحاني التي ليس لها حدود.

إنَّ هذه الشرائع ليست متنافسة ولا متناقضة ولكنها متكاملة، كما جاء في إنجيل متى من قول السيد المسيح عليه السلام: "لا تظنوا أني جئت لألغي الشريعة أو الأنبياء. ما جئت لألغي بل لأكمّل"، والنبي محمد صلى الله عليه وسلم يقول: "إنما بُعثتُ لأتممَ مكارمَ الأخلاق"، وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَكْمَلَهُ، إِلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ".

وبهذا المعنى تكون اليهودية والمسيحية والإسلام دين واحد، يدعو إلى عبادة الله الواحد، وقد أطلق أبو الأنبياء، إبراهيم عليه السلام، على هذا الدين اسم الإسلام، كما جاء في الآية الكريمة:

مِلّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ (الحج 78).

وقد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الأنبياء إخوة لعلّات، أمهاتهم شتّى ودينهم واحد"، يقول الفقهاء: "فدينهم واحد، هو عبادة الله وحده لا شريك له، وهو يُعبَدُ في كل وقت بما أَمر به في ذلك الوقت، وذلك هو دين الإسلام في ذلك الوقت".

واستمر النقاش والشرح بعض الوقت، ليتبين لي في نهاية المطاف، أن ما هو واضح وبديهي وعفوي بالنسبة لي، هو غير ذلك بالنسبة لأولادي، بل ربما هو غير ذلك أيضا بالنسبة لكثير من الناس، صغارا كانوا أم شبابا أو فوق ذلك.

وهكذا قررت أن أشرح الإسلام لأطفالي كما أراه وأفهمه، وأن يكون ذلك بطريقة سهلة ومبسطة، وبأسلوب جديد ورؤية عصرية حديثة.

كما أحببت أن استغل هذه الفرصة لأتوجه عبرهم إلى كل أبناء الجالية العربية والمسلمة، الذين يعيشون في المهجر بعيدا عن بلادهم الأصلية، والذين لم تتوفر لهم الظروف للاطلاع على الإسلام أو معرفته كما هو، واحتفظوا بدل ذلك ببعض العادات والتقاليد التي يظنون أنها هي الإسلام، في حين أنها قد تكون بعيدة جدا عن الإسلام، إن لم تكن متناقضة معه في كثير من الأحيان!

كما أردت أن أتوجه إلى أصدقائهم في المدرسة والجامعة والعمل، والذين يلتقون بهم كل يوم، ويتحاورون معهم من حين إلى آخر، ويوجهون لهم كثيرا من الأسئلة في مواضيع شَتّى، قد تكون محرجة لهم في بعض الأحيان، وكلي أمل أن يشكل هذا الكتاب موضوعا للتفاهم المشترك، وأرضية صالحة للحوار فيما بينهم، فتزداد صداقتهم قوة، وروابطهم عمقا، على أساس من المحبة والاحترام المتبادل.

وأخيرا فقد رأيت أن أتوجه إلى كل الذين لا يعرفون الإسلام، ولم تسمح لهم الظروف أن يتعرفوا إليه عن قرب، فبقيَتْ في أذهانهم صورة سلبية عنه، يشوبها الشك والريبة والحذر، إن لم يكن الخوف والعداء، راجيا أن يشكل هذا الكتاب فرصة لهم لمعرفة الإسلام بشكله الصحيح، وإعادة النظر بهذه الآراء والمواقف السلبية، وبناء مواقف جديدة واقعية وموضوعية، قُوامها المعرفة والاطلاع بدل

الظن والأحكام المسبقة، كما جاء في القرآن الكريم: وَمَا يَتَّبِعُ أكثر هُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (يونس 36).

وكلي قناعة كما قال سقراط: "بأن الآثام كلها وليدة الجهل، وأن الناس لو عرفوا ما هو الحق، إذاً لَما وجدوا صعوبة في اتّباعه".

إنّ الهدف من هذا الكتاب هو شرح الإسلام وقيمه المثلى، وتوضيحه من وجهة نظر الإسلام نفسه، معتمدا في ذلك على قراءة معمقة لآيات القرآن الكريم والحديث الشريف، بما يسمح لي أن أوضّح وأشرح فكر الإسلام ومبادئه الأساسية، كما تعلمتُه وفهمتُه وقرأتُه عبر تجربتي الشخصية، بعيداً عما أصابه عبر القرون من تشويه وشوائب وعادات طغت على كل ما عداها، وأخذت مكانها، وجعلت من أي نقاش أو حوار أمراً من الصعوبة بمكان، وأصبحت المواقف والآراء مبنية على العصبية والجهل وعدم تقبل الرأي الآخر حتى ولو كان على حق، وقد جاء في الحديث: "حُبُّكَ الشيء يُعمي ويُصم"، ولعل هذا يفسر لماذا يبدو كل منا منغلقا على نفسه متمسكاً بآرائه، فهو لا يحاور، وإذا حاور فإنه لا يسمع رأي الآخرين، وإذا نظر فإنه لا يرى إلا ما يريد رؤيته، فيغدو قلقا مضطربا محتاراً يدور في حلقة مفرغة، بدل أن يكون واثقا مطمئنا ومنفتحا على الآخرين، وكأننا نسينا قول الله سبحانه في وصف المسلم الصحيح: وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (الفرقان 63)، أو أننا لم نقرأ ولم نتعلم أسلوب القرآن الكريم في علاقتنا مع الآخرين، كما جاء في هذه الآية: وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإذا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيم (فُصِّلَتْ 34).

وكلنا يعرف أنّ شاطئ البحر يظل ماؤه عكراً، ويبقى موجه مضطرباً وهائجاً، حتى وإن كان خفيفا، في حين أن البحر في الأعماق يكون هادئاً صافياً وزرقته تسر الناظرين، وهكذا الدين، فالوقوف على أطرافه، وفهمه بشكل سطحي، يؤدي في كثير من الأحيان إلى التعصب والفرقة، وربما إلى الاقتتال، في حين أنّ التعمق فيه وفهمه على حقيقته، يؤدي حتما إلى التسامح والمحبة والسلام.

إنّ هذا الكتاب هو دعوة لنفهم الإسلام بعمق، وذلك عن طريق فهم الإسلام والقيم الإسلامية بمنطق عصري وحضاري جديد، بعيدا عن التعصب والانغلاق، لأنّ الإسلام دون أدنى شك، هو دين الانفتاح على الآخرين، يأخذ ويعطي، ويتفاعل مع محيطه ومع الناس أجمعين، فيزداد سُموّاً

وعُلوّاً وقدرا، ولا مكان فيه لغير ذلك كما جاء في هذه الآية الكريمة: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً (البقرة 143).

وإذا كنا نعترف بأنّ هناك بعض الشك والريبة في العلاقات التي تربطنا مع الآخرين، لأننا مازلنا نقف على الشاطئ، ولا نريد أو لا نجيد الإبحار، مما يجعل الحوار أمرا من الصعوبة بمكان، فإذا به يتحول إلى اتهام وصراع في كثير من الأحيان، إلا أنّ علينا أن ندرك أنّ هذا لم يكن ليحدث لو كنا نجيد التعامل مع المجتمعات التي نعيش فيها، دون ان نفهمها، ودون أن نحاول إيجاد أرضية مشتركة للحوار، صريحة وواضحة، ليس من أجل إخفاء الخلاف، وإنما من أجل معرفته وتحليله، بهدف الوصول إلى فهم مشترك لثقافة الآخر والقبول بمبدأ التبادل والأخذ والعطاء، لأنه كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "الحكمة ضالّة المؤمن حيث وجدها أخذها".

ولست أريد هنا أن أقول بأن هناك دائما سوء نية وراء هذه الاحكام المسبقة والآراء السلبية في بعض المجتمعات الغربية، وإنما هناك سوء فهم وجهل بالإسلام، قد نكون نحن أكثر المسؤولين عنه، وبمقدار ما أدرك أن الإنسان عدو ما يجهل، فإنني أؤمن بأن الفهم المشترك والحوار البناء هو أساس التعايش المبني على احترام الغير بفكره وآرائه وعقيدته، وأن هذا هو الأسلوب الحضاري الوحيد، الذي يسمح لكل منا أن يمارس حريته دون أن يعتدي على حرية الآخرين، وهكذا يصبح التبادل والحوار إغناءً للجميع، بحيث يأخذ الفرد ويعطي، فتكون الفائدة عامة، ويسود الوئام كل طبقات المجتمع، وهذا ما يقوله رب العالمين في قرآنه الكريم: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِير (الحجرات 13).

إن رسالة الله للناس جميعاً، هي أن يتعارفوا ليعيشوا معا بسلام، لما فيه خير البشرية جمعاء، وإذا وضعنا نصب أعيننا أننا جزء من هذا العالم الذي نعيش فيه، نحتاج له ويحتاج لنا، وأن قدرنا أن نعيش مع شعوب وأمم، قد تختلف عنا بعاداتها وقيمها وأسلوب حياتها، بل حتى في مأكلها ومشربها وملبسها! فإنه لا مجال أمامنا إلا أن نبحث بصدق وإخلاص، عن القواسم المشتركة، التي تجمع ولا تُفرّق، تُؤلّف ولا تبغّض، ولنتذكر دوما حديث الرسول الكريم حيث يقول: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، فالإسلام جاء ليتمم لا ليلغي ما قبله، ولا ليبقى منغلقا على ما بعده، بل هو في موقع وسطي كما جاء في هذه الآية الكريمة: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً (البقرة 143).

لكل ذلك فإنني لن أتردد، وبكل ثقة واطمئنان، أن أعالج عبر هذا الكتاب، المواضيع الحساسة التي أصبحت مجال جدل وخلاف شديدين، ليس فقط في المجتمعات الغربية التي نعيش فيها، وإنما في مجتمعاتنا العربية والإسلامية أيضا.

إلا أنني أحب أن أؤكد منذ البداية، أنني لا أريد فيما أُعبّر عنه من رأي، أن أثير الجدل أو أزرع بذور الخلاف، لأن ما أكتبه هو رأي من جملة الآراء، قد يوافقني فيه البعض، وقد يخالفني فيه البعض الآخر، فإن أصبت فمن الله وإن اخطأت فمن نفسي، وصدق رسول الله حيث يقول: "من اجتهد فأخطأ فله أجر، فإن أصاب فله أجران".

كما يحضرني في هذه المناسبة ما جاء في هذه الآية الكريمة: إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (هود 88).

راجيا الله أن أكون ممن قال عنهم المولى عز وجل: لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (الزمر 35).

إن اول ما سنبدأ به في هذا الكتاب، هو التعريف بالإسلام وارتباطه بالدين والشريعة، وعلاقته بالرسالات أو الشرائع السماوية الأخرى، ولست أبالغ إذا أشرت منذ الآن، إلى أن هذا الطرح سيفاجئ الكثيرين، وبشكل إيجابي دون شك، لأن هذه العلاقة هي من أكثر المواضيع حساسية، وقد أُسيء فهمها، واختلط فيها الموضوعي بالذاتي، والنص بالمفاهيم المتوارثة، والشكليات بالجوهر...الخ. وهذا هو موضوع الفصل الاول.

أما الفصل الثاني، فسيعالج أركان الإسلام، والهدف الأساسي من هذا الفصل، هو أن نبيّن الحكمة من هذه الأركان وليس كيفية أدائها، فإذا كانت معرفتنا كيف نصلي ونصوم ضرورية، فإن الأهم هو معرفتنا لماذا نصلي ونصوم، مما سيسمح لنا أن نكتشف جوانب هامة ترتبط بهذه الأركان، كنا نمر عليها مرور الكرام.

إن هذا سيسمح لنا بالانتقال إلى الفصل الثالث، لنستعرض العلاقات مع أهل الكتاب (اليهودية والمسيحية) من جهة، ومع الشعوب الأخرى التي تتقاسم معنا الحياة على هذه الأرض

التي تجمعنا كالأم الحنون، ومهما كانت دياناتهم أو عقائدهم، مدركين أننا نعيش في قرية عالمية، وأنّ أيّ كارثة تصيب البعض ستصيبنا جميعا ودون استثناء، فالمسؤولية مشتركة والمصير واحد!

اما الفصل الرابع، فسيعالج القيم العامة أو العالمية في الإسلام، والتي يجهلها الكثيرون، رغم أنها جاءت إلى البشرية منذ ما يزيد على خمسة عشر قرنا! فالحضارة العربية الإسلامية ليست حضارة وليدة، بل لها تاريخ وأمجاد يعرفها ويعترف بها العالم أجمع، وكلي أمل أن تكون هذه مناسبة للتعرف على قيم الإسلام الحقيقية السمحة، لتكون مجال فخر واعتزاز لكل الشباب الذي يبحث عن جذوره في أعماق التاريخ لعلَّهُ يهتدي إلى النقطة التي تسمح له بالانطلاق والسمو نحو آفاق جديدة في ضوء فهمه الصحيح لهذه القيم الخالدة.

بعد ذلك سننتقل إلى شرح نظرية الجزاء في الإسلام (الثواب والعقاب)، التي ستكون موضوع الفصل الخامس، وسنستعرض خلاله نظرية المؤسسات في العلوم الادارية مقارنة مع مبدأ الوسطية في الإسلام، هذا المبدأ الذي يُعتبر بحق من المبادئ المؤسسة للقيم الإسلامية.

الفصل السادس، سيكون مخصصا للمعاملات، وسنشرح في هذا الفصل علاقة الإنسان بربه، وعلاقته بنفسه وبالآخرين، وذلك لنرسم الحدود بشكل واضح وبيّنٍ، بين ما هو دينيٌّ إلاهيّ، وما هو دنيويٌّ بشريّ.

وسيقودنا هذا الحديث للتفرقة بين الدستور والقانون في مجال التشريع، لنصل أخيرا إلى الحديث عن الاجتهاد في الإسلام، الذي توقف منذ القرن الثاني عشر للميلاد، ولم يعد إلى وضعه الطبيعي منذ ذلك الحين، رغم العصر الذهبي الذي عاشه قبل ذلك ولعدة قرون.

وفي الفصل السابع، سأناقش المواضيع الحساسة، التي أصبحت مجال جدل وخلاف وسوء فهم في عصرنا الحاضر، وموجة يركبها الكثيرون، لا لشيء، وإنما لأنها أصبحت تجارة رابحة، وطريقا سريعا للشهرة أو لمكاسب سياسية آنية، في حين أن الإسلام هو أول من ينادي ويؤكد وبإصرار، ليبين للناس رأيه فيها ودون تردد أو استحياء، لأنه، كما سنراه معا، كان من السباقين في مجال القيم والحقوق والأخلاق ومنذ 15 قرنا مضت.

ومن بين هذه المواضيع:

- الحرية بكل ابعادها: حرية الفرد، حرية التعبير وحرية المعتقد.
- الحرية والمسؤولية في الإسلام.
- الحرية والديمقراطية والشورى.
- التطرف في الإسلام.
- السلفية ومعناها.
- الجهاد واختلاطه بالحرب المقدسة.
- الجهاد والإرهاب.
- الجرائم ضد الإنسانية، والاحسان أو انقاذ الإنسانية في الإسلام.
- الحرب والسلام في الإسلام، السلطة السياسية والسلطة العسكرية
- المرأة في الإسلام: مكانتها، دورها، حقوقها وواجباتها مقارنة بالرجل.
- الإسلام والحياة والعلم والتقدم والحداثة، لأنه من الظلم أن نتهم الإسلام بأنه ضد التطور والتقدم، خاصة إذا قرأنا التاريخ وعرفنا ما قدمه الإسلام والمسلمون في المجالات العلمية والأدبية والفلسفية، وكيف استطاع الإسلام أن ينتقل بشعب بدوي، من البداوة والبدائية إلى قمة العلوم والحضارة، وبفترة لا تتجاوز الخمسين عاما!

الفصل الأول
الإسلام

لا يمكن الحديث عن الإسلام وفهم معناه الصحيح إلا إذا فهمنا معنى "الدين" و"الشريعة"، وذلك لأن أكثر الناس تستخدم الإسلام تارة بمعنى الدين وتارة بمعنى الشريعة، دون ملاحظة الفارق الكبير بينهما، مما يزيد في غموض المعنى المراد بالإسلام وما يتبع ذلك من مزج واختلاط في فهم الكثير من المبادئ والقواعد والمفاهيم المرتبطة بهذا الدين الحنيف.

إنَّ فهم اللغة العربية، والأصح أن نقول "اللسان العربي"، هو شرط أساسي لفهم الكثير من الآيات والأحكام القرآنية، وقد أخبرنا المولى سبحانه أن رسالات الرسل جميعا كانت بلسان قومهم: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ (إبراهيم 4)، ولهذا جاء القرآن بلسان عربي كما تؤكده الآيات التالية:

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (يوسف 1).

كِتابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُون (فُصِّلَتْ 3).

وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (الشعراء 192-195).

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (النحل 103).

وللتذكير نشير إلى أن القرآن الكريم لم يقل "بلغة عربية"، بل قال "بلسان عربي مبين"، ولن أدخل بالتفاصيل، وإنما ألفتُ الانتباه إلى أن اللغة تشير إلى الكلمات كما هي في القاموس مثلا، أما اللسان فيشير إلى ما يستخدمه الناس من كلام حتى ولو كان من لغة أخرى، فكلمة "تلفزيون" في عصرنا الحاضر، ليست من اللغة العربية ولكنها من اللسان العربي، وهذه الدقة في التعبير القرآني تجيب على تساؤلات من قالوا بأن في القرآن كلمات غير عربية مثل: سندس واستبرق وغيرها، ذلك أن هذه الكلمات كانت متداولة بين العرب فهي من اللسان العربي، وسنكتفي بهذا القدر لأنه موضوع آخر يحتاج إلى شرح قد يطول.

وسنبدأ بتعريف الدين، ثم ننتقل إلى تعريف الشريعة، وبعدها سنشرح معنى الإسلام وعلاقته بهذين المفهومين، لنكتشف المعنى المراد بكلمة "إسلام".

ولن ننسى أن نبين العلاقة والترابط بين الإسلام والإيمان والاحسان وعلاقة كل ذلك بالتقوى، مما يساعدنا على فهمها بشكلها الصحيح، لتكون هذه هي نقطة البداية في فهمنا للإسلام بشكله التوحيدي، كما سنستخدمه في هذا الكتاب.

الدين

الدين مصطلح مثير للجدل لا يوجد له تعريف واضح وثابت، وله في اللغة معانٍ واستعمالات كثيرة، أهمها:

الجزاء والحساب: كما في سورة الفاتحة مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ أي يوم الحساب، وكما جاء في الحديث الشريف "كما تدينُ تُدان"، أي كما تُجازي تُجازى، ومثله ما جاء في الإنجيل: "لا تدينوا لكيلا تُدانوا لأنكم بالدينونة التي بها تَدينون تُدانون وبالكيل الذي به تكيلون يُكال لكم."

الطاعة والعبادة: الدين هو الطاعة، ومن الدين جاءت لفظة ديّان وهي من أسماء الله، ومعناها الحَكَم والقاضي، و"دان" اسم عبري، وهو خامس أبناء يعقوب الذي تنبأ بشأنه قائلاً: "دان يدين شعبه كأحد أسباط إسرائيل".

فالدين إذاً، هو الطاعة والخضوع لحكم حاكم أو قاض، ويقال دنته ودنت له أي أطعته، ويقال دان بديانة أي أطاعها وتعبّد بها، وهو أصل المعنى، ومن هذا قول الله تعالى: وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (النساء 125).

تعريف الدين في الاصطلاح الإسلامي: اختلف العلماء في تعريف الدين، فمنهم من قال هو الإسلام، ومنهم من عرَّفه بالحنيفية، وهي ملة إبراهيم عليه السلام، ومنهم من عرَّفه بالتوحيد أو بالعبادة...

يرى البعض إذاً، بأن الدين هو الإسلام، ويستدلون على ذلك بقوله سبحانه: إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإسلام (آل عمران 19)، ويشيرون أيضا إلى الآية التالية: وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونْ (البقرة 132).

إلا أنه تجب الإشارة في هذا الصدد، بأن المقصود بذلك إنما هو الإسلام العام الذي هو دين الأنبياء جميعا، وليست رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فقط، وهذه نقطة مركزية وهامة في هذا الكتاب، كما سنشرحه فيما بعد.

وأشار البعض إلى هذا المعنى العام والشامل، فقالوا بأن الدين هو التوحيد، أو هو الإقرار بوحدانية الله تعالى، والتصديق بها كما جاء في سورة الأنبياء: قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونْ (الأنبياء 108)، وما جاء في سورة المائدة: وَإِذْ أَوْحَيْتُ إلى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونْ (المائدة 111)، وقوله تعالى في سورة الأنعام مخاطبا رسوله الكريم: قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينْ* قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينْ* لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينْ (الأنعام 161-163).

وبناءً على ما تقدم، فإننا سنعرّف الدين في هذا الكتاب بأنه: "علاقة الإنسان بربه"، فهو فعل عبادة ينشأ عن الإيمان والتسليم والقبول بالله ربا لا شريك له، ويكون العمل فيه بممارسة العبادات من صلاة وصوم وزكاة وغيرها من الاركان.

الشريعة

تُطلق كلمة الشريعة في أصل اللغة على معنيين، الأول: مورد الماء، أي الطريق الموصل إلى الماء، والثاني: مكان تجمع الماء، ولا يُسمى مكان تجمع الماء أو مورد الماء في لغة العرب شريعة، إلا إذا كان سهلا منبسطا يؤخذ منه الماء دون مشقة. لذلك جاءت الشريعة لتنهل أفكارها ومبادئها من ينابيع المياه الصافية والعذبة والتي يسهل الوصول إليها فتروي العطشى بماء عذب طيب المذاق.

ولا بد لنا في هذا المكان، أن نُطمئِنَ كلَّ الذين ينتابهم الخوف والفزع لدى الحديث عن الشريعة، ويعتبرونها رمزا للقسوة والتشدد، سواء كان ذلك عن جهل أو عن سوء نية، بأن الشريعة لا تقوم إلا على أساس من السهولة واليُسر، وقد جاءت شريعة الإسلام للتيسير على العباد ورفع الحرج والمشقة والعَنَتِ عنهم، وهذا ما يؤكده القرآن الكريم في أكثر من آية، كما في قوله تعالى: يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ (البقرة 185)، وقوله أيضا: وَمَا جَعَلَ عَلَيْكمْ فِي الدّينِ مِنْ حَرَجٍ (الحج 78).

كما تطلق الشريعة في اللغة أيضا على عدة معان، منها الطريق المستقيم والدين والمنهج والمذهب وغير ذلك.

أما الشريعة في الاصطلاح فتطلق على معنيين:

المعنى الأول: معنى عام، وهو الدين: وهو ما شرعه الله لعباده من عبادات وأرسل به الرسل وأنزل معهم الكتب ليرشدوا الناس إلى الصواب في العبادة وإلى الخير في السلوك والمعاملة، وبهذا المعنى تُطلق كلمة الشريعة على أصول الدين، أي العقيدة والعبادات، يدل على هذا المعنى قول الله تعالى في سورة الشُّورى: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى المُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبْ (الشورى 13)، فرسالات الأنبياء ودعواتهم جميعا، تشترك في أصل واحد، وهو توحيد الله بالعبادة، فالشريعة بهذا المعنى تُطلق على أصول الدين.

المعنى الثاني: معنى خاص، وهو الأحكام الشرعية (الفقه): وهي بهذا المعنى تُطلق على فروع الدين ومسائل العبادة الخاصة فيه، والتي تستقل بها كل رسالة عن غيرها، وهذا ما تبينه لنا

الآية التالية: وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ المُخْبِتِينْ (الحج 34).

وقد جاء في الحديث "نحن معاشر الأنبياء أبناءُ عِلّات ديننا واحد وشرائعنا شتّى" (أخرجه مسلم في صحيحه)، وللتذكير نشير إلى أن أبناء العِلّات في اللغة العربية، هم الأبناء من أب واحد وأمهات مختلفة، فهم أخوة لأب، والمراد هنا أن الأنبياء دينهم واحد وشرائعهم مختلفة، وهي صورة الإسلام في ذلك الزمان. لذلك كانت الأحكام الشرعية على قسمين:

أحكام شرعية اعتقادية، تشترك بها كل الشرائع السماوية وهي من الدين.

أحكام شرعية فقهية، وهذه قد تختلف من شريعة إلى أخرى، من حيث أحكام العبادات، والمعاملات، والشهادات، والجزاء والعقوبات، ونظم المواريث، فلكل شريعة أحكامها الخاصة بها، وهذا ما نجده في قول الله سبحانه: لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا (المائدة 48)، أي طريقاً وسُنّةً لتسلكوه.

وقد قال الفقهاء: "شَرْعُ مَنْ قَبْلَنا شرعٌ لنا إذا لم يخالف شرعنا"، ويقصدون بذلك القِسم الثاني من الشريعة، ولأن كل شريعة إنما أتت لتكمل ما قبلها، فإذا لم تتغير الأحكام السابقة بنصوص جديدة، فهي تظل صالحة للشرائع التي تأتي بعدها، وكثيرا ما نجد ذلك في آيات القرآن الكريم، كقوله تعالى: مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأرض فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا (المائدة 32)، وهذه الآية تأكيد على أن هذا التشريع باقٍ وشرعٌ للمسلمين أيضاً.

وأخيرا لا بد من الإشارة إلى أن أحكام الشريعة الفقهية، ليست أحكاما الاهية، وإنما هي اجتهادات الفقهاء في ضوء ما فهموه من القرآن والسنة، ولهذا كانت الشريعة قابلة للتطور، تتغير بتغير الزمان والمكان، لأنها جاءت لتعبر عن حاجات المجتمعات، ولترافق تطور البشرية عبر العصور.

الإسلام

لقد قيل في تعريف الإسلام الشيء الكثير، قيل إنه من الانقياد والطاعة أو من الاستسلام، أي الانقياد إلى أوامر الله والاستسلام له تعالى بإطاعة اوامره واجتناب نواهيه، وقيل إن الإسلام من السلامة، لخلوه من الشوائب والنقص، وقيل إن الإسلام من السلام، الذي هو ضد العدوان، والسلام يكون أوّلاً بين العبد وربه، وهذه هي العبادات، وثانياً سلام بينه وبين غيره من الناس، وهذه هي المعاملات.

والحقيقة أن تصنيف هذه العلاقات بين "عبادات" و"معاملات" هو أمر جوهري وبالغ الأهمية، مما يسمح لنا بأن نشير ومنذ الآن، بأن العبادات ليس فيها اجتهاد، في حين أن المعاملات كلها اجتهاد، وهذه النقطة هي التي تسمح بتطور الشريعة وملاءمتها لكل زمان ومكان.

إن معنى الإسلام الأكثر شيوعا في الاستعمال، والذي يُستخدَم في الترجمات الأجنبية، هو الاستسلام والاذعان والخضوع، وقد تصرف بهذا المعنى كثير من المسلمين، حتى خرجوا به عن معناه الأصيل وقيمته الحقيقية، وظنوا أن الاستسلام هو هذا السلوك السلبي الذي يهدر معنى الإنسانية، وأصبح الإسلام في نظرهم مجرد خضوع وخنوع، لذلك فإننا نُفضّل هنا استخدام كلمة "تسليم وقبول"، أي تسليم الوجه إلى الله والإذعان لأوامره سبحانه، وهذا هو جوهر الدين وحقيقته، وبهذا المعنى وصف الله الأمم السابقة بالإسلام، كما قال في معرض الحديث عن سيدنا إبراهيم الخليل: إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ (البقرة 131)، أو دعاء سيدنا إبراهيم وإسماعيل: رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ (البقرة 821)، وكذلك وصيّته لبنيه: وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُم الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ (البقرة 231).

الإسلام والدين والشريعة

قد يتساءل البعض عن السر في أنَّ كلمة "الدِّين" لم ترد في القرآن الكريم بصيغة الجمع أبداً، وإنما بصيغة المفرد، والحقيقة أن هذا ليس مستغرباً، وذلك لأنه ليس في القرآن أديان وإنما دين واحد هو التوحيد، "Monothéisme"، فكلمة الدين المعرفة بالألف واللام وبدون تخصيص، تعني

الرابطة بين العباد وخالقهم، وهي لا تقتصر على رسالة معيّنة بل تشملها جميعاً، ولذلك قلنا بأن الدين هو علاقة الإنسان بربه.

ولأنَّ الدين هو التوحيد وعبادة الله الواحد، كما أشرنا من قبل، فإنه من الطبيعي أن يكون هذا الدين واحداً وثابتاً لا يتغير بتغير الزمان والمكان، وأنه من غير المعقول أن يرسل الله سبحانه الرسل بأديان مختلفة، ولذلك كان التوحيد هو جوهر الرسالات السماوية، والذي نادى به كل الرسل، لقوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (الأنبياء 25).

في حين أن الشريعة هي التي تتغير بتغير الزمان والمكان، لأنها جاءت لتعبر عن حاجات المجتمعات ولترافق تطور البشرية عبر العصور.

إن "الإسلام" في لغة القرآن، ليس اسماً لدين خاص، وإنما هو اسم للدين المشترك، الذي هتف به كل الأنبياء والرسل، وانتسب إليه كل أتباعهم، وأن السبب الذي يجعل الكثير من الناس يتحدثون عن الأديان السماوية، إنما ينبع من الخلط بين الدين والشريعة، ولذلك فإننا سنستخدم في هذا الكتاب تعبير "الشرائع أو الرسالات السماوية" وليس الأديان السماوية.

وهكذا بعد أن تَبَيَّنَ لنا معنى الدين والشريعة والفرق بينهما، يمكننا باختصار تقسيم الشرائع السماوية الثلاث وتصنيفها، بل وتسميتها حسب مفهومَي الدين والشريعة كما يلي:

اليهودية: وسُميّتْ باليهودية نسبة إلى قبيلة يهوذا، دينها الإسلام وشريعتها هي شريعة موسى عليه السلام.

المسيحية: وسُميّتْ بذلك نسبة إلى السيد المسيح عليه السلام، دينها الإسلام وشريعتها هي شريعة موسى عليه السلام، وقد عَدّلتها بشكل بسيط رسالة المسيح عليه السلام، كما جاء في القرآن الكريم: وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ (آل عمران 48).

وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ * فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (آل عمران 50-52).

وجاء في إنجيل متى قول السيد المسيح: "لا تظنوا أني جئت لألغي الشريعة أو الأنبياء. ما جئت لألغي بل لأكمّل".

الإسلام: إن كل الشرائع والأديان لدى كل الشعوب والأمم قد سُمّيتْ، إما نسبة إلى شخص أو إلى أمّة ترعرعت فيها. فالمسيحية نسبة إلى المسيح عليه السلام، وتسمى أيضا بالنصرانية نسبة إلى الناصرة، وهي المدينة التي عاش فيها السيد المسيح، وكثيرا ما يقال عنه الناصري، وسُمّيَ أتباعُه بالنصارى كما جاء في أكثر من آية، والبوذية نسبة إلى بوذا، واليهودية نسبة إلى قبيلة يهوذا...

أمّا الإسلام، فإنه مشتق من صفة فيه هي معنى الإسلام، وهو "التوحيد والتسليم" والطاعة لرب العالمين، والمشكلة التي تواجه الكثيرين عندما يتحدثون عن الإسلام، تكمن في أن الإسلام هو اسم للدين وللشريعة في آن واحد، وعندما نتحدث عن الإسلام، فإننا لا نبيّن فيما إذا كان المقصود في حديثنا هو الدين أمِ الشريعة!

لذلك يخطئ كثير من الناس في فهم بعض الآيات القرآنية، كقوله سبحانه: إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإسلام (آل عمران 19)، وقوله أيضا: وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينْ (آل عمران 85)، ويفسرون الإسلام بمعناه الخاص، أي رسالة محمد صلى الله عليه وسلم دون غيرها من الرسالات، في حين أنَّ المعنى الواضح هو الدين بمعناه العام والمشترك بين كل الرسالات والشرائع السماوية، والمعنى أنه من يتخذ دينا لا يُبنى على التوحيد، فلن يُقبَلَ منه، ولنقرأ بهذه المناسبة الآية الكريمة التي تؤكد هذا المعنى، وتربط الإيمان المقبول بالتوحيد والعمل الصالح: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُون (البقرة 139).

وسنستعرض في الفقرات القادمة سيرة الأنبياء وكيف استخدموا جميعا كلمة "الإسلام"، لكي نبيّن معنى الإسلام كما جاء في القرآن الكريم، ونصل إلى مفهوم الإسلام بشكل واضح وجليّ، لا يرتابه شك أو غموض، وسنبحر عبر العصور لنستعرض التاريخ وكأنه فيلم سينمائي يمر أمام أعيننا، منذ بداية الخلق إلى بعثة الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن، ولا أشك لحظة واحدة أنّ الرحلة ستكون جميلة ساحرة وممتعة، فارفعوا المرساة وجهزوا أشرعتكم لنقصد أعالي البحار، حيث الهدوء والسكينة والصفاء والطمأنينة.

نوح عليه السلام: هو أول الرسل في الأرض، وللتذكير فقط نقول إن النبي هو من أوحى الله إليه ولم يطلب منه تبليغ الرسالة، وإنما اقتصرت مهمته على تعليم أهله ومن حوله، في حين أن الرسول هو من أوحى الله إليه وطلب منه أن يبلغ الرسالة إلى قومه، لذلك قيل: "كلُّ رسولٍ نبيّ، وليس كلُّ نبيّ رسول".

ولنرجع إلى نوح عليه السلام، ولنقرأ قول الله سبحانه: إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (النساء 163).

وهذا تأكيد على أن نوح هو أول الرسل، أمّا مَن كانوا قبله فهم أنبياء، مثل آدم أبو البشر، وشيث وادريس عليهم السلام.

ولنقرأ قول نوح لقومه: فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْمُسْلِمِينْ (يونس 72).

إبراهيم عليه السلام: هو أبو الأنبياء وخليل الرحمن، وإليه تُنسَبُ كلمةُ الإسلام التي رددها من بعده كل الأنبياء، ولنقرأ قوله تعالى: يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ ارْكَعُواْ وَاسْجُدُواْ وَاعْبُدُواْ رَبّكُمْ وَافْعَلُواْ الْخَيْرَ لَعَلّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي اللّهِ حَقّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدّينِ مِنْ حَرَجٍ مّلّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شهداء عَلَى النّاسِ فَأَقِيمُواْ الصّلاَةَ وَآتُواْ الزّكَاةَ وَاعْتَصِمُواْ بِاللّهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النّصِير (الحج 77–78).

ولنقرأ ما يرويه الله سبحانه عن إبراهيم الخليل: وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ * وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِين * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُون (البقرة 127–132).

ولا بد أن نشير مرة أخرى إلى أن الله سبحانه لا يستخدم كلمة إسلام بمعنى الاستسلام، بل بمعنى التسليم، لذلك لم يقل رب العالمين لإبراهيم "استسلم" بل قال له "أسلم". فالإسلام إذاً، هو دين خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، كما جاء في هذه الآية: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِين (آل عمران 67).

يعقوب عليه السلام: وهو ابن إسحاق، ومنه ينحدر بنو إسرائيل، وعنه تحدثنا الآية الكريمة: أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون (البقرة 133).

يوسف عليه السلام: وهو يقول في السورة التي تحمل اسمه: وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أكثر النَّاسِ لاَ يَشْكُرُون (يوسف 38).

وفي آية أخرى: رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِين (يوسف 101).

لوط عليه السلام: وفي حديثه عن لوط، يقول تعالى: فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنْ الْمُسْلِمِين (الذاريات 35-36).

سليمان عليه السلام: وفي القصة عن سليمان وملكة سبأ، نقرأ الآيات التالية: قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُو عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِين (النمل 29-31).

ثم نقرأ الآيات التالية في موضع آخر: قَالَ يَا أَيُّهَا المَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِين (النمل 38).

ونتابع القصة: فَلَمَّا جَاءتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِين (النمل 42).

موسى عليه السلام: أمّا موسى فيخاطب قومه قائلاً: وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِين (يونس 84).

عيسى عليه السلام: يحدثنا القرآن عن الحواريين في قوله تعالى: وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُون (المائدة 111).

وتحدثنا الآية التالية عن المسيح عليه السلام: فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُون (آل عمران 52).

محمد عليه السلام: يخاطب الله نبيه في هذه الآية: قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِين (الأنعام 161–163)، وفي آية أخرى: قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُون (الأنبياء 108)، وفي هذه الآية أيضاً: فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَاد (آل عمران 20)، ويخاطب الله الرسولَ بقوله: قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِين (آل عمران 84–85)، ثم يخاطب المسلمين مؤكداً على وحدة الرسالات السماوية: قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون (البقرة 136).

ولن نُوفي هذا الموضوع حقه إن لم نذكر آخر آية نزلت من القرآن الكريم في حجة الوداع: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِينًا (المائدة 3).

وأخيرا لا بد ان نُذكّر سريعا ببعض الآيات العامة عن الإسلام ومنها: بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون (البقرة (112).

وقوله تعالى: أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُون (آل عمران 83).

وكذلك: وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون (العنكبوت 46).

ومن الغريب أن كثيراً من الناس، وخاصة في الغرب، مازالوا يعتقدون بأنّ إله المسلمين هو إله آخر غير إله أهل الكتاب، في حين أنّ الآية المذكورة أعلاه تؤكد لليهود والنصارى بأننا نؤمن بنفس الإله الواحد، وإن كان اسمه بالفرنسية "Dieu"، وبالإنكليزية "God"، وبالعربية "الله".

ولهذا جاء في آية أخرى: قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (الإسراء 110).

وكذلك قوله تعالى: وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً * وَللهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأرض وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطاً (النساء 125–126).

قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (الأنعام 14–15).

وأخيراً: قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِين (غافر 66).

إن قراءة هذه الآيات تدل دلالة واضحة لا يعتريها شك، أنّ كلمة "الإسلام"، عندما تُستعمل بمعنى "الدين"، فهي تعني "التوحيد"، أي الإيمان بالله الواحد الأحد الذي لا شريك له، وهذا هو القاسم المشترك بين كل الشرائع السماوية، يؤكد ذلك أنه عندما جاء وفد من نصارى نجران إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، أنزل الله آية ترشدنا إلى الطريقة المثلى في حوار الحضارات، بل في أيّ حوار، حيثُ طلب الله من نبيه أن يبدأ الحوار بهذا القاسم المشترك الذي يتفق عليه الجميع، لأنَّ أيّ حوار، لكي يكون له حظ من النجاح، يجب أن يبدأ بنقاط الاتفاق وليس بنقاط الاختلاف، فقال تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (آل عمران 64).

عندما عَرَّفنا الدين، قلنا إنه الرابطة أو العلاقة بين العبد وربه، وأنَّ هذه العلاقة تبدأ بالتسليم والقبول بوحدانية الله، ثم تتوسع لتشمل العبادات، وعندها يكون الدين كاملا، وهنا نصل إلى مبادئ الدين الحنيف الذي تشترك فيه كل الشرائع السماوية، وهذا هو الدين الْقَيِّم، كما سمّاه القرآن الكريم،

بل جعله أمراً غريزياً لدى الإنسان، وبناه على الفطرة التي هي أساس الخَلْق، فقال سبحانه: فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أكثر النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (الروم 30).

هذا هو الدين إذاً، كما عَرَّفه القرآن الكريم، منذ أول رسالة نزلت من السماء، ابتدأت مع نوح عليه السلام، وأخذت شكلها واسمها الرسمي مع إبراهيم عليه السلام، الذي اتخذه الله خليلا، واستحق لقب أبي الأنبياء، كما قال عنه الله سبحانه: مّلّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ (الحج 78)، وكما جاء في هذه الآيات: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِين (النحل 120-123).

ثم أكمله في رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، التي هي آخر الرسالات والشرائع، وأخذ الإسلام اسمه النهائي وشكله الكامل، كما جاء في آخر آية نزلت من القرآن: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإسلام دِينًا (المائدة 3).

أو كما جاء في آية أخرى وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينْ (آل عمران 85).

وهذا يشمل كل الرسالات السماوية الموحدة "Monothéistes".

غير أنَّ الإسلام، كدين مشترك بين جميع الرسالات السماوية، يشمل إضافة إلى التوحيد والشهادة، "العبادات"، التي تشترك بها أيضا جميع الشرائع، وهي ما تُسمّى بأركان الإسلام، كما جاء في الحديث الشريف عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "بُنيَ الإسلامُ على خمس: شهادةِ أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدا رسول الله، وإقامِ الصلاة، وإيتاءِ الزكاة، وحجِّ البيت، وصومِ رمضان" رواه البخاري ومسلم.

فكل الشرائع السماوية كما قدمنا، تدعوا إلى عبادة الله الواحد، وفيها صلاة وصوم وزكاة وحج، فها هو المسيح عليه السلام يتكلم في المهد: قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (مريم 30-31).

وكذلك حال الصلاة والزكاة في اليهودية: وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (المائدة 12).

وهكذا جعل الله سبحانه الصلاة والزكاة كتوأمين لا ينفصلان، وهما من دعائم الدين العظيم، كما في الآية التالية: وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَة (البيّنة 5).

وعندما فرض الله الصوم، ذكّرنا بأنَّ الصوم قد كُتِبَ أيضاً على أهل الكتاب من قبل، كما في هذه الآية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون (البقرة 183).

أما الحج، فهو موجود من عهد إبراهيم عليه السلام، وهو الذي بنى الكعبة المشرفة مع ابنه نبي الله إسماعيل، كما جاء في سورة الحج: وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيق (الحج 26–29).

كما نقرأ في سورة البقرة: وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ * وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ (البقرة 127–131).

وهكذا يمكن لنا، بعد كل الآيات التي استعرضناها، أن نؤكد بما لا يقبل مجالا للشك، بأنَّ الله سبحانه قد أرسل للبشرية دينا واحدا مشتركا، سماه القرآن "الإسلام"، وأكّد أنَّ على المؤمنين في

كل عصر، أن يؤمنوا برسل الله جميعا دون تفريق، لكيلا يقوم التعصب محل الإيمان.

إنَّ كلَّ رسول قد بلّغ رسالة ربه، وأتم المهمة التي كلفه الله بها بكل قوة وعزم، ولنستمع لقوله تعالى: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِير (البقرة 285).

ومن الضروري هنا ان نُذكّر بأن من شروط الإيمان، أن يؤمن المسلم برسل الله جميعاً، كما تبينه الآية الكريمة: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيْدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيْدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً أُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقّاً وَاعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُم أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيْهِم أُجُورَهُم وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً (النساء 153).

كما أكد القرآن الكريم بشكل واضح وصريح، أنَّ الدين يجب أن يكون عامل وحدة، لا عامل تفرقة، وفي هذا رد على كل الذين يتحدثون عن صراع الحضارات، كما جاء في الآية الكريمة: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (الشورى 13)

أَمّا الإسلام كشريعة، فهو يختلف عن الشرائع والرسالات السماوية الأخرى، وذلك لأن كل شريعة جاءت في مرحلة زمنية معينة من تاريخ البشرية، فراعَتْ حاجاتها ومستواها الفكري ودرجة تطورها العلمي والاجتماعي والاقتصادي بل حتى السياسي، ولذلك جاءت آيات الله وأحكامه بما يناسب مدارك الإنسان المتنامية، وذلك من أجل المساهمة في تربية الإنسان وتهذيب فكره وتنظيم حياته، فآيات الله نظام مكنون في كتاب محفوظ، يكشف عنه سبحانه بقدر طاقة أهل الأرض على استيعابه، ووفقاً لمدى نضوجهم واستعدادهم، وهذا ما نجده في قوله تعالى: وَإِن مّن شَيْءٍ إِلاّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزّلُهُ إِلاّ بِقَدَرٍ مّعْلُوم (الحجر 21).

وهكذا يقف المؤمن مسلّماً مصدّقاً برسالات الله، ويعرف أنَّ مصدر ذلك كله هو الله رب العالمين، فيُرَدِّدُ بكل ثقة واطمئنان، قول الله سبحانه: وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الأَلْبَاب (آل عمران 7).

إنّ هذه الشرائع السماوية ليست متنافسة ولا متناقضة، ولكنها متكاملة، وهي من حيث أصولها وغاياتها فيض إلهي واحد، مصدرها واحد وغايتها واحدة، وهي متحدة في سعيها لتربية الإنسان وعلاج ما اختل من شؤون المجتمع البشري، بما يتفق مع درجة بلوغه ورشده، وإعداده لمتابعة السير نحو قمم التطوّر الروحاني غير المتناهية.

ولقد استمر هذا التطور وترافق مع تغيّرِ الظروف والأحوال، إلى أن بلغت الإنسانية مستوى من النضوج والتقدم، تستطيع معه أن تقف على رجليها وأن تطير بجناحيها، فكانت رسالة محمد آخر الرسالات وآخر اتصال بين السماء والأرض، واتحد اسم الدين والشريعة ليصبح واحدا واسمه الإسلام، ولذلك كانت آخر آية نزلت من القرآن الكريم في حجة الوداع: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإسلام دِينًا (المائدة 3).

وهكذا انتهت قصة الوحي السماوي، وترك الله ورسوله هذا الإرث العظيم، وحمَّلَ المسلمين مسؤولية المحافظة عليه ودراسته وفهمه، لكي يتسنى لهم تطويره ضمن الإطار العام الذي حدده الله ورسوله، وشجع على البحث والتفكر والاجتهاد، ولنقرأ هنا قول الله جل وعلا: فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (النساء 59).

وقوله أيضا: وَلَوْ رَدُّوهُ إلى الرَّسُولِ وَإِلىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ (النساء 83).

وقد تكفل رب العالمين بحفظ القرآن وشرحه وتأويله وتفسيره بقوله: إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (القيامة 17–19)، وقوله: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (الحجر 9).

الكتب السماوية

يجدر بنا في معرض حديثنا عن الشريعة، أن نستعرض الكتب التي رافقت الشرائع السماوية، ونشير بشكل موجز، إلى بعض ما جاء عنها من آيات في القرآن الكريم.

ولا بد أن نلفت الانتباه، إلى أن هذه الرسالات السماوية كانت رسالات مرحلية، وأنَّ كل رسالة إنما أتت لتكمل الرسالات السابقة، ولترافق التطور البشري، ولتضع القوانين المناسبة لكل مرحلة، مؤمنين بأن كّلاً منها كان مناسباً وملائماً للعصر الذي نزلت فيه، إلى أن وصل الإنسان إلى مستوى من الفكر والتطور، لم يعد معه بحاجة إلى رسل، فكانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم آخر الرسالات وأكملها، وكان النبي هو خاتم الأنبياء.

يقول الله سبحانه: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَّاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيّينَ مُبَشّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالحَقّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ (البقرة 213).

ويخبرنا القرآن طالبا منا أن نؤمن بما أنزله على أنبيائه دون ان يسمي كل هذه الكتب، في الآية الكريمة: قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبّهِمْ لَا نُفَرّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون (البقرة 136).

والكتب المذكورة في القرآن الكريم هي:

صحف إبراهيم وموسى: قال تعالى أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ للإنسان إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (النجم 36-41).

التوراة: وكلمة التوراة في العبرية تعني "التعليم والشريعة" وهي التي أُنزلت على موسى عليه السلام، وهي كتاب عظيم اشتمل على النور والهداية، قال تعالى: إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّه (المائدة 44)، وجاء في آية أخرى: ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبّهِمْ يُؤْمِنُون (الأنعام 154).

ولا بد من الإشارة هنا إلى وصف القرآن للتوراة كتاب موسى: "تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً" وهذا ما أردنا أن نشير إليه دائما بأن كل شريعة في وقتها، هي في منتهى الكمال، كيف لا وهي تنزيلٌ من رب العالمين!

الإنجيل: وهو الكتاب الذي أُنزلَ على سيدنا عيسى عليه السلام، والإنجيل لفظ يوناني معناه "البشرى"، وهو الكتاب الذي أنزله الله على المسيح متممًا للتوراة، ومؤيدًا لها، وموافقًا لها في أكثر الأمور الشرعية، يهدي إلى الصراط المستقيم، ويبين الحق من الباطل، ويدعو إلى عبادة الله وحده دون سواه، كما قال تعالى: وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (المائدة 46).

ويربط القرآن بين ما أُنزل على محمد وبين الكتب السماوية الأخرى، ليُذكّرنا دوما بأنها كلها من عند الله سبحانه كما في هذه الآية: نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيل (آل عمران 3)، فالقرآن جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل ومكملا لهما كما ذكرنا في أكثر من موضع.

الزبور: وقيل معناه الكتاب وهو ما أُنزل على نبي الله داوود عليه السلام، قال تعالى وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورا (الإسراء 55).

القرآن الكريم: وهو آخر الكتب السماوية نزولاً، وهو كلام الله أنزله على النبي محمد صلى الله عليه وسلم على مدى ثلاثة وعشرين سنة، كما جاء في هذه الآية: وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (الإسراء 106)، وهو آخر الكتب السماوية وخاتمها وأطولها وأشملها، كما جاء في الآية الكريمة: وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْه (المائدة 48).

ومعنى "وَمُهَيْمِنًا عَلَيْه"، أي مشتملًا على ما اشتملت عليه الكتب السابقة، ومكملا لها وشاهدا عليها، وبه يؤمن أهل الكتاب لِما يعرفون به من الحق، كما جاء في هذه الآية: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (القصص 52-53).

أو كما قال في حديثه عن النصارى في عصر النبوة: وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلى الرَّسُولِ

تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِين (المائدة 82–83).

إن الآيات التي تربط وتؤكد على وحدة المصدر لجميع الرسالات السماوية كثيرة، والهدف منها هو التوضيح للمؤمنين ولأهل الكتاب، أن القرآن لم يأت لينقض أو يلغي أو يكذب ما قبله، بل هو مُصدّق لها، ومُكمّل لرسالات الأنبياء من قبله، يقول الله في كتابه الكريم: اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَان (آل عمران 2–4).

كما يؤكد لنا رب العالمين أن هذا القرآن، المصدّقُ لما قبله من الكتب السماوية والمكمّلُ لها، لأنه تفصيلٌ لما قبله، إنما هو من عند الله رب العالمين: وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين (يونس 37).

لكل ما تقدم نجد أن الله سبحانه قد اختص رسالة محمد، لأنها آخر الرسالات، كما اختص رسوله لأنه خاتم الأنبياء، بأن جعله رسولا للناس أجمعين، كما جعل من رسالته رسالة للبشرية جمعاء، لأنها آخر صلة بين السماء والأرض حتى قيام الساعة، وسنجد عبر هذا الكتاب، وفي أماكن كثيرة، أن هذه الرسالة وهذا القرآن العظيم، فيهما من الآيات والدلائل ما يثبت ذلك على الدوام، ولذلك يقول الله سبحانه: سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد (فُصِّلَتْ 53).

نعود هنا إلى الآيات التي تؤكد ما قلناه عن عالمية الإسلام ورسالته ومنها:

مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُم وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَليماً (الأحزاب 40).

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا (الأعراف 153).

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِين (الأنبياء 107).

الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إلى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيد (إبراهيم 1).

كما تشير بعض الآيات إلى أن رسالته قد وصلت بشكل غير مباشر إلى الجن، كما جاء في الآيات التالية:

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إلى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (الجن 1).

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إلى الْحَقِّ وَإِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأرض وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَولِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِين (الأحقاف 29–32).

الإيمان

الإيمان في اللغة هو التصديق ومنه قول إخوة يوسف لأبيهم وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِين (يوسف 17)، أي ما أنت بمصدقنا، وفي الشرع عَرَّفَ السلفُ الإيمان بأنه: "اعتقادٌ بالقلب، ونطقٌ باللسان، وعملٌ بالأركان".

وفي الحديث: "قولٌ وعملٌ يزيد وينقص" وقال العلماء إن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ومنه قوله تعالى لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ (الفتح 4)، وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى (مريم 76)، ومنها وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا (المدثر 31)، وكثير غيرها من الآيات...

ومن المفيد أن نشير في هذا السياق إلى أن بعض العلماء يرى أن العمل شرط في صحة الإيمان، في حين جعله آخرون شرطاً في كماله، والآية الكريمة واضحة الدلالة على أن الإيمان يزداد: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (الأنفال 2–4).

إنَّ الإيمانَ قولٌ وعمل، إذ لا يكفي أن نصف الدواء لنقضي على المرض، بل لا بد من تناول الدواء، ولا يكفي أن نذهب إلى أجمل الينابيع ونحمل الماء مهما كان غزيراً وصافياً وعذباً، لنرتوي من العطش، ولا يكفي أن نقدم الماء لكل من يشكو من الظمأ، بل لا بد لنا أن نشرب من الماء لنقضي على الظمأ، ولنستمع إلى السيد المسيح عليه السلام وهو يقول "لأنه ماذا ينفع الإنسان إذا ربح العالم كله وخسر نفسه"، لذلك فإن إيماننا إن لم يقترن بالعمل فسنظل عطشى قلقين وحائرين، حتى يقترن القول بالعمل والنية بالعزيمة والحكمة بالإرادة، عندها يحافظ الإيمان على حيويته في النفوس وأثره في الوجدان، فيُعطي القوّةَ لمن يُريدُها، والنصرَ لمن يبتغيه، وهذا ما تقوله الآية الكريمة: إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ (الرعد 11).

لهذا لا بد لنا أن نتحدث وبشيء من الصدق والصراحة والواقعية، عن الفجوة الكبيرة الموجودة في عصرنا الحاضر، بين الإسلام والمسلمين، بين الإيمان والمؤمنين، ومما يلفت الانتباه ويدعو إلى التساؤل أن الكثيرين منا يحرصون على حفظ القرآن الكريم، ولكن كم منا يحرص على التخلق بأخلاقه والعمل به؟

ولنقرأ كيف كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يتربون في مدرسة النبوة وفي رحاب الرسول الكريم، قال ابن مسعود رضي الله عنه: "كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن". وقال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي صلى الله عليه وسلم "فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها يعملوا بما فيها من العمل فتعلمنا القرآن والعمل جميعا".

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ؟" "قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ، فَقَالَ إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي وقَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذْفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى عَنْهُ مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ" رَوَاهُ مُسْلِمٌ

يقول الله سبحانه: فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (الأعلى 9–12)، ومن أجل هذه التذكرة فان علينا أن نقرأ الآية التالية، لأنها من أكبر الدروس التي يجب أن نعيها في هذا الزمن الذي نعيش فيه، يقول الله تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ

حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِين (الجمعة 5)، سائلين الله أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأن يكون القول قرين العمل، وأن يكون العمل خالصا لوجه الله تعالى.

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الإسلام والإيمان لهما نفس المعنى، لكننا لن ندخل في هذا النقاش أو في شرح آراء كل فئة وأدلتها، فهي طويلة وغير ضرورية، غير أننا نستطيع أن نقول ودون أن نجافي الحقيقة، بأن الإيمان مرتبة أو درجة أعلى من مرتبة الإسلام كما جاء في الآية الكريمة: قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ (الحجرات 14).

أو كما جاء في الحديث "ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وصدّقه العمل".

ان الإيمان كالإسلام له أركانه كما جاء في الحديث: "قال أخبرني عن الإيمان" قال صلى الله عليه وسلم "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره" فالإيمان كما جاء في الحديث له ستة أركان وهي:

الإيمان بالله

الإيمان بالملائكة

الإيمان بالكتب المرسلة

الإيمان بكل الرسل دون تفريق

الإيمان باليوم الآخر أي يوم القيامة

الإيمان بالقدر

يبدأ الإسلام إذاً بشهادة التوحيد، فهو قولٌ باللسان، ويجب أن يرافقه التصديق والاعتقاد بالقلب ومن ثم العمل بالأركان التي افترضها رب العالمين من صلاة وصيام وزكاة...

إن من الأهمية بمكان، أن نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى قد قرن الإيمان بالعمل في كثير من الآيات ومنها: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (الكهف 107-108).

وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَار (البقرة 25).

وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون (البقرة 82).

إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (يونس 9).

وهكذا يبدو واضحا لا لبس فيه أن الإيمان كما جاء في الحديث هو "ما وقر في القلب وصدّقه العمل".

الإحسان

الإحسان في اللغة هو الإتقان وقد جاء في الحديث: "إنَّ الله يُحبُّ إذا عمل احدكم عملا أن يتقنه"، وقد عرَّف الإمام الغزالي الإحسان بقوله: "الإحسان إتقانٌ للعمل، وتحسينٌ في الأداء، وحسنٌ في العطاء، وعدم الإساءة"، وهو مراقبة الله في السر والعلن، وفي القول والعمل، وهو فعل الخيرات على أكمل وجه، وغايته الأولى ابتغاء مرضاة الله، كما جاء في الآية الكريمة: وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً (الإنسان 8-9).

ولا بد أن نُذكّرَ بقول رابعة العدوية الشهير "يا رب، أنا ما عبدتك خوفا من نارك ولا طمعا في جنتك، ولكن لأنك تستحق العبادة".

إن الإحسان كما سنراه في الفقرات اللاحقة هو أخلاق، والأخلاق بحاجة إلى شرح وتفصيل، ولكننا قبل ذلك سنذكّر بحديث جبريل عليه السلام الذي فصَّلَ فيه المفاهيم الثلاثة: الإسلام والإيمان والإحسان، فقد جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: "بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا

يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً. قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل. قال: فأخبرني عن أماراتها؟ قال: أن تلد الأَمَةُ رَبَّتَها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان. قال: ثم انطلق فلبثت مليّاً، ثم قال لي: يا عمر، أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم" رواه مسلم.

ومما تقدم نستطيع أن نلخص ما توصلنا إليه من شرح للمفاهيم الاساسية في العقيدة الإسلامية، كما يلي:

الإسلام، يبدأ إذا بالشهادة والتسليم بالوحدانية المطلقة لله رب العالمين، هذه الشهادة تكون قولاً باللسان.

الإيمان، يكون عندما تطمئن النفس، ويستقر التصديق في القلب، ويصحبه العمل.

اما الإحسان، فهو درجة عالية من السمو والكمال وذلك عندما يكون الله حاضرا كأنك تراه أمامك، تراه بقلبك وروحك وأحاسيسك، وعندها لا يمكن للمؤمن أن يتصرف إلا بسلوك رباني، لا تشوبه شائبه، ولذلك قيل عن النبي صلى الله عليه وسلم: "كان خلقه القرآن"، وقال عنه رب العالمين: وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (القلم 4).

قلنا في الحديث عن الاحسان إنه أخلاق وسلوك، وإنه إحسان في كل شيء، في العبادة، في العمل، في التعامل مع الآخرين، في السلوك والتصرف، وفي الحوار، بل حتى في معاملة الحيوان، وفي العلاقة مع البيئة وغير ذلك من المواضيع، ولنستعرض بعضاً من الآيات والأحاديث المتعلقة بالإحسان:

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (الإسراء 23). وكذلك: وَإِذا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (النساء 86).

وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ للإنسان عَدُوًّا مُبِينًا (الإسراء 53).

ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِين (النحل 125).

قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (البقرة 263).

هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (الرحمن 60).

وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (البقرة 195).

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسانِ وَإِيتَآىءِ ذِى الْقُرْبى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ والْمُنكَرِ وَالْبَغِى يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون (النحل 90).

ورغم اننا سنتحدث عن العدل في الفصل المخصص للقيم العالمية في الإسلام، إلا أنه تجدر الاشارة إلى أنَّ الإسلام قد ربط العدل بالإحسان، ليكون عدلاً رحيماً وليس انتقاماً، فالإحسان فوق العدل، وإذا كان العدل إنصافاً وقسمةً وقسطا، فإن الإحسانَ بذلٌ وعطاءٌ وتضحيةٌ وإيثار، لذلك نرى الإسلام برحمته السماوية يدعو المؤمنين إلى العفو والصفح وترك الانتقام ولكنه لا يبخس الناس حقوقهم ولنقرأ الآيات التالية:

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (النحل 126).

وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ (الشورى 40).

وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ (المائدة 45).

الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (آل عمران 134). إلى غير ذلك من الآيات وهي كثيرة.

وهكذا نجد أن الإحسان هو الإتقان والصدق والإخلاص، وهو العلامة المميزة لصدق العبد مع ربه، ومع نفسه، ومع غيره من الناس، والإحسان يكون بتجسيد الإسلام تجسيدًا عمليًّا في العبادات والأخلاق والمعاملات، ليكون المسلمون أسوةً لغيرهم من الناس في شتى مجالات الحياة، كما أن الرسول هو أسوة للمؤمنين، كما قال الله سبحانه: لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (الأحزاب 21)، وهذا هو موقع المسلم، كما عرّفه رب العالمين بقوله: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً (البقرة 143).

ويبين الرسم أدناه، العلاقة بين الإسلام والإيمان والإحسان، والتدرج في السمو نحو الكمال:

- فالإسلام ينتقل بالتلقين والاستماع عن طريق الفكر.
- والإيمان ينتقل بالعمل والاتباع عن طريق السلوك.
- والاحسان ينتقل من قلب لقلب، عن طريق المحبة.

والتقوى هي اللباس بكل أشكاله، وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ.

إن اجتماع هذه الدرجات هو قمة الكمال، لإنَّ غياب بعضها يؤدي إلى إسلامٍ مبتورٍ خالٍ من الروح والروحانيات، فالقمة تنادينا، ولكن الصعود إلى القمة يحتاج إلى عزيمة وجهد وعمل! فطوبى لمن شد الرحال قاصدا القمة: وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورا (الإسراء 19).

التقوى

لن يكون حديثنا عن المفاهيم السابقة كاملاً، إن لم نتحدث عن التقوى، وهي في اللغة من "وقى"، وتدل على دفع شيء عن شيء بغيره، ويُقصَدُ بها الحماية، لذلك يُقال، يتقي البرد والحر أو يتقي الخطر، كما في الآية الكريمة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا (التحريم 6).

وقال تعالى: وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب (الطلاق 2-3)، وقد رُويَ عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لو أخذ الناس كلهم بهذه الآية لكَفَتْهُم).

أما شرعاً، فقد جاء في الأثر: "التقوى أن لا يجدك الله حيث نهاك، وأن لا يفتقدك حيث أمرك".

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "التقوى هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل".

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: "التقوى هي أن يُطاعَ اللهُ فلا يُعصى، ويُذكَرَ فلا يُنسى، وأن يُشكَرَ فلا يُكفَر".

وسنذكر على سبيل المثال لا الحصر، الآيات التي تتحدث عن التقوى، ومنها:

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُون (الأعراف 26). وكذلك: يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُون (النحل 2)، ثم: وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (المؤمنون:52)، وفي هذه الآية: لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (الزمر 16)، ثم في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (آل عمران 102)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (النساء 1)

وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ (النساء 131)

وكذلك وصية الأنبياء لقومهم:

إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (الشعراء 106)

إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ (الشعراء 124)

إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (الشعراء 142)

إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (الشعراء 161)

إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (الشعراء 177)

وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (العنكبوت 16)

إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (النحل 128)

وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (الأعراف 156).

وهكذا رأينا في هذا الفصل شرحا موجزاً ومبسطاً لمفاهيم هامة مثل: الدين والشريعة، الإسلام والإيمان، الاحسان والتقوى، والهدف من كل ذلك هو توضيح هذه المفاهيم الأساسية في الإسلام، بشكل يسهل فيه فهمها وتطبيقها، والالتزام بها في حياتنا كأفراد، وذلك لأن هذا الفهم يشكل الإطار الضروري لفهم الدين بشكله الصحيح، بعيدا عن الأفكار المسبقة والمفاهيم المتوارثة دون مراجعة أو تدقيق، وبهذا المعنى سنستعملها في هذا الكتاب.

الفصل الثاني
أركان الإسلام

سبق وأشرنا إلى أن الإسلام كدين مشترك بين جميع الشرائع السماوية، يشمل إضافة إلى التوحيد والشهادة: "العبادات"، التي تشترك بها أيضا جميع الشرائع، وهي ما تُسمّى بأركان الإسلام، كما جاء في الحديث الشريف عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "بُنيَ الإسلامُ على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان" رواه البخاري ومسلم.

فكل الشرائع السماوية كما قدمنا، تدعوا إلى عبادة الله الواحد، وفيها صلاة وصوم وزكاة وحج، وقد شبه النبي صلى الله عليه وسلم الإسلام بالبناء، وبيّن لنا الأعمدة التي يستند إليها ليبقى قويا متينا في قواعده، راسخاً في مبادئه، فإذا ضعفت هذه الأركان أو بعضها ضعف الإسلام، وإذا تخلينا عنها سقط البناء وانهار، وضاع الإسلام.

لذلك كان لا بد لنا أن نستعرض هذه الأركان التي هي أصول الإسلام وأساساته، والتي لا يقوم البناء ولا يستقيم إلاّ بها، لنكتشف معا بعضا من حكمتها وفوائدها، لأننا نجهل الكثير منها بلا شك.

وقد سبق لنا أن ذكّرنا بالحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَكْمَلَهُ،

إلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ". وهكذا فإنه مع بعثة النبي الكريم محمد بن عبد الله خاتم النبيين أصبح الصرح كاملا قويا يَسُرُّ الناظرين.

فلنبدأ بدراسة هذه الأركان لكي يظل بناؤنا قويا متماسكا لا يصيبه وهن أو ضعف.

الركن الأول: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله

سبق وأشرنا بكثير من التفصيل، إلى أن أساس الدين كله هو شهادة أن لا إله إلا الله، وهو مبدأ التوحيد، وقلنا إن هذا هو القاسم المشترك بين جميع الشرائع السماوية، ومعنى هذه الشهادة هو الإقرار بأنه لا إله يستحق أن يُعبد سوى الله الخالق الواحد الأحد، والآيات التي تتحدث عن هذه الشهادة والتوحيد كثيرة، إلا أننا نجد بعضها يتحدث عن الربوبية وبعضها يتحدث عن الالوهية، لذلك كان لا بد من توضيح المقصود بكل منهما.

الرب: هي كلمة مشتقة من "ربّى"، بمعنى نمّى وغذّى واعتنى، فهي تُطلق أساسا على كل من يعتني بشيء ما ويدبر أموره، ومن هنا يقال عن الوالد ربّ الأسرة، ونجد تعابير أخرى مثل ربّ القبيلة، وربّ الغلام أي سيده وولي أمره. ولهذا اكتسبت الكلمة معنى الملك والسيادة والسلطة.

فالربوبية إذا، هي علاقة الله بمخلوقاته، وفيها مفهوم السيطرة، فالله رب الناس أجمعين، سواء كانوا مؤمنين أم غير مؤمنين، وهو رب الكون ورب كل شيء، لذلك نجد الآيات في القرآن الكريم تتحدث عن "رب العالمين"، وعن "رب السماوات والأرض"، وكذلك عن "رب العرش العظيم"، في حين أننا لا نجد "إله العالمين"، وليس ذلك صدفة، فكلام الله له دائما مدلولاته وإن جهلناها.

أما كلمة الله والالوهية، فهي اعتراف بالله وتوحيده، وهي علاقة طاعة وعبادة واختيار، لذلك فإنها لا تُوجَّهُ إلا للإنسان العاقل، الذي له الخيار في أن يؤمن أو لا يؤمن، أما الرب فهو خالقه وخالق كل شيء، سواء اعترف الإنسان بذلك أمْ لم يعترف!

ويتضح هذا الفرق جلياً في سورة طه التي تروي لنا قصة نبي الله موسى: فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (طه 11-14).

فعندما نادى الله تعالى موسى، عرَّفه بنفسه قائلاً: "إني أنا ربك"، ليُبين له نعمته عليه بكلامه له، وهذا من مقام الربوبية، لأن الله هو الذي يرزق ويعطي، يحيي ويميت، يغفر ويحاسب، أما في تتمة الآية فقال: إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي، وهنا استخدم كلمة "الله"، ليبين لموسى الواجب عليه تجاه الله سبحانه وذلك بالعبادة والقيام بالصلاة.

من هذا يتضح أن الله يذكر كلمه الرب، عندما يتحدث عن الخلق والخالق، وعندما يبين فضله وكرمه ورحمته ورعايته ولطفه وعذابه وقدرته، وكل شيء يختص بالله تعالى الخالق نحو جميع مخلوقاته، بما فيها الكون والإنسان والحياة، في حين أنه سبحانه يذكر لفظ الجلالة الله ليبين ما يجب على العباد نحوه تعالى، من الإيمان به قبل كل شيء، ومن خشيته والخوف منه وتقواه وشكر نعمه ودوام ذكره وإقامة الصلاة وغير ذلك مما يجب على العباد نحو الله تعالى. لذلك جاءت دعوات الأنبياء جميعا إلى قومهم للإيمان بالله وعبادته أي للإيمان بألوهيته وليس بربوبيته، فالربوبية حق سواء اعترف بها الإنسان أم لم يعترف.

وفيما يلي بعض الآيات التي تتحدث عن الربوبية، حيث يمكن أن نلاحظ استعمال كلمة الرب فيها جميعا: ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (الأنعام 102).

أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (الأعراف 54).

رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (مريم 65).

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (يونس 3).

أما في الآيات التي تتحدث عن الألوهية، فإنها تستعمل كلمة الله:

وَما أَرْسلنا مِنْ قَبْلِكِ مِنْ رَسولٍ إلاّ نوحي إليهِ أَنَهُ لا إلهَ إلاّ أَناْ فاعبُدُون (الأنبياء 25).

وإِلهُكُم إلهٌ واحدٌ لا إله إلاّ هُوَ الرحمنُ الرحيم (البقرة 163).

شَهدَ اللهُ أنَّه لا إله إلا هو والملائكةُ وأولوا العلم قائماً بالقسطِ لا إلهَ إلا هوَ العزيزُ الحكيمُ * إنَّ الدينَ عندَ اللهِ الإسلام (آل عمران 18–19)

وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إذا شَطَطًا (الكهف 14)، وهنا نلاحظ كلمة الرب للسماوات والأرض في حين لن ندعو من دونه الها ليبين ايمان وطاعة أهل الكهف لله المعبود الواحد سبحانه.

ربُ المشْرِقِ والمَغْرِبِ لا إله إلاّ هو فاتخذْهُ وكيلاً (المزمل 9).

كُلاً نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (الإسراء 20).

وقد ذكر الله "عطاء ربك"، ولم يقل "عطاء الله"، ليبيّن بأن العطاء خاص بالله تعالى نحو خلقه، المؤمن منهم وغير المؤمن، لا ينازعه ولا يشاركه فيه أحد، بيده خزائن السماوات والأرض سبحانه، وتعبير "هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ"، يشير إلى أن عطاء الله يشمل الناس جميعاً.

ويرى الفقهاء أن التوحيد يتألف من ثلاثة أقسام:

توحيد الربوبية: أي الإيمان أن الله وحده هو الخالق الذي يدبر أمور الكون والعباد، مؤمنهم وكافرهم.

توحيد الألوهية: أي أن الله وحده هو الإله الذي يستحق العبادة.

توحيد الأسماء والصفات: الإيمان والتصديق بكل ما ورد من صفات الله وأسمائه، من غير تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل.

وهكذا بعد أن توضح لنا الفرق بين الربوبية والألوهية، يمكننا أن نقول بأن الربوبية هي معرفة وقناعة والألوهية هي تسليم وطاعة، وهذا الإيضاح سيسمح لنا بفهم أفضل لمعنى الكفر والشرك بالله، فيما سيأتي من فقرات.

وهكذا يصبح واضحا بأن الإيمان الجازم بأنه "لا إله إلا الله"، يعني أنه لا يوجد في هذا الوجود كله من يملك القدرة الحقيقية على الخلق والرزق والضر والنفع والموت والحياة والنشور،

سوى إله واحد في السماء، وكل من هم دونه فإنما هم عباد يستمدون بقاءهم وقوتهم منه، ولا يملكون سلطاناً للتحكم في الخلق إلا بإذنه، عندها يتحرر المؤمن من الخوف ومن القلق ومن العبودية لغير الله، فيصبح حرا عزيزا كريما، ويتذكر قول الله سبحانه: وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ (المنافقون 8)، وهذا ما عبر عنه الصحابي الجليل ربعيٌّ بن عامر عندما سأله "رستم" قائد الفرس: ما جاء بكم؟ فَرَدَّ عليه ربعي قائلاً: "إن الله ابتعثنا لنُخرج مَنْ شاء مِنْ عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جَوْرِ الأديان إلى عدلِ الإسلام".

من كل ما تقدم، فإننا نستطيع أن نؤكد بأن الإيمان الصحيح بالله الواحد، هو الطريق إلى الحرية الحقيقية التي لا تقبل الذل ولا الاستعباد، لأنه بهذا الإيمان يخرج الإنسان مِنْ عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ويصبح المؤمن أكثر قوة وعزيمة وثقة، بالله أوّلاً، وبنفسه ثانيا، وذلك لأنه لم يعد يخشى أحدا إلا الله، وهذا ما عبر عنه الإمام علي بوصفه للمؤمنين بقوله: "عظم الخالقُ في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم"، إن هذا الطريق ليس الطريق إلى الحرية فقط، وانما إلى النصر أيضا وفي كل المجالات، وهذا هو مدلول الآية الكريمة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (محمد 7)، وقوله تعالى إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ (آل عمران 160)، ذلك أن نصر الله يكون بالإيمان به واتباع اوامره واجتناب نواهيه، فإذا تحققت هذه الشروط تحقق وعد الله سبحانه.

الفطرة والحنيفية والميثاق

إن الحديث عن التوحيد والربوبية والألوهية، لن يكون كاملا، إن لم نتحدث عن الفطرة والحنيفية، التي تكرر ذكرهما في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أكثر النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (الروم 30).

اختلفت الآراء والأقوال في معنى "الحنيفية"، وماهية "الفطرة"، المذكورتين في هذه الآية، وقد ذهب كثيرون إلى القول بأنها دين الإسلام، أي رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، إلاّ أنَّ هذا التفسير غير دقيق، ولا يتفق مع ما توصلنا إليه لدى استعراضنا وشرحنا لمعنى الإسلام القائم على

مبدأ التوحيد، والذي يشمل كما قلنا كل الرسالات السماوية، ولأن هذه الفطرة هي للبشرية جمعاء، منذ خلق الله آدم وحتى قيام الساعة، فهي موجودة قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم.

لكل ذلك كان لا بد لنا من دراسة هذه الآية، لنحاول الوصول إلى تفسير أدق لكلمتي الفطرة والحنيفية، بشكل يتناسب مع بقية الآية، ومع آيات أخرى سنستعرضها خلال حديثنا هذا.

وسنبدأ باللسان العربي لنُعرِّفَ الفطرة والحنيفية، ثم نحاول فهمهما في سياق الآيات القرآنية، ليتوضح لنا المقصود بكل منهما.

فالحنيفيَّةُ مأخوذةٌ من الْحَنْفِ، والحَنْفُ معناه الميل، فالحنيف إذاً هو المائل، وعندما نقول إن قلب الإنسان يميل إلى هذا الشيء، فمعناه يتجه إليه ويفضله، وذهب ابن الجوزي في تعريف معنى الحنيف، فرأى في الحنيف قولين:

أحدهما: أنه المائل إلى العبادة، والثاني: أنه المستقيم، وقال كثيرون إنه المائل عن الشرك نحو التوحيد، ولكيلا ندخل في مجالات التفسير والتأويل والآراء المختلفة وهي كثيرة، فإننا سنأخذ بالمعنى العام والمتعارف عليه والقائل بأن الحنيف هو الموحِّد والمسلم، كما عَرَّفناه في الفصل الأول، وكما يُفهم من الآيات التالية:

قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (الأنعام 161)، وكذلك: إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (الأنعام 79)، ثم في الآية التالية: وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (البيّنة 5).

أما الفطرة، فهي اسم هيئة من "الفَطْر"، الذي هو الخَلْق، فهي بمعنى الخِلقَة، كما جاء في القرآن الكريم: "الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ" أي خالقهما، فالفطرة إذاً، هي جزء من الطبيعة البشرية، وفطرة الله في هذه الآية، حال من الدين، وكونها "فطرة الله التي فطر الناس عليها"، فإنه لا يمكن تبديلها أبدا ولا الانفكاك عنها، كما تنص الآية الكريمة: "لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أكثر النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ"، مما يدل على أن هذه الفطرة تؤول إلى معنى الدين القيّم، والدين لا يكون قيّما إلا إذا تساوى معناه ومدلوله بالنسبة إلى جميع البشر وجميع الرسالات، وهذا يؤكد ما قلناه منذ البداية، إذ تصبح الفطرة بمعنى التوحيد، الذي هو القاسم المشترك بين كل الرسالات

السماوية، ولكي نكون أكثر دقة، فهي تعني توحيد الربوبية كما رأيناه سابقا، وكما جاء في الآية التالية: وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ، فالله سبحانه استخدم كلمة "ربكم" لأن الفطرة لا تتعلق بالرسالة أو الطاعة والعبادة، بل بالسيادة والسلطة التي منها الخلق، والمقصود ألست بخالقكم؟

وإذا نظرنا إلى تتمة الآية "لا تبديل لخلق الله"، فإنه يصبح أقرب للفهم أن المراد بالفطرة ليس التوحيد بعينه، وإنما مجرد الاستعداد الأولي لقبول التوحيد، وعدم ملاءمة الشرك للنفس الإنسانية في نقائها الذي خلقها الله عليه، ولو كان المقصود التوحيد، لما أمكن تغييره ولوجدنا أن الناس جميعا يؤمنون بالله، وهذا لا يطابق الواقع.

أمَّا الميثاق فمأخوذ من الوثاق، فهو اسم مصدر، وأصله الشد والربط، من وثَّقَ الشيء وأوثقه إذا شدَّ وربط، وقد أخذ الله على الناس ميثاقًا وهم في ظهور آبائهم، وأشهدهم على وحدانيته وربوبيته، فأقرّوا بذلك، وأنه سبحانه سيسألهم عن ذلك يوم القيامة، يدل على ذلك قول الله تعالى: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (الأعراف 172-174).

وقد اختلف أهل العلم متى كانت هذه الواقعة، أي واقعة الإشهاد، فقال بعضهم: لما خلق الله تعالى آدم، أخرج جميع أبنائه إلى الوجود، أي كل البشر من عهد آدم إلى آخر الناس الذين ستقوم عليهم القيامة، وكان الناس كما ورد في الحديث، كالذَّرّ، والذر يُقال لصغار النمل، أو للهباء والغبار الدقيق الذي يطير في الهواء، فالذر يضرب به المثل في الصغر، ومنه الذَّرَّة.

ويتابع أصحاب هذا الرأي القول، بأن الله تعالى قد خلق في ذلك الذر العقل والفهم والنطق، حتى يستوعبوا العهد، ثم إن البشرية حين خرجت إلى عالم الذر، انحصرت جميعاً قُدّام آدم ونظر إليهم بعينه، كما في رواية الترمذي، وخاطبهم الله سبحانه: ألست بربكم، فقالوا: بلى، قال القرطبي: "أخذ عليهم العهد بأنه ربهم وأنه لا إله غيره، فأقروا بذلك والتزموه، وأعلمهم أنه سيبعث إليهم الرسل، فشهد بعضهم على بعض". ثم أعادهم الباري إلى صلب آدم، فلا تقوم الساعة حتى يولد كل من أخذ منه الميثاق.

ويرى آخرون: أن المقصود بالإشهاد، هو أن الله استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم أي بعد الولادة، فشهدوا على أنفسهم أن الله ربهم وأنه لا إله إلا هو، فقد أشهدهم على أنفسهم بلسان الحال لا بلسان المقال، أي دلهم على توحيده وفطرهم عليه، بأن بسّط لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركّبها الله فيهم، فالمراد بالإشهاد فطرتهم على التوحيد، كما جاء في حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما من مولود إلا يُولَدُ على الفطرة". وأضاف أصحاب هذا الرأي، أن الإنسان يولد وهو لا يذكر هذا العهد، ولا يذكر هذا الميثاق، فأي فائدة تكون في عهد وميثاق يولد الإنسان وهو لا يذكره ولا تقوم به حُجّة، والله سبحانه وتعالى أخبر أنه أخذ الميثاق لأجل أن تقوم الحجة على بني آدم، وإذا كانوا يولدون ويخرجون إلى الدنيا ويكبرون وهم لا يذكرون هذا الميثاق، دل ذلك على أن المراد به شيء آخر، غير ما أشارت إليه الأحاديث من استخراج ذرية آدم من ظهره كأمثال الذر.

وفي تفسير قوله تعالى: وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ، قال العلماء إن الشهادة في القرآن يراد بها الإقرار ولا يَلزم بها النُطق، بل قد تكون الشهادة بالحال لا بالمقال، ومن ذلك قوله تعالى: مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ (التوبة 17)، فهم شاهدون على أنفسهم بالكفر حالًا لا مقالًا، لأنهم لم يقروا بأنهم كفار، وإنما شهادتهم شهادة حاليّة لا شهادة مقاليّة، وكذلك قوله: قَالُواْ بَلَى، فالقول قد يكون باللفظ وقد يكون بالحال، أي قالوا كذلك بلغة الاستعداد ولسان الحال لا بلسان المقال، وهو من قبيل قوله تعالى بعد ذكر خلق السماء: ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (فُصِّلَتْ 11)، وهذا النوع من التعبير والبيان يسمى في عرف علماء البلاغة بالتمثيل، وهو أعلى أساليب البلاغة.

والمراد أن الله سبحانه قد أودع في فطرتهم وفي أنفسهم غريزة الإيمان، وركَّبَ في عقولهم الاستعداد للإيمان به وتوحيده، وجعل من مدارك عقولهم الضرورية أن كل فعل لا بد له من فاعل، وكل حادث لا بد له من محدث، وأن فوق الموجودات القائمة على سُنَّة الأسباب والمسببات، والعلل والمعلولات، سلطانا أعلى من جميع الكائنات، هو الأول والآخر وهو وحده الذي يستحق العبادة.

هذا وسأترك لخيالي العنان لأذهب إلى أبعد من ذلك، لأنني لا أشك لحظة واحدة، بأن هذه الفطرة هي جزء من التركيب العضوي للإنسان، موجودة فيه كغريزة طبيعية، بل ربما هي موجودة

في الصبغيات الإنسانية، تنتقل بالوراثة من جيل إلى جيل، كما تشير الآية التالية: صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (البقرة 138).

فكأنما وضع الله سبحانه في الجهاز الوراثي (ADN)، الاستعداد الطبيعي لتقبل مبدأ التوحيد كرأي سليم، وهكذا يصبح فهم الآية السابقة ممكنا، من حيث شمول هذه الفطرة الوراثية للبشر جميعا، وانتقالها بين بني آدم دون استثناء، وإلا كيف يمكن تفسير أن الله أشهد كل بني آدم بأنه هو الله سبحانه رب البشر أجمعين، يستوي في ذلك من آمن ومن لم يؤمن؟!

مما تقدم يتبين لنا بأنَّ الفطرة هي استعداد فطري وراثي غريزي، وأنَّ الحنيفية هي ترجمتها عندما تتحول إلى اعتقاد، ومثال ذلك أن كل إنسان يلد ولديه الاستعداد للكلام، فإذا كبر وعلمه أبواه الكلام تكلم، عندها يتحول الاستعداد إلى واقع، ولو ظل في غابة دون أن يلتقي بأحد من البشر، لما تحول الاستعداد إلى حقيقة، ولظل عاجزا عن الكلام، فالحنيفية هي ميل إلى الفطرة وتجسيد لها، أو هي الوجه الآخر للفطرة، فهما وجهان لعملة واحدة.

وكلنا يعرف أن الإنسان الذي يلد في فرنسا يعلمه أهله اللغة الفرنسية، وفي بريطانيا يتعلم اللغة الانكليزية، كما يتعلم العربية من وُلِدَ في بلد عربي، وقد يكتفي البعض بهذه اللغة، في حين يسعى آخرون إلى تعلم لغات أخرى، وهكذا يكون تعلم ومعرفة الشرائع السماوية الأخرى، وهذا ما نفهمه من حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما، عن أبي هريرة رضي الله عنه انه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"، ثم قرأ أبو هريرة الآية: فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ، وهذا يؤكد ما قلناه من أن كل مولود يولد متهيئاً للإسلام وتوحيد الله رب العالمين، ولكنه بفعل التربية والتعليم، قد يكتفي باللغة التي تعلمها من أهله، أو قد تسمح له الظروف بأن يتعلم لغات أخرى، وهنا يعود بفطرته إلى أصلها الذي لا تبديل له، ولعل في هذا المثل ما يساعد على فهم المقصود بالفطرة والله أعلم.

إن الشهادة لله بالوحدانية والربوبية مغروزة إذاً في الطبيعة الإنسانية، يشترك فيها كل البشر على السواء، وهي الفطرة التي تكلمت عنها الآية الأولى، والتي لا يمكن أن تتبدل لكونها جزءاً أصيلاً من مكونات النفس البشرية، لكنها تظل قابلة للتأثر والتطبيع والتغيير بفعل التربية والتعليم، غير أن هذه النفس إن تُركت لفطرتها وطبيعتها دون تأثير التربية، فإنها لن تتقبل غير فكرة التوحيد

التي تلائم ما فُطرت وجُبلت عليه، في حين أن ما سواه من شرك أو إلحاد أو كفر، هو أمر غير ملائم لتركيبتها وحقيقتها، مما يجعلها تنفر منه وتبتعد عنه.

ولعلنا نجد في قصة إبراهيم الخليل عليه السلام، الترجمة العملية لما قدمناه من رأي، حيث قاده حسه السليم وفطرته الثاقبة، إلى التفكير والتأمل والبحث عن الله الخالق جل وعلا، كما جاء في القرآن الكريم: وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (الأنعام 75–79)، ولنلاحظ أن إبراهيم قد استخدم كلمة: "فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ"، في إشارة إلى الله الذي خلقهما، والتي هي أصل كلمة الفطرة كما ذكرناه.

إن هذا الاستعداد النفسي لقبول التوحيد دون الشرك والكفر، هو ما سنطلق عليه في هذا الكتاب اسم "الحس السليم"، والذي هو ميزان المؤمن ودليله في فهمه للإسلام بشكل صحيح، وكعادتي أجد نفسي مدفوعا متسرعا لأعلن منذ الآن، بجرأة ودون تردد، بأن الإسلام الذي هو دين الفطرة، هو دين ينسجم مع هذه الفطرة ومع الحس السليم، فإذا ارتاب أحدنا حيال أي موضوعٍ أو رأيٍ أو حكمٍ شرعي، فإن عليه أن يبحث ويتحقق حتى يجد الجواب الشافي والمقنع، الذي يرتاح له عقله وقلبه، كما جاء في الحديث الشريف: "اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَاسْتَفْتِ نَفْسَكَ، كررها ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ".

فما أروع هذه الفطرة الصافية العذبة النقية، التي تصبح ميزان المؤمن ودليله في كل مراحل الحياة وفي كل الظروف والحالات، فهي ال (GPS) الذي يدله ويبقيه محافظا على خط سيره الذي هو الصراط المستقيم.

فالإنسان قد خُلِقَ وجُبِلَ على حب الصدق وكراهية الكذب، حب الأمانة وكراهية الخيانة، حب الوفاء وكراهية الغدر، والإسلام جاء في كل جوانبه، مراعيا لهذه الفطرة بما يُهذِّبها ويسمو بها، دون أن يصطدم معها أو يناقضها، وعلينا أن نتذكر دوما بأن هذه الفطرة تتأثر بالتربية وبالمجتمع،

مما يحتم علينا الوعي والانتباه لكيلا تنحرف هذه الفطرة، فتضيع البوصلة ونفقد الاتجاه السليم ونضل الطريق.

إن الحنيفية هي طريق ومنهج ابتدأه إبراهيم أبو الأنبياء تلبية لفطرته السليمة، كما جاء في الآية الكريمة: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (آل عمران 67)، وجعل منه رب العالمين قاسما مشتركا للشرائع السماوية الثلاث، وأمر الجميع باتباع هذا الطريق كما تؤكده الآيات التالية: ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (النحل 123).

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (البقرة 130–132)

قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيم حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (آل عمران 65).

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (النساء 125).

من كل ما تقدم فإننا نستطيع ان نؤكد بأن الإسلام يدعو إلى توحيد كوني، ينضوي تحت لواء الإسلام الواحد، الإسلام الذي هو دين الجميع، لأنه دين الحنيفية المائل عن كل باطل، وهو دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وبهذا الشكل نستطيع أن نفهم المقصود من الآية التالية: أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ * قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (آل عمران 83–85).

الكفر والشرك بالله

إن الحديث عن الجوانب المتعددة لشهادة أن "لا إله إلا الله"، وعن الحنيفية والفطرة التي تشدنا إلى التوحيد، لا يكتمل إن لم نشرح نقيض هذه الشهادة وهذه الفطرة: وهو الكفر والشرك بالله، وهذه هي مهمة الفقرات التالية.

الشرك في اللغة من شرك: أي جَعَلَ شيئاً مساوياً ومكافئاً ونِدّاً لشيء آخر، والشرك في اللغة: يدل على المقارنة التي هي ضد الانفراد، ومنه الشراكة، كما في قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: "وأشركه في أمري" أو كما جاء في الآية الكريمة: فَإِن كانُوا أكثر مِن ذَلِك فَهُمْ شرَكاءُ في الثُّلُث (النساء 12).

واصطلاحا: أن يتخذ العبد لله تعالى نِدّاً يساويه به في ربوبيته أو أسمائه أو صفاته، كما جاء في الحديث الشريف عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عندما سئل النبي صلى الله عليه وسلم: "أي الذنب أعظم قال: أن تجعل لله نِدّاً وهو خَلَقَكْ".

الكفر في اللغة من كفر: أي غطى وستر أو أنكر، ومنه تسمية المُزارع كافرا، قال تعالى: كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ أي المزارعين، وسُمي كذلك لأن المزارع يستر البذر في الأرض، ومنه تسمية الكفارات بهذا الاسم، لأنها تُكَفِّر الذنوب أي تسترها، ومنها أيضا: لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِم، أي يسترها ويمحوها، وكذلك كفارة الأيمان: أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذٰلِكَ صِيَاماً، لأنها تمحو الذنب. وكفر النعمة وكفرانها: سترها بترك أداء شكرها، قال تعالى: فلا كفران لسعيه، لذلك يأتي الكفر بعكس الشكر، كما في الآية التالية: قَالَ هٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (النمل 40).

مما تقدم نستطيع القول بأن الشرك هو حالة يعيشها الإنسان بسلوكه وتصرفاته وكثيرا دون أن ينتبه لذلك، ولهذا قسّم العلماء الشرك إلى ظاهر وباطن، فالظاهر يكون في حالات ثلاث:

1- شرك في الربوبية: وهو الاعتقاد بأن ثمة متصرف في الكون، بالخلق والتدبير مع الله سبحانه، ومن هذا الشرك ما ادعاه فرعون لنفسه: فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ، أو ادعاء النمرود لإبراهيم عليه السلام: قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ.

2- شرك في الألوهية: وهو صرف العبادة أو نوع من أنواعها لغير الله تعالى، كمن يتقرب بعبادته للأصنام والأوثان ونحوها، بدعوى أنها تُقرّب إلى الله، فكل هذا من صور الشرك في

الألوهية، والله لم يجعل بينه وبين عباده في عبادته واسطة من خلقه، وهذا من أهم مظاهر الحرية في الإسلام، لأن علاقة الإنسان بربه هي علاقة مباشرة ودون وسيط!

والآيات التالية تؤكد كلها على هذه العلاقة المباشرة مع الله سبحانه:

قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (الأنعام 162–163)، وفي آية أخرى: وَإِذا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إذا دَعَانِي فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُون (البقرة 186)، وكذلك: وقال ربكم ادعوني أستجب لكم (غافر 60)، وقوله أيضا: تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (السجدة 16)، وكما جاء في الحديث الشريف: "إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله".

ولكي نؤكد على هذه العلاقة المباشرة بين الله والإنسان، والتي لا تحتاج إلى وسيط مهما كان، سواء كان هذا الوسيط إماما أو قسيسا أو حاخاما، بل حتى ولو كان نبيا، فإننا سنستعرض بعضا من آيات القرآن الكريم، وذلك أن الصحابة رضوان الله عليهم تعودوا أن يسألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عن أشياء كثيرة، فكانت تنزل الآيات للإجابة عن تساؤلاتهم، وكان الرسول ينقل الجواب إلى السائلين، وكان القرآن يعبر عن هذه الاسئلة والاجابة عنها، بالأسلوب التالي وبهذه الطريقة: "يسألونك... قل"، كما في الآيات التالية:

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ.

وجاء أعرابي إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يسأله يا محمَّد، أقريبٌ ربُّنا فنُناجيه، أم بعيدٌ فنُناديه؟ ولأن السؤال هنا عن المولى سبحانه، لذلك نجد أن الله لا يطلب من الرسول أن يقول لهم كما في الاسئلة السابقة، بل يتولَّى الإجابةَ بنفسه ويجيب السائل بقوله: وَإِذا

سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إذا دَعَانِي فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُون (البقرة 186)، وذلك لأن الله لا يريد أن تكون بين العبد وبينه أيُّ واسطة في الدُّعاء، حتى ولو كان ذلك عن طريق رسوله الكريم، وهذه هي أسمى وأنقى وأروع علاقة يمكن أن توجد بين الله وعباده، وهذه هي درب الحرية التي ما بعدها حرية، وهي طريق الخلاص والانعتاق والعزة والكرامة.

3- شرك في الأسماء والصفات: وهو الاعتقاد بأن ثمة مخلوقاً يتصف بصفات الله كاتصاف الله بها، كمن يعتقد مثلاً، أن بشراً يعلم من الغيب مثل علم الله عز وجلَّ، أو أن أحداً من الخلق أوتي من القدرة كالله عز وجل، بحيث لا يستعصي عليه شيء، وأنه يستطيع أن يقول للشيء كن فيكون، فكل هذا من الشرك بالله.

أما الشرك الباطن أو الخفي فأوله الرياء، كما جاء في الحديث الشريف: "إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر الرياء".

والرياء مشتق من الرؤية، وهو أن يعمل الواحد منا العمل ليراه الناس، وهذا شرك العبادة كما جاء في الآية الكريمة: الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ (آل عمران 82)، وقد جاء في الحديث أنه عندما نزلت هذه الآية شَقَّ ذلك على المسلمين، فقالوا يا رسول الله فأَيُّنا لا يظلم نفسه؟ فقال: ليس ذلك، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا إلى ما قال لقمان لابنه: وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (لقمان 13)، وهذا ما تؤكده الآية التالية: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (الكهف 110).

وكما نلاحظ فإن هذا الشرك يمكن أن يقع به الإنسان بسهولة، فَمَنْ منا لا يعمل لنفسه تارة، وفي طلب الدنيا تارة، أو طلب الرفعة والمنزلة عند الناس والجاه عند الخلق تارة أخرى؟!

ومن الشرك الباطن أيضا، وهو كثير، التعلق بالهوى والرغبات والسلطة والمال وما إلى ذلك، لدرجة العبادة، كما يقول الله سبحانه: أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (الفرقان 43)، وقوله أيضا: وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (الفجر 20).

إن الحديث عن التوحيد يحتاج إلى كتاب خاص به، وما نريد أن نؤكد عليه في معرض شرحنا لأول أركان الإسلام، هو أن التوحيد والإيمان بالله وحده هو أعلى درجات الحرية، وأعلى

درجات السمو، لأن علاقة الإنسان بربه تصبح مباشرة ودون وسيط، وهذا ما يوصل إلى الاحسان كما عرّفناه من قبل وهو: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"، وعندها يكون الله مع عبده في حركاته وسكناته وفي كل شيء، كما جاء في حديث الرسول عن ربه، وهو ما يعرف بالحديث القدسي: "فَإذا أَحْبَبْتُهُ كُنْت سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ"، ومن منا لا يحلم بأن يكون محبوبا من الله سبحانه؟ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون!

وسنختم حديثنا عن التوحيد وشهادة أن لا إله الا الله، ببعض الآيات التي تبين خطورة الشرك، وأنه أكبر الكبائر، وأول المحرّمات، وأنه ظلم عظيم! وأنه إذا كان التوحيد والفطرة والحنيفية يسيرون معا دون ان يفترقوا، فإنهم على نقيض مع الشرك والكفر، وهذا ما يبينه الله سبحانه بقوله مخاطبا رسوله الكريم: قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا (الأنعام 151)، ولكل ذلك كان الشرك بالله من أكبر الكبائر، وقد اعتبره رب العالمين بأنه ظلم عظيم، فقال تعالى إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (لقمان 13).

إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ (النساء 48)، وأخيراً: إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (المائدة 72).

فالشرك إذاً، حالة يعيشها الإنسان بسلوكه وتصرفاته، فالمشرك يؤمن بأن الله هو الخالق، ولكنه يشرك معه آلهة أخرى، فهو شرك بالألوهية، كحال العرب قبل الإسلام، كما تشير الآية الكريمة: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (العنكبوت 61).

أما الكفر، فهو قول وموقف وقناعة، وهو جحدان ونكران يعبر عنه الكافر بالقول والفعل ويرفض مبدأ الإيمان، فهو كفر بالربوبية، لأن الكافر لا يؤمن بالله أصلا، أو يجعل لله شريكا، لا في العبادة والطاعة كما في الشرك، وإنما بصفة من صفات الربوبية، "يحيي ويميت، يتوب ويغفر، يرزق ويعطي..." كقول فرعون: "أنا ربكم الأعلى"، وقول النمرود: "أنا أحيي وأميت".

والآيات التي تشير وتحدث عن الكفر كثيرة نذكر منها الآيات التالية:

مّثَلُ الّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدّتْ بِهِ الرّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاّ يَقْدِرُونَ مِمّا كَسَبُواْ عَلَىَ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضّلاَلُ الْبَعِيد (إبراهيم 18).

إِنّ الّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (البقرة 6).

وَقَالَ الّذِينَ كَفَرُواْ لِلّذِينَ آمَنُواْ اتّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مّن شَيْءٍ إِنّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (العنكبوت 12-13).

وَقَالَ الّذِينَ كَفَرُواْ لَن نّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلاَ بِالّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىَ إِذِ الظّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِلّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ لَوْلاَ أَنتُمْ لَكُنّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ لِلّذِينَ اسْتُضْعِفُوَاْ أَنَحْنُ صَدَدنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىَ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ مّجْرِمِينَ * وَقَالَ الّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِلّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ اللّيْلِ وَالنّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نّكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً وَأَسَرّواْ النّدَامَةَ لَمّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأغْلاَلَ فِيَ أَعْنَاقِ الّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (سبأ 32-33).

الّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدّواْ عَن سَبِيلِ اللهِ أَضَلّ أَعْمَالَهُمْ * وَالّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصّالِحَاتِ وَآمَنُواْ بِمَا نُزّلَ عَلَىَ مُحَمّدٍ وَهُوَ الْحَقّ مِن رّبّهِمْ كَفّرَ عَنْهُمْ سَيّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنّ الّذِينَ كَفَرُواْ اتّبَعُواْ الْبَاطِلَ وَأَنّ الّذِينَ آمَنُواْ اتّبَعُواْ الْحَقّ مِن رّبّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنّاسِ أَمْثَالَهُمْ (محمد 1-3).

يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُوَاْ أَعْمَالَكُمْ * إِنّ الّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدّواْ عَن سَبِيلِ اللهِ ثُمّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ (محمد 33-34).

ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لّلّذِينَ كَفَرُواْ امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلاَ النّارَ مَعَ الدّاخِلِينَ (التحريم 10).

يقول الإمام القرطبي: "ضرب الله تعالى هذا المثل تنبيهاً على أنه لا يغني أحد في الآخرة عن قريب ولا نسيب"، وكما جاء في قول الله تبارك وتعالى: كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (المدثر 38).

ولكي ننهي شرحنا لأول أركان الإسلام والتي هي: شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، فإننا سنستعرض الشق الثاني منها أي: "وأنَّ محمداً رسولُ الله". وقبل البدء بهذا الشرح فإنني أحب ان أذكّر بأن الشهادة لكل شريعة هي كما يلي:

في اليهودية: أشهد أن لا إله الا الله وأنَّ موسى رسول الله.

في المسيحية: أشهد أن لا إله الا الله وأنَّ عيسى رسول الله.

في الإسلام: أشهد أن لا إله الا الله وأنَّ محمدا رسول الله.

يتساءل كثير من الناس كيف نقرن الإيمان بالله وبالرسول في الشهادة، والتي هي الركن الأول من أركان الإسلام، وهل يعني ذلك أننا نضع الله والرسول على قدم المساواة في جملة واحدة؟

الحقيقة أنَّ هذا السؤال في محله، وأنَّ علينا أن نجيب عليه منذ الآن، لكي يتضح المعنى ويزول الشك في الغاية من هذا الترابط، لأننا كثيرا ما نجد بعض الجهلاء يقدسون النبي المرسل، ناسين أنه بشر كسائر البشر، يأكل ويشرب، يصحو وينام، ويصيب ويخطئ، ما عدا في تبليغ الرسالة التي حمّلَهُ الله مهمة إيصالها، إمَّا إلى قومه أو إلى الناس أجمعين، فهو معصوم.

لذلك فإن علينا أن نفهم أن هذه الشهادة هي تصديق للرسول بأنه يحمل رسالة من الله، وأن علينا أن نؤمن بما جاءنا به، وأنَّ القدسية والعبودية هي لله الواحد الاحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، ولنقرأ قول الله سبحانه: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (الأحزاب 45–46). وقوله تبارك وتعالى: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ (آل عمران 144).

فالنبي الكريم محمد، كما جاء في القرآن، هو رسول قد خلت من قبله الرسل، وكذلك عيسى عليه السلام: ما الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (المائدة 75).

ومن الطبيعي أن نلاحظ أن هذا التصديق ينطبق على كل الأنبياء والرسل عليهم السلام، وأنه لا يحق لنا أن نفرق بينهم، كما جاء في هذه الآية الكريمة: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ

وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِير (البقرة 285).

ولكي يزول كل شك من النفوس، فإن علينا أن نعي الحديث الشريف الذي رواه عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله يقول: "لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد الله، فقولوا: عبدالله ورسوله"، ثم ها هو النبي صلى الله عليه وسلم يتحدث بتواضع عن نفسه ويقول: "فإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد"، فهو إنسان ككل الناس ولكنه يحمل رسالة ربه إلى الناس جميعا، كما يؤكد ذلك القرآن الكريم: لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (التوبة 128)، فالرسول الكريم كما يقول عنه الله رب العالمين "رؤوف رحيم"، ورحمته للناس أجمعين كما في الآية الكريمة: وَمَا أَرْسَلْنَاك إِلَّا رَحْمَة لِلْعَالَمِين (الأنبياء 107)، ولأنه خاتم النبيين فهو رسول الله إلى الناس أجمعين، كما في نص الآية التالية: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أكثر النَّاسِ لَا يَعْلَمُون (سبأ 28).

إن شهادة أن محمدا رسول الله ليست تقديسا ولا شركا ولا عبادة، فالله سبحانه نزّه انبياءَه عن ذلك، كما في الآية التالية: مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (آل عمران 79).

إن هذه الشهادة هي تصديق بالرسالة السماوية التي يحملها الرسول، وهي تصديق لله وإيمان به، ثم إيمان برسوله، وهي طاعة لله وطاعة لنبيه، وكما قيل فيها اختصارا: "إنها تصديق للرسول بما أخبر، وطاعة لله فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر"، تؤكد ذلك كثير من آيات القرآن ومنها: وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (الحشر 7)، وكذلك: وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مّنَ النَّبِيّينَ وَالصّدّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً ذلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً (النساء 69)، وهذه الآية: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (محمد 32-33).

وَالَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (محمد 2).

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِين (النساء 13-14).

فَكَيْفَ إذا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (النساء 41-42).

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (آل عمران 64).

فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِير (الشورى 15).

وهكذا نستطيع أن نختم هذا الفصل، بعد أن تبين لنا بوضوح، أنَّ "شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدا رسول الله"، هي الركن الأول من أركان الإسلام، بل هي العمود الفقري لهذا الدين الحنيف، وأن الإيمان بالله الواحد هو الحنيفية الصحيحة الموافقة للفطرة السليمة، التي فطر الله الناس عليها، وأن الكفر، سواء كان عن جهل أو نكران أو جحود أو تكبر، وكذلك الشرك بالله سواء كان ظاهرا أو باطنا، هما نقيضا التوحيد، وقد اعتبر الله سبحانه الشرك ظلما عظيما، وأكد في غير موضع: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا (النساء 48).

كما أن الإيمان برسل الله وكتبه وبرسالات الله هما من مكملات هذا الركن الأساسي ولا يكتمل الإسلام بدونها.

وأخيرا فإن علينا أن نضع نصب أعيننا بأن الإيمان بالله هو تحرر من عبادة العباد، وتحرر من سيطرة المادة والشهوات، وقوة في وجه الصعوبات، وثقة بالذات، وبُعدٌ عن الشدة والإعنات،

يتساوى فيه الناس جميعا أمام الله رب العالمين، فيصبحون، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى".

ولا أجد ما أختم فيه هذا القسم، الذي كنت اتمنى أن لا ينتهي الحديث عنه، أنسب من هذه الآيات الكريمة، حيث يقول الله تعالى:

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (آل عمران 18).

وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مّنَ النَّبِيّينَ وَالصّدّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً * ذلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً (النساء 69–70).

الركن الثاني: إقامة الصلاة

سبق وعرّفنا الدين شرعا بأنه "علاقة الإنسان بربه"، وقلنا إن الدين هو ما شرعه الله لعباده من عبادات، وأرسل به الرسل، وأنزل معهم الكتب، ليرشدوا الناس إلى الصواب في العبادة وإلى الخير في السلوك والعمل، وأن الأنبياء جميعا تشترك رسالاتهم ودعواتهم في أصل واحد، وهو توحيد الله بالعبادة، كما جاء في هذه الآية: وَما أَرْسلنا مِنْ قَبْلِكِ مِنْ رَسولٍ إلاّ نوحي إليهِ أَنَهُ لا إلهَ إلاّ أَنأْ فاعبُدُون (الأنبياء 25).

العبادة

أشرنا في أكثر من موضع بأن العلاقة بين العبد وربه تبدأ بالتسليم والقبول بوحدانية الله، ثم تتوسع لتشمل العبادات، وعندها يكون الدين كاملا، وهنا نصل إلى مبادئ الدين الحنيف الذي تشترك فيه كل الشرائع السماوية أيضاً، وهذا هو الدين القيّم كما سماه القرآن الكريم: فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أكثر النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (الروم 30). فكل الشرائع السماوية كما قدمنا تدعوا إلى عبادة الله الواحد، وفيها صلاة وصوم وزكاة وحج.

لذلك وقبل الحديث عن الصلاة، لا بد لنا أن نتحدث عن معنى العبادة، لأن مفهوم العبادة في الإسلام مفهوم واسع وشامل، يتعلق بكل جوانب الحياة، ذكرها الله سبحانه في بيان الغاية من الخلق بقوله: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (الذاريات 56). فالعبادة هي قبل كل شيء طاعة للخالق جل وعلا، كما جاء في هذه الآية: قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (الأنعام 162).

وقد عرَّفَ أحد الفقهاء العبادة بأنها: "اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، كالصلاة والزكاة، والصيام والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين...".

فالعبادة إذاً، تمُثِّلُ قاعدة الإسلام وأساسه، فهي وإن كانت طاعة للخالق جل وعلا، إنما هي في نفس الوقت إعداد للمؤمن، وتربية وتهذيب للنفس الإنسانية، لتسمو بها إلى العلى، حيث العلاقة المباشرة مع الله الخالق سبحانه.

إنَّ النفس التي تصل إلى هذا السمو، هي نفسٌ أبيّة عزيزة قوية، لا تخاف إلاّ الله، وهي نفسٌ لا تُباع ولا تُشترى، تصغر في عينها الاشياء كلها، والدنيا بما فيها، ويصبح الله الخالق دليلها ومرشدها وسندها وملهمها، فتجود بالخير والعطاء لكل ما حولها، وتمتنع عن الشر والايذاء حتى ولو بمجرد كلمة عابرة، ويصدق في وصفها ما جاء في الحديث القدسي: "وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ" رواه البخاري

او ما جاء في وصفها في القرآن الكريم في حديثه عن عباد الرحمان:

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأرض هَوْنًا وَإِذا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا * وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فإنه يَتُوبُ إلى اللَّهِ مَتَابًا * وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا * وَالَّذِينَ إذا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا * أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاما (الفرقان 63-77).

من كل ما تقدم، يتبين لنا سعة مدلول العبادة في الإسلام، فهي مدرسة تشمل كل جوانب الحياة، من الصدق والعدل والامانة، والقيام بأعمال الخير والبر والمعروف، وعدم الكذب والغش والظلم والاحتيال والغدر والخيانة والغيبة...

وكذلك معاملة الناس في البيع والشراء والعلاقات الاجتماعية، كل ذلك عبادة، أمّا العبادات أو ما يسمى بالشعائر التعبدية، من صلاة وزكاة وصوم وحج، فما هي في الواقع إلاّ تهيئة لهذه العبادة الكبرى، وما هي إلا أداة تربوية للوصول إلى ما فيه خير الإنسانية جمعاء، ولهذا استخلف الله الإنسان في الأرض، ليعمرها ويحافظ عليها، فهي أمانة في أعناقنا، ومن هنا نؤكد أن الإسلام هو من أكثر الشرائع دفاعا عن البيئة واحتراما لها.

إن عبادة الإنسان لله ليست قسرا وإنما طاعة لله وامتثالا حراً لإرادة رب العالمين، وهذا ما يميز عبادة الإنسان عن عبادة غيره من المخلوقات، كما جاء في الآية الكريمة: تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (الإسراء 44).

وإذا تخيلنا أن التسبيح له علاقة بالسباحة، كما جاء في سورة الرحمن: وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ، فإننا نستطيع أن نقول بأن كل ما في الكون يُسبّح لله، أي يعبده عندما يدور في فلكه، ويبقى في مساره يَسبَحُ في هذا الكون العظيم حسب القوانين التي رسمها الله له، ويبقى الإنسان بحريته، قادرا على ان يَتَّبعَ، فيما له الخيرة فيه من شؤونه، ما يريده الله له، أو أن يخالف ما أمره الله به، ولهذا كانت العبادة طريقة لإرشاد الإنسان إلى طاعة الله، ليصبح ككل الكائنات حنيفا صادقا منسجما مع فطرته التي فطره الله عليها، ويغدو موحّدا ومتآلفا مع كل الكائنات، فيستحق بجدارة خلافة الأرض التي كلفه الله بها ليعمل على إعمارها وتسخيرها والمحافظة عليها لما فيه خير البشرية جمعاء. ومن هنا نفهم قول الله سبحانه وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (الذاريات 56-58)، فالله غني عن العالمين، والعبادة في النهاية، ليست سوى وسيلة ربانية ومدرسة إلاهيّة لترشد الناس إلى الصراط المستقيم، فهي لخير الإنسان وطمأنينته، والله سبحانه غني عن العالمين.

ولنختم هذه الفقرات بهذا الحديث القدسي الذي يؤكد ما قلناه: "يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى

أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ" رواه مسلم.

وهكذا سنبدأ حديثنا عن الصلاة التي هي أهم العبادات.

الصلاة

الصلاة في اللسان العربي لها معان ثلاثة: أولها الصلة، كصلة الرحم وصلة القرابة، وقد تأتي بمعنى الدعاء، وهو المعنى الأكثر شيوعا، والمعنى الثالث هو الرحمة، كما جاء في قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً (الأحزاب 56).

فصلاة الله: هي الرحمة، وصلاة الملائكة: تكون بالاستغفار، وصلاة المؤمنين: تكون بالدعاء.

فالصلاة إذا هي صلة بين العبد وربه أساسها الدعاء، فهي بمعناها الواسع تشمل كل دعاء وتسبيح وذكر لله سبحانه وتعالى، والشكل الآخر من الصلاة هي الصلاة المعروفة، التي تبدأ بالتكبير وتنتهي بالتسليم، وهي صلة بين العبد وربه أيضا، إنما لها طقوس وحركات محددة كالقيام والركوع والسجود.

والآيات التي تتحدث عن الصلاة تتجاوز المئة وتدل على الصلاة بشكليها، ومنها:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (الأحزاب 41-43).

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (غافر 7).

ونجد ذلك واضحا في الآيتين التاليتين:

رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَار (النور 37)، وهنا نجد الصلاة الحركية وما فيها من ركوع وسجود، وغالبا ما نجد الصلاة المعروفة مقرونة بالزكاة.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَيرُ صَافَّاتٌ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهَ وَتَسْبِيحَهَ وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُون (النور 41)، وهنا نجد الصلاة بمعناها الواسع أي الذكر والتسبيح والدعاء، فالطير يؤدي صلاته كما علمه الله باتباع القانون الإلهي في سيره وطيرانه، وكذلك السماء والأرض في دورانها ومسارها كما قدّره الله لها، وإن كنا لا نعرف طريقة صلاتها، كما جاء في الآية التالية: تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (الإسراء 17).

الصلاة في الشرائع السماوية:

عندما شرحنا معنى الإسلام، قلنا إنه اسم للدين الذي تشترك فيه جميع الشرائع السماوية، وأشرنا إلى أن هذه الشرائع تقوم على نفس الأركان وتتقاسم الدين الواحد بكل ما فيه، وسنستعرض الآيات القرآنية التي تؤكد ما قلناه، ونبدأ بما قاله القرطبي نقلاً عن القشيري: "إن الله تعالى لم يُخْلِ زماناً من شرع، ولم يَخْلُ شرعٌ من صلاة"، فليس هناك دين ليس فيه صلاة.

ولنبدأ بإبراهيم عليه السلام وهو يدعو الله سبحانه: رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ (إبراهيم 37)، وفي هذه الآية أيضا: رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (إبراهيم 40)، ولنقرأ قوله تعالى: وَعَهِدْنَا إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (البقرة 125).

ولا بد لنا هنا، أن نُشير إلى أن أول بيت شُيِّدَ لعبادة الله سبحانه هو الكعبة المشرفة، كما جاء في القرآن الكريم: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (آل عمران 96-97).

ويحدثنا الله سبحانه عن بناء الكعبة من قبل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيم (آل عمران 127–128).

ثم يحدثنا الله عن موسى وهارون بقوله: وَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (يونس 87)، وفي الواد المقدس حيث كلم الله سبحانه نبيه موسى ناداه بقوله: فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (طه 11–15).

وعن داوود عليه السلام: إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (ص 18).

ونبي الله زكريا يدعو ربه وهو يصلي، كما في الآية الكريمة: هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء. فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (آل عمران 38–39).

ويحدثنا القرآن عن السيدة العذراء وعن المسيح عليهما السلام، كما في هذه الآيات: يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (آل عمران 43)، وها هو المسيح يكلم الناس في المهد قائلاً: قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (مريم 30–31).

وقال عن سائر أنبيائه صلوات الله عليهم: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إذا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (مريم 58–60).

وأخيرا يخاطب الله نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: أُتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (العنكبوت

45)، ويزيد على ذلك بقوله: وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (الأنعام 92).

وهكذا يتأكد لنا أن الصلاة، وهي الركن الثاني من أركان الإسلام، هي قاسم مشترك آخر بين كل الرسالات السماوية، وليس هذا مستغربا لأن الصلاة عماد الدين، والصلاة من أهم أركانه، وسأكرر الإشارة إلى هذه القواسم المشتركة لدى بحثنا وشرحنا لكل ركن من أركان الإسلام، لكي تكون هذه القناعة ثابتة ومبنية على أساس قوي من الحُجَّة والمعرفة، ولتشكل الأساس المتين في حوار الحضارات الذي يتحدث عنه الكثيرون، ولكنه يظل مجرد كلمات لا نجد لها ترجمة على أرض الواقع، ويبقى واجبا علينا أن نترجم الكلام إلى عمل، وأن نكون من السباقين في هذا المجال.

عندما فكرت أن اكتب عن الصلاة، رأيت أنه قد تحدث الكثيرون عنها وعن شروطها وكيفيتها وحِكَمِها. حتى أنه لم يبق هناك من أشياء جديدة يمكن أن تُقال، ولكي أجتنب التكرار، فقد أحببت أن أتحدث عن جانبين اثنين من جوانب الصلاة، فقارنتها بالعلوم الإدارية التي درستُها، ثم قارنتها بالتحليل النفسي، الذي طالما قرأتُ عنه، وحاولتُ عن طريقه فهم الكثير من العلاقات الإنسانية، والتي أعتبرها من أهم جوانب الحياة في عالمنا المعاصر، عالمٌ طغت فيه المادة على كل ما عداها، وغدت الروحانيات فيه مجرد أحلام مثالية، لا مكان لها في حياتنا العصرية!

وكلي أمل أن تكون هذه النظرة الجديدة، مفيدة وناجحة في إثارة الاهتمام، وتشجيع الجيل الجديد على القيام بدوره في إعادة دراسة كل المواضيع بنظرة ثاقبة وروح مبدعة، وكما يقول محمد إقبال: "إن علينا ان نجتهد ولو خالَفْنَا المتقدّمين"، مما يسمح لنا بإعادة بناء الحضارة التي شاخت وهرمت وكادت تتهاوى وتوشك على السقوط، لأننا بكل بساطة، لم نقم بصيانتها أو تجديدها منذ عدة قرون!

لكنني أُسارع إلى القول، بأن هذه الأفكار قد تُفهم بشكل خاطئ، ولا بد قبل أن أبدأ بعرضها أن أؤكد أن الصلاة هي عبادة قبل كل شيء، وهي صلة العبد بربه، وليس المقصود منها لا الرياضة، ولا الرقابة ولا العلاج النفسي...

إن المقصود من هذا الطرح، هو القول بأن الصلاة، إضافة إلى دورها الأساسي كعبادة، فإن لها آثاراً جانبية مفيدة، فالقيام بالصلاة في أوقاتها، والقيام بحركاتها من ركوع وسجود، يفيد الجسد

ويمنحه لياقة قد لا نجدها عند الآخرين، وكذلك دورها في الرقابة الذاتية، ودورها في إعادة الطمأنينة والثقة للنفس البشرية، ومساعدتها في الغاء الهلع والجزع وغيرها من الاضطرابات النفسية.

إن تحرير الإنسان من كل هذه العوامل السيئة والنهوض به إلى القمة، حتى وإن لم تكن هي الهدف الأساسي من الصلاة، فهي محاسن إضافية يمكن الاستفادة منها دون المساس بالحكمة الاصلية من هذه العبادة. وللحديث بقية...

الصلاة والرقابة الادارية

الكل يعرف أن كابتن الطائرة أو ربان الباخرة، يبدأ قبل القيام برحلته بتحديد خط السير الذي سيتبعه لكي يصل إلى المكان المقصود، فالطائرة المسافرة من باريس إلى مارسيليا مثلاً، تحدد خط سيرها وتنطلق برحلتها، فإذا انحرفت عن مسارها بسبب الأحوال الجوية بمقدار درجة أو درجتين فإن هذا لا يؤثر كثيرا في البداية، ولكن إن لم يصحح قائد الطائرة خطه بسرعة فإنه سيجد نفسه في نهاية الرحلة في نيس، وربما لا يجد ما يكفيه من الوقود ليعود إلى مارسيليا فيعرض الطائرة وركابها للخطر! وكذلك الامر في إدارة الشركات، حيث يقوم المراقب الاداري بقياس ما يتم إنجازه من إنتاج ومبيعات وتكاليف، بشكلٍ دوريّ، ويقوم بمقارنة المؤشرات الفعلية بالخطة الموضوعة والموازنة المقررة، ويقوم باتخاذ الاجراءات التصحيحية منعا لكل انحراف في الاداء قد يعرض الشركة لخطر الخسارة والافلاس، وما يتبع ذلك من تسريح للعاملين وكل ما يترتب عليه من آثار.

وقد لجأت العلوم الإدارية إلى الاقتباس من علم التحكم، (سيبرنيتيك Cybernétique)، الذي يَستخدمُ ميزانَ الحرارة كأداة للتَّحَكُّم بدرجة الحرارة المطلوبة في أجهزة التدفئة المنزلية ويصححها آليا عند اللزوم.

وقد يتساءل البعض عن المقصود بهذه الأمثلة وعلاقتها بالصلاة؟! وسأحاول الإجابة عن هذا التساؤل بوجهة نظري التالية: حيث أرى في الصلاة أداة للرقابة الذاتية، وضعها لنا رب العالمين خمس مرات في اليوم والليلة، كنقاطٍ ومواعيد لمراقبة أنفسنا ومحاسبتها قبل أن تُحاسَب، ولتصحيح أخطائنا والتوبة عما نقترفه من ذنوب وسيئات، وجعل لها أوقاتا محددة كما في قوله سبحانه: إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (النساء 103)، وكذلك قوله سبحانه: أَقِمِ

الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا * وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا * وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا * وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (الإسراء 78–82).

وهكذا يكون تصحيح الانحراف تدريجياً وسهلاً وممكناً، في حين أننا لو انتظرنا أياما وشهورا وسنوات، لضعنا في الطريق، ولأصبح الإصلاح صعبا وقاسيا وربما مستحيلا!

ولنقرأ قول الله سبحانه والذي يشير إلى هذا المعنى في الآية التالية: اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (العنكبوت 45).

فالصلاة إذاً، هي وسيلة تربوية وإدارية إلاهية، للرقابة على الذات وتصحيح المسار والعودة إلى خط السير السليم، أو فلنقل إلى الصراط المستقيم، الذي يوصل إلى برّ الأمان، ويمنع من الضياع والغرق! فإذا لم تُؤَدِّ الصلاةُ هذه الوظيفة، فقد فقدَتْ دورها وخسرَتْ معناها ولم يعد لها فائدة! وبدل أن تكون صلة العبد بربه، تقربه من الله وتنهاه عن الفحشاء والمنكر، تصبح عكس ذلك، فتتقطع الصلة بين الإنسان وخالقه، فيضيع عمله ولا تُقبل صلاته، كما جاء في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وسلم: "من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعدا" وفي رواية أخرى: "من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له".

إن الصلاة الشكلية ليست هي الغاية من هذه العبادة، وإنما المقصود منها أن تكون على ارتباط وثيق بالعمل الفعلي والرقابة المستمرة لتهذيب النفس وتصحيح المسار، وعندما تصبح الرقابة الذاتية خمس مرات في اليوم والليلة، فإن الله يكون حاضرا مع المسلم الذي يؤدي الصلاة كما يجب، وهنا تبلغ النفس الإنسانية أعلى وأسمى المستويات، والذي هو الاحسان، كما عرفناه سابقا: "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"، ويصبح المسلم كما قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المسلم من سلم الناس من لسانه ويده".

بقي علينا، حتى لا نطيل ان نُذكِّرَ بالآيات التي تدعم كلامنا، ولنقرأ قوله تعالى:

لَيسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (البقرة 177).

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (المؤمنون 1–4).

ولا بد لنا قبل الانتقال إلى الفقرة التالية، أن نُذكّر بأنَّ الطهارة والنظافة هما من أهم شروط الصلاة، والطهارة تشمل طهارة البدن، وطهارة الثوب، وطهارة المكان، وطهارة النفس، والآية الكريمة تشرح لنا الطهارة المطلوبة لأداء الصلاة وهي الوضوء: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذا قُمْتُمْ إِلى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلى الْكَعْبَينِ (المائدة 6).

وجاء في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وسلم: "مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ كَنَهَرٍ غَمْرٍ بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ كُلَّ يَوْمٍ فِيهِ خَمْسَ مَرَّاتٍ فَمَا يُبْقِينَ مِنْ دَرَنِهِ"، فالصلاة كنهر يغتسل فيه الإنسان فَيَتطهرُ من ذنوبه، ويتوضأ منه فيتطهر بدنه، وهي تنهى عن الفحشاء والمنكر فتتطهر نفسه، فالطهارة والصلاة توأمان لا ينفصلان وعلينا أن لا ننسى ذلك أبدا.

الصلاة والتربية والتحليل النفسي

كثيرا ما يتحدث الناس عن العلاج الطبي في القرآن، أو عن القرآن والعلم، وما إلى ذلك من مواضيع مثيرة قد تجد القبول والاستحسان لدى البعض، والشك والتردد لدى البعض الآخر، وربما الرفض والإنكار لدى قسم آخر من الناس، ولست أريد أن ادخل في جدال مع أي منهم، فليس هذا موضوع كتابنا ولا الهدف منه، ولكنني أحب أن أعرض باختصار، الرأي الذي أرتاح إليه في هذا المجال، وخلاصته ما يلي:

إن القرآن الكريم ليس كتاب علم، ولا كتاب طب، ولكنه كتاب عقيدة وإيمان وهدى للمتقين، ولأنه تنزيل من رب العالمين، فإنه عندما يتحدث عن بعض النواحي العلمية، فهو لا يمكن إلا أن يكون صحيحاً لقوله سبحانه: "قَوْلُهُ الْحَقُّ"، وقد رأينا على الدوام أن العلم يؤكد باستمرار صحة

التفسيرات العلمية التي تحدث عنها القرآن، ولذلك يقول رب العالمين: سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد (فُصِّلَتْ 53).

والحقيقة أن ما دفعني للحديث عن النواحي النفسية وأثرها على الإنسان وعلاقة ذلك بالصلاة، هو كثرة الأسئلة التي أسمعها عن تأثير الحسد والعين والسحر وغيرها من المواضيع المشابهة، والتي سواء كنا نعترف بها أم لا، نقبلها أو نرفضها، نؤمن بوجودها أم لا، فإن بعضاً من الناس يعتقد بها وبتأثيرها على حياته، لذلك كان لا بد من الحديث عنها لشرحها وإبداء الرأي فيها، راجيا التوفيق في هذه المهمة الصعبة بعض الشيء، لأنها ليست موضوعية بحتة، بل يختلط بها الذاتي بالموضوعي، وتلعب فيها الأفكار المتوارثة والقناعات الفردية دورا ليس من السهل مواجهته، وسأشرح وجهة النظر هذه كما يلي:

يحدثنا الطب الحديث عن الامراض السيكوسوماتية، أي الامراض النفسية–الجسدية، وهي عبارة عن اضطرابات جسدية ناشئة عن اضطرابات نفسية أو عاطفية، والتي لا ينجح العلاج الجسدي في الشفاء منها، حتى وإن استمر العلاج لمدة طويلة، لذلك يتم اللجوء إلى علاج أسباب الانفعالات والتوتر، باعتبار أن الانفعال عامل مساعد على ظهورها حتى ولو كان بسيطا. وطبيعي أن هذه الانفعالات وتأثيرها على الإنسان ترتبط بطبيعة كل شخص، ويختلف تأثيرها حسب هذه الطبيعة، فهناك من هو كثير النشاط والحركة، قوي الشخصية يستطيع المقاومة، وهناك من هو أقل قوة، يكبت انفعالاته ويبتلعها مما يجعله أكثر استعدادا للتأثر بالأحداث وللإصابة بهذا النوع من الامراض النفسية–الجسدية.

إن علاج هذا النوع من الحالات المرضية لا يكون بتناول الأدوية، لأنها لا تجدي، بل بإعادة الثقة والاطمئنان إلى النفس البشرية لتتجاوز هذه الصعوبات، وتواجه الأمواج التي تعصف بها، وهذا ما نجده في كثير من الآيات القرآنية، يقول تعالى: وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (الإسراء 82)، وعندما يحدثنا الله سبحانه عن النفس البشرية، فإنه يُعرّفنا على طبيعتها، وهو خالقها والخبير بها، فيصبح فهمها أساسا للتعامل معها ولعلاجها عندما يصيبها مرض أو تفقد السيطرة على انفعالاتها، ولنقرأ هذه الآيات الدالة على صحة هذا الرأي والتفسير: إِنّ الْإِنسَان خُلِقَ هَلُوعًا * إذا مَسَّه الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذا مَسَّه الْخَيْر مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّين * الَّذِين هُمْ عَلَى

صَلَاتِهِم دَائِمُونَ * وَالَّذِين فِي أَمْوَالِهِم حَقّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِين يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (المعارج 19–26).

الهلع: شدة الخوف والأسى والتسرع، اما الجزع: فهو الخوف واليأس وفقدان الثقة والاضطراب.

يخبرنا الله سبحانه في هذه الآية الكريمة، أن نفس الإنسان تتأثر بسهولة بما يصيبها من أحداث، وأن الإنسان بطبيعته قد جُبِلَ على الجزَع وشدة الحرص، لذلك نراه إذا حلَّ به مكروه أو عسر، أصابه اليأس والاضطراب، وإذا أصابه الخير واليسر، بخل وأمسك عن الانفاق، إلا المقيمين للصلاة، الذين يحافظون على أدائها في جميع الأوقات، ولا يَشْغَلهم عنها شاغل، فما هو السبب يا ترى وما هو تفسير ذلك؟

السبب الواضح والمؤكد أن الصلاة التي هي صلة العبد بربه، تعيد الثقة إلى النفس، والطمأنينة إلى القلب، والراحة إلى الفكر، والقوة إلى الجسد، فتزول الانفعالات والاضطرابات التي حَلَّتْ بها، مما يؤدي إلى اكتساب مناعة جديدة، والشفاء من الأمراض النفسية، يقول الله سبحانه: الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (الرعد 28).

وإذا كان أشهر لاعبي كرة القدم أو كرة المضرب، وغيرها من أنواع الرياضات، يداومون على التدريب رغم أنهم وصلوا إلى القمة، فإنما يفعلون ذلك ليحافظوا على مستواهم ولياقتهم، وهذا حال الصلاة، إذ لا يكفي القيام بها من حين إلى آخر، بل لا بد من المحافظة عليها وفي أوقاتها لكي تؤدي دورها وغرضها وتعطي ثمارها، لذلك يقول رب العالمين في هذه الآية: إِنّ الْإِنسَان خُلِقَ هَلُوعًا * إذا مَسَّه الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإذا مَسَّه الْخَيْر مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّين، فقد استثنى من هذه الصفات النفسية الصعبة، المصلين، وأكد على أنهم: إِلَّا الْمُصَلِّين * الَّذِين هُمْ عَلَى صَلَاتِهِم دَائِمُونَ * وَالَّذِين فِي أَمْوَالِهِم حَقّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِين يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ، فهم المواظبون على صلاتهم الدائمون عليها، وفوق ذلك يتدربون على تهذيب نفوسهم بإخراج الزكاة وإعطاء الصدقات لكي يتغلبوا على الحرص والبخل، وتأتي تتمة الآية: وَالَّذِين يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ، لأن الإيمان باليوم الآخر، هو تذكير للإنسان بأن هذه الحياة هي فترة عابرة وأن مرجع الإنسان إلى الله، فيتعلم الصبر والتغلب على مشاعر الحزن والأسى باعتماده على الله الذي يسانده ويرعاه، وهذا

ما تشير إليه الآية التالية: وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إذا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (البقرة 155-156).

ولكي يكون حديثنا كاملا عن النواحي النفسية التي جعل الله سبحانه من الصلاة اداة ناجعة لمواجهة آثارها، بل للشفاء منها، لا بد أن نتحدث عن النقطة الأخرى المتعلقة بتأثير العين والحسد وغيرها من المؤثرات النفسية، والتي قبلنا بها أم لم نقبل، فإن كثيرا من الناس يبدون حساسية لها، ويخشونها وتبدوا نفوسهم مستعدة أكثر من غيرهم للإصابة بتأثيراتها، نظراً لطبيعتهم الحساسة ومشاعرهم التي يطغى عليها الهلع والجزع أكثر من غيرهم، وقد أراد الله سبحانه أن يساعد الإنسان على تجاوز هذه الآثار، وخلاصة ما يقدمه القرآن للمسلم في هذا المجال، هو أن يعيد له الثقة والطمأنينة إذ يقول له: إذا كنت ممن يتأثرون بهذه الأمور النفسية، فإنك تعرف وتؤمن بلا شك بأن إرادة الله هي أقوى من تأثيرها النفسي عليك، فاطلب من الله سبحانه أن يحميك منها ومن آثارها السلبية، وبهذه العناية السماوية تعود لنفسك الثقة والطمأنينة وتصبح أقوى فلا يبقى لها أي تأثير عليك، وهذا ما جاء في سورة الفلق: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إذا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إذا حَسَد. فهنا يكون طلب العون والحماية من الله سبحانه في مواجهة السحر والحسد وما شابهها من مؤثرات، والله أعلم.

قصة فرض الصلاة

لا بد لنا ونحن نتحدث عن الصلاة، ان نُذكّرَ القارئ بشكل سريع بقصة فرض الصلاة لما لها من مدلولات عظيمة، وحكم خالدة، مما يعطي للصلاة مكانتها التي ليس لها مثيل، وقد وصفها الرسول الكريم بانها "عماد الدين".

توالت المحن وتكاثرت الآلام على النبي صلى الله عليه وسلم فتُوفيَ عمُّه "أبو طالب"، ومن بعده بقليل زوجته "خديجة"، وضاعفت "قريش" من إيذائه، فقرر الذهاب إلى مدينة "الطائف" ليدعو أهلها إلى الإسلام، فلم يستجيبوا لدعوته، بل إنهم استهزأوا به وآذوه، وجعلوا صبيانهم وسفهاءهم يسبونه ويضربونه بالحجارة حتى جُرحَتْ قدماه، وعندما سَكَنَتْ نفسُه واطمأن قلبه، التجأ رسول الله إلى ظل شجرة، وتوجه إلى الله عز وجل بهذا الدعاء:

"اللهم إليك أشكو ضعفَ قوتي، وقلةَ حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ أإلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملّكتَه أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو تحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك".

ولم يتأخر جواب الله على دعائه، فجاءت المنحة العظيمة من السماء، مواساة له وإكراما من رب العالمين، وكانت رحلة الإسراء والمعراج! وارتقى من سماء إلى أخرى حتى وصل إلى "سدرة المنتهى"، حيث "جنة المأوى"، وفى "جنة المأوى"، رأى النبي صلى الله عليه وسلم ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر! ثم عُرِجَ به إلى لقاء ربه فأوحى الله إلى عبده ما أوحى، وهناك فُرِضَتْ الصلاة، فهي الركن الوحيد والعبادة الوحيدة التي فرضها الله عز وجل من فوق سبع سماوات، وأبلغها إلى رسوله الكريم مباشرة بغير واسطة، وذلك تأكيداً لفضلها وعُلُوِّ شأنها، وحيث أن الصلاة، كما ذكرنا، هي صلة العبد بربه، فكأنما اراد المولى سبحانه أن يتيح لكل مسلم أن يتصل بخالقه الكريم، فيناجيه ويناديه ويدعوه ويشكو له همَّهُ وغمَّه في أيّ وقت من ليل أو نهار، وأن تكون الصلاة معراجا لروح المسلم، فيصعد بها إلى السماء، وكأنه يعيش رحلة النبي صلى الله عليه وسلم بانتظار الصعود الحقيقي إلى جنة الله عند البعث والنشور.

وإليكم الآيات التي تصف لنا هذه الحادثة الفريدة: ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إلى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (النجم 8-18).

وكانت الصلاة خمسين مرة في اليوم والليلة، ثم جعلها الله خمس صلوات وقال: "يا محمد، إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر (أي أجر عشر صلوات)، فذلك خمسون صلاة"، ثم زاده الله بمزيد من عطاياه ورحمته، فقال له مخبراً: "من همَّ بحسنة من أمتك فلم يعملها كُتبت له حسنة، فإن عملها كُتبت له عشرًا، ومن هَمَّ بسيئة فلم يعملها لم تُكتب شيئًا، فإن عملها كُتبت سيئة واحدة".

وقد جاء في الحديث عن أبى هريرة رضي الله عنه قال، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول، قال الله عز وجل: إني قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: (الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: (الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)، قال الله: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال: (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ)، قال: مجّدني عبدي، وإذا قال: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، وإذا قال: (اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ)، قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل.

الركن الثالث: إيتاء الزكاة

الزكاة هي الركن الثالث من أركان الإسلام الخمسة، وما أريد أن ألفت الانتباه إليه هنا، هو أن الزكاة هي الوحيدة بين هذه الاركان التي فيها جانبٌ تعبُّديّ، وجانبٌ يتعلق بالمعاملات، لأن إخراج الزكاة يمس حياة الآخرين، وخاصة الفقراء والمساكين الذين هم بحاجة ماسّة لها، وهي في هذا الجانب تخضع للاجتهاد خلافا لبقية الاركان.

الزكاة

الزكاة مشتقة في اللغة العربية من كلمة "زكا"، والتي تعني النماء والطهارة والبركة والمدح.

معنى النماء كما في قوله تعالى: وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّباً لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (الروم 39).

معنى الطهارة كما تشير إليه هذه الآية: خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (التوبة 103).

معنى المدح كما في قوله سبحانه: فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (النجم 32).

معنى البركة كما جاء في الحديث الشريف: "ما نقص مال من صدقة".

أما تعريفها شرعاً فهي الجزء المخصص للفقير والمحتاج من أموال الغني.

إن الحكمة من الزكاة إذاً، هو تطهير النفس من البخل والحرص والأنانية وحب الذات، لتصبح نفسا رحيمة كريمة تحب العطاء وتواسي المحتاجين، وهذا يذكرنا بما قلناه عن العلاج النفسي

في قوله تعالى: إِنّ الْإِنسَان خُلِقَ هَلُوعًا * إذا مَسَّه الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذا مَسَّه الْخَيْر مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّين * الَّذِين هُمْ عَلَى صَلَاتِهِم دَائِمُونَ * وَالَّذِين فِي أَمْوَالِهِم حَقّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِين يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ، ومرة أخرى نرى الأهداف السامية للعبادات، فالمسلم تطهره صلاته وزكاته من الخوف والجزع عند الشدة والملمات، ومن البخل والشح عند الغنى والميسرة، ولهذا يقول الله سبحانه: فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (التغابن 16–17)، وهكذا نجد أن الله رب العالمين يعتبر أن مَن يساعد الفقراء والمساكين، كمن يُقرض الله سبحانه، ويَعِدُهُ بأن يضاعف له قرضه وأن يغفر له وأن يزيده من فضله، فهو الكفيل والضامن لمكافأة من يؤدي الزكاة مكافأة بدون حدود، والآية التالية أكثر إيضاحا في جزاء رب العالمين لمن ينفقون في سبيله: مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (البقرة 261).

يتضح مما تقدم أن الزكاة بشقها المرتبط بالعبادات هي كالصلاة والصوم والحج، قاعدة أساسية تعبدية يقوم بها المسلم ابتغاء مرضاة الله، كما في الآية الكريمة إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (الإنسان 9–12)، فهي من هذه الناحية عملية تربوية سامية، هدفها إصلاح النفس وتعليم الإنسان ومساعدته في المحافظة على خط سيره السليم، وتجنبه الانحراف في رحلة العودة إلى جنة الخلد التي خرج منها عندما هبط آدم وحواء إلى هذه الأرض، وأصبح لا بد من العمل الصالح لمن يريد من ذرية آدم أن يستحقها، والنجاح في الامتحان الدنيوي لاسترجاعها.

إن الزكاة بشقها التعبدي ليست ضريبة وإنما هي عبادة وطاعة لله، كالصلاة والصوم، وهي حق للفقير في مال الغني كما جاء في الآية الكريمة: وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (المعارج 24–25)، وقد حدد الرسول الكريم هذا الحق المعلوم بمقدار 2.5% من الثروة، أي مما يملكه الشخص، وليس من دخله فقط.

هذا وقد حَدّدَ القرآن الكريم لمن تُعطى الزكاة في الآية التالية: إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ

فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (التوبة 60)، فهي تُعطى لهذه الفئات من المحتاجين، أما الضريبة فهي حق للمجتمع، وتُصرف في مجالات أخرى كثيرة، وتُؤخذ من الجميع، وتُصرف في خدمة المجتمع ويستفيد منها الغني والفقير، وقد جاء في الحديث الشريف "إن في المال حقّاً سوى الزكاة"، وهذا ما طبقه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولهذا قلنا إنه في الشق المتعلق بالمعاملات فإنه يمكن للدولة أن تفرض ضرائب أخرى، كما يمكن للمسلم أن يزيد قيمتها عن نسبة ال 2.5%، وهذا ما نسميه بالصدقات، والصدقة هي أوسع وأشمل من الزكاة.

إن الآيات القرآنية التي تتحدث عن الزكاة كثيرة جدا وغالبا ما تقرنها بالصلاة ومنها:

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَة (البيّنة 5).

قل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ (إبراهيم 31).

الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُون * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون (البقرة 1-5).

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِير (البقرة 110).

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (البقرة 277).

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (التوبة 18).

الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأرض أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمور (الحج 41).

الزكاة في الشرائع السماوية:

عندما شرحنا معنى الإسلام، قلنا إنه اسم للدين الذي تشترك فيه الشرائع السماوية جمعاء، وأشرنا إلى أن هذه الشرائع تقوم على نفس الأركان وتتقاسم الدين الواحد بكل ما فيه، وكما بينا ذلك في موضوع التوحيد والصلاة فإننا سنفعل نفس الشيء فيما يتعلق بالزكاة وسنستعرض الآيات القرآنية التي تحدثنا عن ذلك.

يقول الله سبحانه في معرض حديثه عن إبراهيم واسحاق ويعقوب: وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (الأنبياء 73).

ويحدثنا عن إسماعيل أيضا بقوله: وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولا نَّبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (مريم 54).

ويقول الله عن أهل الكتاب: وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (البينة 5).

ويحدثنا القرآن الكريم عن بني اسرائيل في قوله تعالى: وَلَقَدْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ (المائدة 12).

وجاء في القرآن على لسان المسيح عليه السلام: وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً (مريم 31).

ويمكن أن نُذكّر ببعض ما جاء في الإنجيل أيضا: "من سألك فأعطه، ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده، ومن له ثوبان فليُعطِ من لا ثوب له" (إنجيل متّى 5:42).

من كل ما تقدم نستطيع أن نؤكد أن الزكاة هي عبادة قبل كل شيء، تماما كالصلاة والصوم والحج، هدفها طاعة الله رب العالمين، ولكنها ككل العبادات تربية للإنسان لكي يتخلص من الخوف والجزع، من الشح والبخل، ودعوة إلى تصحيح المسار في كل مرة نبتعد فيها عن الصراط المستقيم، مع كل ما يتبع ذلك من تطهير للنفس الإنسانية، ودعوة للتكافل الاجتماعي،

وخلق أجواء من السلم الأهلي، ونشر المحبة والمودة بين أفراد المجتمع، الاغنياء منهم والفقراء، بدلا من صراع الطبقات البغيض مع كل ما يحمله من عداوة وانتقام.

وهكذا تعمل الزكاة على تطهير المجتمع والفرد، والغني والفقير، بعبادة مالية ينفقها المسلم الغني عن طيبة خاطر، وهو يشعر بأنها طهارة لنفسه من الأنانية والطمع والحرص وعدم المبالاة بمعاناة الغير، ويشعر الفقير المحتاج بطهارة نفسه من الغيرة والحسد والكراهية، وتؤدى الزكاة إلى زيادة تماسك المجتمع وتكافل أفراده والقضاء على الفقر، وما يرتبط به من مشاكل اجتماعية واقتصادية وأخلاقية.

أخيراً وكما قلنا في موضوع الصلاة، فإنه لا يكفي أن نقوم بأداء الزكاة، بل يجب صرفها لمستحقيها وأن تكون خالصة لوجه الله كما جاء في الآية الكريمة: قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (البقرة 263)، وكذلك الآية التالية: لَيسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (البقرة 177).

الركن الرابع: صوم رمضان

جاء في الحديث القدسي: "كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به"، وهنا قد يتساءل البعض، عن معنى إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به! في ضوء ما نردده دوما من أن الذي يؤدي العبادات فإنما يؤديها لنفسه، وأن الله غني عن العالمين؟

ولكي نفهم المقصود بذلك علينا أن نتذكر قوله تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (البقرة 261)، فهذه الآية تفسر لنا ميزان الله الرحيم الكريم، حيث تكون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وهذا في الأمور العادية، أما في الصوم فالمضاعفة أعظم من ذلك بكثير، وهي متروكة لفضل رب العالمين، ومن أوفى بعهده من الله؟!

وقد جاء الحديث في رواية أخرى: "إن ربكم يقول: كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف والصوم لي وأنا أجزي به"، ولهذا قال تعالى: (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)، فالمقصود بهذا الحديث أن الله سبحانه يقول: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلا في موضوع الصوم، فإن الأمر متروك لي وأنا أجزي به، وعليَّ تحديد المضاعفة، وعندما يكون الأمر متروك إلى الله فالثواب لا بد أن يكون بغير حساب!

وكما ذكرنا في التوحيد والصلاة والزكاة، فإننا نشير دوما إلى أن كثيرا من الناس يلتزمون العبادات، من صلاة وزكاة وصيام وحج، ويؤدونها كعادات وتقاليد ورثوها عن آبائهم، فلا يستفيدون منها ولا يتذوقون حلاوتها ولا يشعرون بروحانيتها، ومن ذلك قوله تعالى في الزكاة: قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (البقرة 263)، وقول الرسول صلى الله عليه

وسلم: "من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له"، وكما جاء في حديث آخر: "رُبَّ صائم ليس له من صيامه الا الجوع والعطش".

ولهذا فإن علينا أن نتذكر دوما، وأن نضع نصب أعيننا، بأن الهدف المشترك لكل العبادات، هو تزكية النفس وتطهيرها والارتقاء بها نحو الكمال، والابتعاد بها عن السيئات والمعاصي والآثام، كما يقول الله سبحانه: وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (الشمس 7-10).

الصيام

الصوم في اللغة من صام يصوم صوما وصياما، وهو الإمساك عن الشيء والترك له، والصوم في الأصل هو الإمساك عن الفعل طعاماً، أو كلاماً، أو مشياً.

وقد فرق بعض العلماء بين الصوم والصيام، فقالوا إن الصيام هو صيام الفرض، أما الصوم فهو صيام النوافل أي التطوع.

وأما معناه شرعا: "فهو الإمساك عن المفطرات يوماً كاملاً، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس".

وقد جاء في القرآن الكريم عن السيدة مريم عليها السلام: فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (مريم 26)، فكان صيامها عن الكلام، وكذلك في قصة زكريا عليه السلام: قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (مريم 10).

والحديث عن الصوم يلفت الانتباه، إذا ما قارناه بالأركان الأخرى من صلاة وزكاة وحج، إلى أن هذه الأركان فيها أعمال ظاهرة وحركية، فالصلاة فيها من الحركات الكثير، وهي تتم في المسجد فيراها الناس، وكذلك الحج وما يرافقه من جهد وسفر ومشقة، وحتى الزكاة فإن فيها تنقلا وبحثا عن الفقراء وإخراجا للمال، أما الصوم فهو امتناع وإمساك عما كان مباحا قبل رمضان وسيعود مباحا بعد رمضان، وهذا ما يجعل من هذه الفريضة أبعد العبادات عن الرياء والنفاق،

فالإخلاص جزء لا يتجزأ منها، لأنها تتم دون رقيب أو حسيب، فهي عبادة سِرّيّة تختلف عن بقية أركان الإسلام بأنها لا تكون لغير الله، فقد أشرك الناس آلهة مع الله، وصلّوا للأصنام وعبدوها، ودفعوا الزكاة والضرائب لغير الله، وكذلك الحج، فقد كان العرب يحجون للأصنام في مكة المكرمة، أما الصوم فإن أحدا لا يصوم إرضاء لأحد، ولعل من المفيد أن نلاحظ أن طاعة الله تكون عادة في اجتناب نواهيه ومحرماته، إلاّ في الصوم فإنها تكون بالامتناع عما هو حلال في الأصل، وهذه قمة الطاعات، وهنا نجد تفسير الحديث القدسي: "إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به"، فالصوم كالإيمان وكالتقوى محله القلب، وهو في الأصل عمل خالص لوجه الله تعالى، الهدف منه هو أن تكتسب النفس تقواها، كما جاء في آية الصيام: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون.

ولا شك أننا ما زلنا نذكر حديثنا عن الرقابة الادارية وقياسها مع الصلاة، حيث وصلنا إلى خلاصة مفيدة، وهي أن الصلاة بمواقيتها المحددة، هي عبارة عن خمس نقاط أو مواعيد في اليوم والليلة، يتوقف عندها المؤمن ليراقب نفسه وعمله، من أجل تصحيح الانحراف والعودة إلى خط السير السليم، وهذه واحدة من الحكم في قوله تعالى: إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا.

ولا بد أن نلاحظ هنا أيضا، دور الرقابة الذاتية في فريضة الصيام، لأن الصائم ليس بحاجة ليثبت أنه صائم لأي كان، وليس هناك ما يمنعه من أن يأكل سِرّاً بحيث لا يراه أحد! ولكن لأنه يؤدي هذه الفريضة لوجه الله فإنه يعرف أن الله هو الرقيب والشهيد عليه، فيلتزم بصيامه من تلقاء نفسه، وهنا أيضا نجد تفسير الحديث القدسي: "كل عمل ابن آدم له إلاَّ الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي". وهكذا يكون الصيام سرا بين العبد وربه، فتزداد التقوى كما عرفناها سابقا وهي: "أن لا يفتقدك الله حيث أمرك وأن لا يجدك حيث نهاك" ولهذا يقول الله سبحانه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (البقرة 183)، ولم يقل رب العالمين بأن الصيام للصحة أو للتوفير، بل جعله تربية روحانية لبلوغ النفس الإنسانية تقواها وليكون الله حاضرا في كل أعمالها وتصرفاتها، وهكذا يصبح الصوم وسيلة تربوية أُخرى، تضاف إلى التوحيد والصلاة والزكاة، لتساهم بدورها في تربية النفس على الصدق والإخلاص في كل شيء، بالسر والعلن، لأن هذا من أهم نتائج الرقابة الذاتية، فهي لا تحتاج إلى قوة القانون لتطبيقها والعمل بها، وإنما تنبع من قناعة ذاتية توجه الإنسان نحو الالتزام بالمبادئ السامية النبيلة، والاحسان في كل أعماله وأقواله ومعاملاته وسلوكه وتصرفاته، سواء كان ذلك في علاقته وصلته بالله رب العالمين، أو في علاقته ومعاملاته مع الآخرين، وهذا ما جاء في الحديث

الشريف الذي رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس الصيام من الأكل والشرب، إنما الصيام من اللغو والرفث، فإن سابَّك أحدٌ أو جهل عليك فقل: إني صائم، إني صائم"، وعنه أيضا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه" رواه البخاري. ولنقرأ قول الله سبحانه وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ.

وقد فرض الله الصيام في السنة الثانية للهجرة ونزلت آية الصوم المعروفة وفيها شرح وتفسير لهذه الفريضة الخاصة:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُون (البقرة 183–186).

وفي هذه الآية الكريمة يخاطب الله عباده المؤمنين ويبلغهم بأن الصيام قد كُتب عليهم كما كُتب على أهل الشرائع السماوية من قبلهم، وأن الحكمة المباشرة والهدف الأول من ذلك هو بلوغ التقوى التي هي غاية كل العبادات والطريق والسبيل للفوز بمرضاة الله سبحانه، ولأن التقوى كما ذكرنا هي قمة الرقابة الذاتية لأن الإنسان يرى الله في كل أعماله وأقواله وتصرفاته فيصبح إنسانا تسمو به القيم إلى أعلى القمم ويغدو إنسانا صانعا للخير بعيدا عن السوء والاذى كما جاء وصفه في الحديث القدسي الذي ذكرناه في موضع آخر: "فَإذا أَحْبَبْتُهُ كُنْت سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ".

ثم يُطمئِنُ الله عباده بأن الصيام أياما معدودات، وأن الله سبحانه برحمته قد سمح للمسافر والمريض ومن لا يطيق الصيام بأن يصومه فيما بعد، هذا إذا كان مريضا أو مسافرا، أو أن يتصدق على الفقراء إذا كان لا يقدر على الصوم لأنه كبير السن أو به علة دائمة.

ثم يذكرنا رب العالمين بأن شهر الصيام هذا، هو شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن، وأنه ليس كغيره من الأشهُر، وكأنما جاء الصوم احتفالا وابتهاجا بهذا الشهر المبارك العظيم، وشكرا لله الذي أنزل فيه القرآن هدى ورحمة للناس، ويكرر الله الترخيص بالإفطار فيه لمن كان مريضا أو مسافرا، لأن الله لا يريد لنا العذاب والمشقة وإنما يريد لنا اليسر والرحمة والهدى، وهنا يُذكّرنا الله بأنه قريب من عباده وبشكل خاص في هذا الشهر المبارك الكريم، حيث يستجيب لدعاء السائلين، فادعوا الله وكونوا متيقنين من الاجابة، شريطة أن يكون الدعاء مقرونا بالإيمان لكي يكون مستجابا.

ولأن الصوم ليس كباقي العبادات فقد شرحته الآيات القرآنية وحددت إطاره العام وبكثير من التفصيل، كما نجد في تتمة الآية السابقة: وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إلى اللَّيْلِ (البقرة 187).

وقد لاحظنا أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "صلوا كما رأيتموني أصلي" لأن تفاصيل الصلاة لم تُذكَر في القرآن، وكذلك في الحج اذ يقول: "خذوا عني مناسككم" ولكنه لم يقل صوموا كما رأيتموني أصوم، وهذا تأكيد جديد للحديث القدسي "إلا الصوم فإنه لي...".

ولعلنا ننهي هذه الآية بحكمة الله الكبرى يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْر، فهذا مبدأ أساسي في الإسلام، كما سنراه في فصل آخر، وقد جاء عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن النبي عليه الصلاة والسلام "ما خُيرّ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما"، لذلك فإن مشقة الصوم ليست مرادة لذاتها، وإنما هي مشقة قليلة محتملة تجلب الخير الكثير وهو نيل التقوى، فهي إذن ثمن قليل يدفعه الصائم لينال من الله الرضى والرحمة والعفو والغفران كما جاء في الحديث الشريف "من صام رمضان إيمانا واحتسابا غُفرَ له ما تقدم من ذنبه".

ولا بد لنا ونحن نتحدث عن الصيام إلا أن نستعرض ولو بشكل موجز بعضا من الحِكَم النابعة من أداء هذه الفريضة العظيمة، والمرتبطة بها وأهمها:

- الحكمة الأولى كما جاء في آية الصيام لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، فهي عبادة قبل كل شيء هدفها تزكية النفس وتطهيرها والارتقاء بها نحو الكمال والابتعاد بها عن السيئات والمعاصي والآثام.

- الصوم مدرسة لتربية الإرادة والعزيمة في وجه الغريزة، وللسمو بالنفس وكبح شهواتها ورغباتها، فالحيوانات منقادة نحو إشباع غرائزها بأي شكل ودون التفكير بالعواقب، وحده الإنسان

يستطيع أن يمتنع عن الطعام حتى في حالة الجوع، ولأن الله كرّم الإنسان بالعقل والحرية وجعله خليفة في الأرض، فقد جعله مسؤولا عنها وعن إعمارها والحفاظ عليها وعلى البيئة التي تضمن استمرار الحياة فيها، ولعل الصيام هو تدريب وتذكير للإنسان بهذه المسؤولية ومنها ترشيد الاستهلاك والاستفادة من خيرات الأرض دون إسراف أو هدر! ولنقرأ قول الله سبحانه: إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (محمد 12). فالصيام هو الطريق لسيطرة الروح على المادة والعقل على الغريزة، وبهذا يكون الإنسان إنسانا ويستحق أن يكون خليفة الله في أرضه.

- تدريب الصائم على الصبر والتحمل، ولهذا نرى الصوم يأتي في كل الفصول لكي يكون التدريب كاملا وشاملا، وقد جاء في الحديث "الصيام نصف الصبر"، كما أن الصائم يمتنع عما هو حلال له أصلا، مما يجعله أقوى وأكثر استعدادا لاجتناب ما هو محرم وغير مشروع.

- يرى كثير من العلماء أن في الصوم تذكيراً بالبطون الجائعة، والأجواف الخالية والعطف على الفقير، والحنو على المسكين، والإحسان إلى المعدمين، وقد جاء في الحديث عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة". رواه البخاري

- الخروج من ذُلّ الخضوع لسلطان العادة، إلى عزّ خيار العبادة.

ليلة القدر

لا يمكن الحديث عن الصوم دون الحديث عن ليلة القدْر، وأقول "القَدْرْ" وليس "القَدَرْ"، لأن الكلمة الأولى تعني أنها ذات قيمة وشأن وشرف ومنزلة رفيعة، أما الثانية فتعني المكتوب والمقرر وهو ما يترجمه الكثيرون في الفرنسية "La nuit de Destin"، والمعنى الأول هو الأقرب إلى فهمنا ويدل على ذلك قوله سبحانه إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، وعلامة علو شأنها وشرفها أنها خير من ألف شهر، وكذلك قوله تعالى: وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، وهذا ما سنراه في الفقرات اللاحقة.

ليلة القدر إذاً، هي ليلة ذات شأن ومنزلة وجلال وشرف، فضّلها الله على سواها من الأيام والليالي وجعلها خيرا من ألف شهر، وإذا حسبنا ذلك بالسنوات فإننا نجدها تعادل 83 سنة، وإذا افترضنا أن هذا الرقم يمثل متوسط عمر الإنسان أو ما سيكون عليه مستقبلا، فمعنى ذلك أن ليلة القدر تعادل العمر بأكمله! ولنقرأ السورة التي نزلت باسمها لنستمتع بما فيها من معان عظيمة وفضائل ليس لها مثيل: إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ.

ولعل أول ما يلفت الانتباه أن عدد كلمات السورة = 30 كلمة، إشارة إلى أيام شهر رمضان المبارك، وما يلفت الانتباه أكثر، هو أن كلمة "هي" هي الكلمة السابعة والعشرون، وهي الليلة الأرجح لأن تكون ليلة القدر كما روى كثير من الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذا تمعنا في هذه السورة، القصيرة جداً، لوجدنا أن كلمة "ليلة القدر" تكررت ثلاث مرات، وأن "ليلة القدر" مؤلفة من تسعة أحرف، وأن حاصل ضرب 3*9=27، في إشارة أخرى إلى "ليلة القدر" في شهر رمضان. فسبحان الله على هذه المصادفات المنظمة وهي كثيرة في القرآن الكريم!

ولا بد أن أشير إلى أن هذه الاشارات ليست تفسيرا ولا دليلا وإنما هي خواطر تعودت عليها وأحب أن أشاركها من حولي من أهل وأصدقاء وهم يعرفون ذلك مني.

إن عُلوَّ وجلال ليلة القدر يأتي من كونها الليلة التي أنزل الله فيها القرآن الكريم، وهو آخر صلة بين السماء والأرض، وقد جعله الله دون أدنى شك هداية للمتقين كما جاء في سورة البقرة الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، ففي هذه الآيات الكريمة يؤكد المولى عز وجل أن القرآن الكريم دون أدنى شك هو هدى للمتقين، وفي آية الصوم يقول سبحانه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، فالعلاقة واضحة جلية: صوم رمضان يؤدي إلى التقوى، والقرآن الكريم هو بلا شك هدى للمتقين، فهو إذاً هدى للصائمين! وكأنما جاء صيام شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن ضمانة للاستفادة من كتاب الله ونبراسا يقود المؤمن للهدى، وهذا هو سر ليلة القدر، فهي ليست عظيمة بذاتها، وإنما تستمد شرفها ومنزلتها وقدرها من القرآن الذي أنزله الله فيها، ولذلك تبدأ الآية بقوله سبحانه: إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، فالضمير في "أَنزَلْنَاهُ" يعود إلى

القرآن الكريم، وكذلك قوله سبحانه: إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ، وقد استخدم الكثيرون هذه الآية للتدليل على أنها ليلة "القَدَرْ" حيث يُفرَقُ ويُقَرَّرُ فيها كلُّ أمر حكيم، وليس هناك تناقض بين الرأيين، فهي ليلة مباركة ذات شرف ومكانة ولذلك يُقَرَّرُ فيها كل أمر حكيم.

ولا شك أن الحديث عن ليلة القدر قد جعل الكثير من الناس يهتمون بهذه الليلة المباركة وينسون أن أهميتها تأتي مما أنزله الله فيها وهو القرآن الكريم والذي يجب أن يكون محل الاهتمام الأول في هذه الليلة وفي كل شهر رمضان كما جاء في آية الصوم: شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ (البقرة 185)، ولذلك كان جبريل عليه السلام يدارس الرسول القرآن، كما جاء في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل وكان جبريل يلقاه كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن"، وهكذا يمكننا القول بأن صوم شهر رمضان ليس إلاّ احتفالا بنزول القرآن الكريم وشكرا لله سبحانه على هذه النعمة الكبرى والرحمة المهداة، كما أن ليلة القدر تستمد قدرها ومنزلتها وشرفها من القرآن الكريم الذي أنزله الله فيها، ولهذا فإن أهم العبادات في شهر رمضان إنما يكون في قراءة القرآن وتعلم القرآن وفهم القرآن والعمل بالقرآن وإلاّ اصبحنا مثل الذين اشتكاهم رسول الله لرب العالمين كما جاء في الآية الكريمة: وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (الفرقان 30)، وهذا ما لا نتمناه لأحد منا والعياذ بالله.

الصيام في الشرائع السماوية

عندما شرحنا معنى الإسلام، قلنا إنه اسم للدين الذي تشترك فيه الشرائع السماوية جمعاء، وأشرنا إلى أن هذه الشرائع تقوم على نفس الأركان وتتقاسم الدين الواحد بكل ما فيه، وكما بينا ذلك في موضوع التوحيد والصلاة والزكاة فإننا سنفعل نفس الشيء فيما يتعلق بالصيام.

إن آية الصوم تبدأ بفرض الصوم وتذكرنا بأن هذه الفريضة قد كُتبت على أصحاب الشرائع السماوية من قبل، فهي ككل أركان الإسلام فريضة مشتركة أيضا: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، وكأنما يريد الله سبحانه أن يبين لنا في كل مناسبة نقاط الاتفاق التي تجمعنا مع أتباع الشرائع السماوية من قبلنا وأنها أهم وأكثر من نقاط الاختلاف، وهذه هي أفضل الطرق لإنجاح الحوار، حتى أن الله سبحانه يخاطبهم في أكثر الأحيان

بعبارة "يا أهل الكتاب" واشتق العرب في لغتهم كلمة "كتابيّ" للتعبير عن اليهودي والمسيحي، لأنهم أهل كتاب منزل من رب العالمين، اي التوراة والإنجيل.

الصوم في اليهودية: صام موسى عليه السلام أربعين يوما عندما ذهب للقاء ربه في جبل الطور، كما جاء في القرآن الكريم: وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ * ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (البقرة 51–52)، وفي قوله تعالى: وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً (الأعراف 142)، وقيل بأن صيام موسى كان امتناعا عن الطعام والشراب مدة أربعين يوما. واقتصر اليهود فيما بعد على صيام يوم واحد هو يوم الغفران، كما نجد أن بعضهم يصوم يوم الخميس، وهو يوم ذهاب موسى عليه السلام للجبل لاستقبال الوحي الإلهي، ويوم الاثنين الذي عاد فيه من الجبل.

وكان أهل الكتاب يصومون اليوم العاشر من شهر محرم، فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وجدهم يصومونه فسألهم عن ذلك، فقالوا: هذا يوم نجَّى الله فيه موسى وقومه من فرعون فنحن نصومه شكراً لله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم "نحن أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه".

صيام داوود عليه السلام: فقد جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن أفضل الصيام صيام داود: كان يصوم يوماً ويفطر يوماً".

الصوم في المسيحية: تروي الأناجيل أن المسيح عليه السلام صام أربعين يوما، كما فعل موسى عليه السلام ودون أن يأكل شيئا كما جاء في انجيل لوقا: "أَمَّا يَسُوعُ، فَعَادَ مِنَ الأُرْدُنِّ مُمْتَلِئاً مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ. فَاقْتَادَهُ الرُّوحُ فِي الْبَرِّيَّةِ أَرْبَعِينَ يَوْماً، وَإبليس يُجَرِّبُهُ، وَلَمْ يَأْكُلْ شَيْئاً طَوَالَ تِلْكَ الأَيَّامِ"، غير أننا لا نجد في الأناجيل تحديدا للصوم، أو لعدته أو كيفيته، ولكننا نجد أن الهدف من الصيام هو التبرؤ من الرياء والنفاق والدعوة إلى الصدق والإخلاص لله، لذلك يُحذّر المسيح عليه السلام من الصوم الشكلي المظهري الذي لا ينبع من أعماق القلب، فهذا صوم يمارسه الإنسان لكي يظهر صائماً، وذلك بقوله: "ومتى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين فإنهم يغيّرون وجوههم لكي يظهروا للناس صائمين. الحقَّ أقول لكم إنهم قد استوفوا أَجْرَهم"، أما الصوم المقبول فيكمل به الوحي المقدس الحديث في سِفْرِ اشعياء بالقول "أليس هذا صوماً اختارهُ حَلَّ قيود الشر فَكَّ عُقَد

النير وإطلاق المسحوقين أحراراً وقطع كلّ نيرٍ. أليس أن تكسر للجائع خبزك وأن تدخل المساكين التائهين إلى بيتك. إذا رأيت عرياناً أن تكسوهُ وأن لا تتغاضى عن لحمك"، ولا بد لنا من الاشارة في هذا المكان إلى حديث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم حيث يقول "رب صائم ليس له من صيامه الا الجوع والعطش" وهذا ينطبق على الصوم الشكلي.

أخيرا تجدر الاشارة إلى أنه في الكتاب المقدس عادة ما يجتمع الصوم مع الصلاة كما نقرأ في سفر دانيال: "فاتَّجَهْتُ بِنَفْسِي إلى السَّيِّدِ الرَّبِّ، أَبْتَهِلُ إِلَيهِ بِالْصَّلاَةِ وَالتَّضَرُّعَاتِ وَالصَّوْم".

إن الحديث عن كل ركن من أركان الإسلام يمكننا أن نبدأ به، ولكننا لا نعرف أين نتوقف وكيف ننتهي، ولكننا ندرك أننا تعهدنا منذ البداية أن نوجز الحديث ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، إلاّ أنه يبقى من الواجب علينا قبل ختام هذا الفصل أن نشير إلى سلوك البعض منا خلال هذا الشهر الكريم حيث يقول أحدنا: "لا تنرفزني فإني صائم!"، ويغضب ويثور لأتفه الأسباب، مناقضا في سلوكه وتصرفاته أبسط شروط الصيام وآدابه وحكمته، وكذلك اللجوء إلى التسلية بالحديث عن الناس، وتبدأ الغيبة والنميمة وننسى قول الله سبحانه: وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتا، وكذلك اعتياد البعض على السهر طوال الليل، ليس تعبداً ولا تهجداً وإنما للتسلية واللعب، ثم ينامون النهار كله حتى ساعة الافطار! ولن نناقش هذه الأمور أكثر فكلنا يعرف بانها بعيدة كل البعد عن رمضان وينطبق عليها حديث الرسول الكريم: "رب صائم ليس له من صيامه الا الجوع والعطش".

وسننهي حديثنا عن الصوم بما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: "ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جُنَّة والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار وصلاة الرجل في جوف الليل" قال ثم قرأ: تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون (السجدة 16-17).

ولنقرأ معا هذه الآية الجامعة والتي تساوي بالأجر بين الرجل والمرأة وسنعود إليها لدى الحديث عن المرأة في الإسلام، يقول الله جل وعلا: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ

وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (الأحزاب 35).

الركن الخامس: حج البيت من استطاع إليه سبيلا

يقول الله سبحانه: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِير (الحجرات 13)، هذه الآية تُبين لنا بأن تعارف البشر هو هدف من مقاصد الشريعة، ومن البديهي أن يكون الحج هو المكان الأمثل ليتعارف فيه الناس، ولعله من المفيد أن نلفت الانتباه منذ الآن إلى ترابط هذه المعرفة بيوم عرفة!

كذلك لا بد أن نشير هنا، إلى أن الحج يبدو لنا وكأنه صورة أو فيلم يرسم قصة الحياة منذ خروج آدم وحواء من الجنة وهبوطهم إلى الأرض، إلى بناء الكعبة المشرفة، أول بيت وضع للناس لعبادة الله في الأرض، ثم رحلة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام بصحبة زوجته هاجر وابنه إسماعيل، إلى بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وبزوغ فجر الإسلام، ثم رحلة كل مؤمن إلى نقطة البداية، استعدادا إلى الرحلة الكبرى في طريق العودة إلى السماء، متذكرين قول الله سبحانه: مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (طه 55).

وسنبدأ حديثنا عن هذا الركن الأخير بنداء إبراهيم عليه السلام، ودعوته الناس جميعا لأداء هذه العبادة، والعودة إلى الجذور، إلى أول بيت وُضِعَ للناس، وسنجد أن هذا الركن الذي لا يجب في العمر إلا مرة واحدة، يجمع الأركان الخمسة معا، وكأنه مسك الختام، وكما يقول رب العالمين: خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (المطفّفين 26).

ونعود إلى نداء إبراهيم عليه السلام كما جاء في الآية الكريمة التي تنقل لنا المشهد وكأننا معه نراه ونسمعه: وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا

مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (الحج 26–28)، ونسمع المؤمنين يلبون الدعاء على مر العصور، يرددون ويهتفون حتى قيام الساعة، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها: "لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكْ، لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكْ، إِنَّ الْحَمْدَ، وَالنِّعْمَةَ، لَكَ وَالْمُلْكْ، لاَ شَرِيكَ لَكْ"، وتردد معهم هذا الدعاء، الأرض والجبال والسهول والوديان، والطير والشجر وكل ما في الكون، كما جاء في هذه الآية: تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (الإسراء 44).

فهلمّوا لنُلَبيّ النداء، سائلين الله أن يمنّ علينا بأداء هذه الفريضة، وأن يكون حجنا مبرورا، لأنه كما جاء في الحديث الشريف: "الحج المبرور ليس له جزاء الا الجنة".

الحج والعمرة

الحَجُّ في اللغة: القصدُ، يقال حَجَّه يَحُجُّه حَجّاً: أي قصده.

وأما معناه شرعا فهو: قصد البيت الحرام لأداء أفعال مخصوصة من الطواف والسعي والوقوف بعرفة وغيرها من الأعمال، والحج من الشرائع القديمة، فقد ورد في الأثر أن آدم عليه السلام حَجَّ، وهنأته الملائكة بحجه.

وأما العمرة فمعناها في اللغة: الزيارة

ومعناها في الشرع: زيارة الكعبة على وجه مخصوص مع الطواف والسعي والحلق أو التقصير.

فُرِضَ الحجُّ في السنة التاسعة للهجرة، وقد قام النبي بالحج مرة واحدة فقط هي حجة الوداع في العام العاشر للهجرة، وفيها ألقى النبي صلى الله عليه وسلم خطبته الشهيرة التي عُرِفَتْ بخطبة الوداع، وقد أجمع العلماء على وجوب الحج على المستطيع في العمر مرة واحدة والدليل من الكتاب قوله سبحانه: وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا (آل عمران 97).

الحج فريضة جامعة: قلنا إن الحج الذي فرضه الله على المستطيع مرة في العمر هو فريضة جامعة، تحمل في طياتها أركان الإسلام الخمسة، فالحج يبدأ بالتوحيد والتلبية ويتردد

الصوت عاليا مدويا في الآفاق ملبيا نداء أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام: "لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكْ، لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكْ، إِنَّ الْحَمْدَ، وَالنِّعْمَةَ، لَكَ وَالْمُلْكْ، لاَ شَرِيكَ لَكْ"، وفي فريضة الحج من الصلوات ما فيها، سواء الصلاة بشعائرها المعروفة، أو بمعناها الواسع الذي هو الذكر والدعاء، وفيها من الصدقات والنفقات ما يزيد عن الزكاة، وفيها صوم عرفة.

إن الحديث عن الحج، واركانه، وفضائله، وحكمته، بل وأنواعه، هو حديث لا ينتهي ويحتاج إلى كتاب خاص به، والمكتبات مليئة بالكتب التي تفصل كل ذلك، أمّا في هذا الفصل فإنني أحب أن أتحدث عن الحج بما يحمله من رمزية ودعوة إلى التأمل والتفكير، ووضعه في سياق الأركان الأخرى التي تساعد على القيام بالرقابة الذاتية على حسن الاداء، ودوره في تصحيح المسار للعودة إلى الصراط المستقيم، لكي يعود الإنسان باختياره الحر، إلى الانسجام مع هذا الكون البديع وكل ما فيه من جبال وسهول ووديان وأشجار وكواكب ومجرات، فكلها تعبد الله وتسبح بحمده كما تشير الآيات الكثيرة في القرآن الكريم، ويبقى على الإنسان أن يلتحق بها لكي يجد الخلاص والطمأنينة والسكينة، وسنكتشف معا كيف تساهم فريضة الحج، بشكل لا يخطر على البال، في تحقيق هذا الغرض الذي أشار إليه المولى سبحانه بقوله: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (الذاريات 56–58).

ولا أشك ولو للحظة واحدة، بأننا سنتفاجأ جميعا بالأسرار الإلاهية الكامنة وراء هذه الفريضة الكبرى، التي بَيَّنَ فضلها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ورد في صحيح البخاري عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله: "العمرة إلى العمرة كفّارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة"، ورُوِيَ عن الإمام علي بن أبي طالب أنه قال: "فَرَضَ اللَّهُ الْإِيمَانَ تَطْهِيراً مِنَ الشِّرْك، وَالصَّلَاةَ تَنْزِيهاً عَنِ الْكِبْرِ، وَالزَّكَاةَ تَسْبِيباً لِلرِّزْقِ، وَالصِّيَامَ ابْتِلَاءً لِإِخْلَاصِ الْخَلْقِ، وَالْحَجَّ تَقْرِبَةً لِلدِّينِ". فلننتظر قليلا قبل أن نتحدث عن هذه الافكار والخواطر والانطباعات.

الحج والعبادة والكون

سبق وقلنا عندما تحدثنا عن العبادات، بأن الكون بكل ما فيه يتبع قانونا إلهيا وضعه الله لكل شيء، فالشمس والقمر والكواكب والمجرات تسير حسب القوانين التي وضعها لها رب العالمين، وحتى الذرة تنظمها القوانين الإلهية، فإذا خرجت عن مسارها كان هناك اختلال عظيم وانفجار

وخراب ليس له مثيل، وكذلك الإنسان فهو بحاجة أيضا أن يحافظ على مساره، لأن خروجه عن هذا المسار الذي هو الصراط المستقيم، يؤدي إلى الفساد والظلم وربما إلى الحروب والويلات.

وإذا تأملنا العلاقة بين ما في الكون والحج من تشابه فإننا سنتفاجأ كما قلنا كيف جعل الله سبحانه هذه الفريضة مرتبطة بالكون بكل ما فيه، من السماوات والكواكب والمجرات التي ليس لها حدود، إلى أصغر ما في هذا الكون من اشياء وهي الذرة التي تشكل المادة ومنها الإنسان

كان العلماء يعتقدون بأن كل الأشياء مكونة من ذرات غير قابلة للانقسام، وأنه ليس هناك ما هو أصغر من الذرة، وقد أدى اكتشاف العالم "طومسون" للإلكترون في نهاية القرن التاسع عشر إلى دحض المفهوم القديم والسائد عن الذرة منذ ألفي عام، والذي ينطوي على أنها جُسيم غير قابل للانقسام، مبينا أن هذا كان مفهوماً خاطئاً، كما أظهر أيضا أن للذرة ترتيب معقد، ثم توالت الاكتشافات في القرن العشرين لتصبح الذرة أكثر وضوحا، ويمكن تلخيصها بشكل مبسط على أنها تتكون من نواة تحتوي على شحنة موجبة (بروتونات) تتركز فيها معظم الكتلة، (ونيوترونات) متعادلة، محاطة بإلكترونات سالبة الشحنة تدور حول النواة في مدارات محدّدة، أشبه بدوران الكواكب حول الشمس وبعكس عقارب الساعة، تماما كما تدور الأرض حول نفسها، وحول الشمس، وكما يدور القمر والكواكب والمجرات، يقول الله سبحانه وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (النمل 88)، كذلك لا بد لنا أن نشير، رغم أن هذا ليس موضوع الكتاب، إلى أن العلماء قد اكتشفوا أيضا بأن عدد هذه المدارات لا تزيد على سبعة، وأن الالكترونات تتوزع أزواجا في هذه المدارات وبطريقة هندسية يمكن حسابها بشكل بسيط كما يلي: عدد الالكترونات في المدار = مربع المدار × 2 والرسم التالي يبين تركيب الذرة ومداراتها:

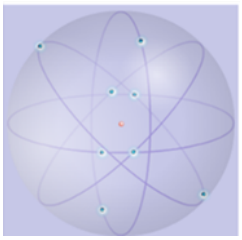

لن أطيل حديثي عن هذا الموضوع أكثر، رغم كل ما فيه من تشويق، وسأنتقل مباشرة إلى تسجيل بعض الملاحظات والخواطر والانطباعات والاستنتاجات التي لها علاقة بهذه الآيات

الكونية:

يقول الله تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الأرض وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِين (سبأ 3)، وهنا نجد أن القرآن قد أشار إلى أن هنالك ما هو أصغر من الذرة في وقت كان العالم أجمع يعتبر أن الذرة هي أصغر الاشياء، إلى أن تم اكتشاف الذرة وتركيبها!

يقول الله سبحانه: وَتَرَى الأرض هَامِدَةً فَإِذا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (الحج 5)، وقال أيضا: وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ * وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (الذاريات 47–49)، وقال أيضا: سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأرض وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ (يس 36)، وقد رأينا أنه حتى هذه الالكترونات قد جعلها الله سبحانه زوجين اثنين! صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ!

ولا يسعنا إلا أن نشير إلى أن الله سبحانه قد جعل الكون بكل ما فيه قائما على نظام ثنائي، وأن الوحدانية هي لله سبحانه، والأمثلة أكثر من أن تحُصى، نذكر منها:

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأرض مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (الطلاق 12)، ولنقرأ الآية التالية: وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُون (الأنبياء 33).

وإذا لاحظنا وتنبهنا إلى أن هذه الآيات تتعلق بنظام الحركة في الكون، فإننا سنكتشف بأننا نعيش في كون فسيح تعتمد الحركة فيه على الدوران، الذي هو أشبه ما يكون بالطواف، فالإلكترونات كما وجدنا، تدور حول النواة، والقمر حول الأرض، والارض حول الشمس...، وهكذا نجد أن أهم ما يجمع بين أنواع هذه الحركة في جميع حالاتها هو الدوران، أو الطواف، وبعكس اتجاه عقارب الساعة، وسنتفاجأ عندما نلاحظ أن الطواف حول الكعبة المشرفة، أول بيت وضع للناس، يتم بعكس عقارب الساعة أيضا، حيث يدور حوله الحجاج سبع مرات وكأنهم الالكترونات تدور حول نواتها، ويغدو الطواف محاكاة لكل ما في الكون، فتبدو الكعبة وكأنها الذرة، والحجر الاسود نواتها ويبدو الحجاج كالإلكترونات وهم يطوفون سبع مرات في مداراتها، مصداقًا لقوله

تعالى: وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (الحج 26–27)، ومن الغريب أن الحجاج يطوفون حول الكعبة المشرفة في عكس اتجاه عقارب الساعة، وقد لا يخطر على بال أحد من الطائفين حول الكعبة، لماذا يبدأ الدوران حولها بحيث يكون الحجر الأسود على يساره! ولكننا نفهم الآن بأن ذلك ليكون جميع الطائفين على نسق واحد مع كل ما خلقه الله من كائنات، يسبحون بقدرته، فيغدو المؤمن منسجما مع الكون يشارك الاشياء كلها تسبيحها لله رب العالمين: تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (الإسراء 44)، وجدير بنا بعد كل ما تقدم أن نلاحظ أيضا أن السعي بين الصفا والمروة هو سبع مرات، وإذا وصل الحاج إلى منى بدأ برمي جمرة العقبة، فيرميها بسبع حصيات، يكبر مع كل حصاة. وصدق الله حيث يقول سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (فُصِّلَتْ 53).

الحج والعبادة والإنسان

يحدثنا التاريخ أنه ما من أمة ولا ديانة لدى الأمم إلا ولديها أماكن مقدسة تُشَدُّ إليها الرحال، وتحث إليها الخطى، ولها طقوس وعادات وتقاليد وآداب لزيارة هذه الأماكن المقدسة، لذلك يقول تعالى: وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (الحج 34)، وقال أيضا: لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ ۚ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (الحج 67). وتقول الروايات أن الله سبحانه عندما أمر آدم وحواء بالهبوط من الجنة إلى الأرض، تركهما في أماكن مختلفة، وبدأ كل منهما يبحث عن الآخر إلى أن التقيا فوق جبل الرحمة في عرفات، ويقال أن اسم عرفة جاء من هذه الرواية حيث تعارفا من جديد وجمعتهما رحمة الله لتبدأ حياة الإنسان على الأرض، وعلَّم الله سبحانه آدم كيف يتوب من خطيئته، وهي الخطيئة الأولى عندما أكلا من الشجرة التي نهاهما الله عنها، ولكن رحمة الله الأزلية لم تتركهما: فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (البقرة 37)، ورغم أنني سأعود إلى هذا الموضوع بكثير من التفصيل في الفصل القادم ان شاء الله، لكنني

كعادتي لن أنتظر حتى ذلك الحين بل سأشير بشكل سريع إلى بعض النقاط التي أعتبرها بدون مبالغة من النقاط الاساسية في الإسلام، وذلك لارتباطها بمبادئ الحق والعدالة ومنها:

أوّلاً: أنه بخلاف ما يعتقده الكثيرون وما تشير إليه الكتب المقدسة، فإن القرآن لا يشير إلى أن حواء المرأة هي التي ارتكبت المعصية واقنعت آدم باتباعها، بل إن القرآن يشير بشكل واضح، ويستخدم أسلوب المثنى، إلى أن إبليس هو من أغراهما معا كما في الآيتين التاليتين: فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ (البقرة 36)، والثانية: فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (الأعراف 20).

ثانيا: أن الإسلام لا يعتبر بأن هناك خطيئة ازلية ارتكبها آدم ويتحمل مسؤوليتها ابناؤه من بعده! وذلك لسببين: الاول أن آدم أعلن توبته فتاب الله عليه كما في الآية التالية: فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (البقرة 37).

والسبب الثاني وهو الأهم، أن الإسلام يعتبر المسؤولية مسؤولية فردية لا جماعية، فالولد لا يؤخذ بذنب أبيه، ولا يُسألُ الابُ عن خطيئة بنيه، وهذا ما تؤكده آيات القرآن الكريم: أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ للإنسان إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ (النجم 38-41).

ونعود إلى حديثنا عن الحج، حيث يجيء المسلم مرة في العمر ليسير على خطى أبي البشر آدم عليه السلام، فيتذكر أن المعصية هي التي هبطت به إلى الأرض، وأن الطاعة هي التي ستعيده إلى ملكوت السماوات، ويدرك أن الخلاص والراحة والطمأنينة والسكينة ستعود إليه عندما يلتقي مع الآخر، كلقاء آدم وحواء، وأن ثمرة هذا اللقاء هي التعارف والتفاهم والتقارب والتبادل، ولذلك يقول الله عن الحج وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالحَجِّ يَأتُوكَ رِجَالاً وَعَلى كُلِّ ضَامِرٍ يَأتِين مِن كُلّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِّيَشهَدُوا مَنَافِعَ لَهُم وَيَذكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ (الحج 26-28)، وهنا نجد أن الله سبحانه ذكر المنافع قبل ذكر الله، هذه المنافع بعضها دينية تعبدية، وبعضها روحية تربوية، وأخرى اقتصادية وسياسية وأدبية واجتماعية، تتحقق كلها في موسم الحج، حيث ينعقد المؤتمر الكبير في عرفات، بما فيه من رمز لتوحيد كلمة المسلمين وتوجيههم إلى

تدارس المشكلات والأمور التي تواجه شعوبهم، وهم على قدم المساواة، يستوي فيهم الغني والفقير، الصغير والكبير والرجل والمرأة بلا تمييز أو تمايز لباسهم واحد، وحياتهم واحدة، وصلاتهم واحدة، تجمعهم راية الرحمن فيسمو الحجيج فوق المادة والحسب والنسب والمال والجاه، فتكون تلك مناسبة لاتحادهم ودعوة للسلام والتعاون بينهم، وكأنني اقرأ في الآية السابقة نداء المولى سبحانه يقول لنا: تعارفوا في الحج واجعلوا من هذه المناسبة مؤتمرا سنويا لتنظيم الندوات وتبادل الخبرات والتشاور في أمور الكون والطبيعة وكأننا ننظم "دافوس" و"كيوتا" و"الدوحة" وغيرها من الندوات العالمية حيث تسود روح المحبة والاخوة والتعاون، بدل التنافس والأنانية وحب السيطرة ومنطق القوة الذي يسود عالم اليوم ولذلك يقول سبحانه الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِي يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ (البقرة 197)، وهكذا يعلمنا الله سبحانه أن الحج هو تهذيب للنفوس لا مكان فيه لارتكاب الرذائل والمحرمات ولا فسوق ولا معصية ولا جدال، بل محبة وتعاون واحترام لتزداد النفوس إيمانا وطاعة وتقوى، وهكذا تسمو هذه الفريضة بالمسلم ليكون منسجماً مع روح الأدب الإسلامي، فتشده إلى الصراط المستقيم، تماما كالصوم كما جاء في الآية الكريمة يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (البقرة 183)، وكالصلاة كما في قوله سبحانه إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ (العنكبوت 45)، وكالزكاة كما في قوله تعالى وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (الأعراف 156)، وهذا تأكيد لما قلناه منذ البداية بان الحج فريضة جامعة لكل العبادات.

ومعا نتابع مسيرة الحياة الإنسانية، حيث أمر الله سبحانه نبيه إبراهيم، ابا الأنبياء، لحكمة أرادها، بأن يأتي بابنه إسماعيل وزوجته هاجر وأن يتركهما في هذه الأرض الطيبة الطاهرة، والتي كانت صحراء قاحلة، وعندما هم بمغادرتهما، سألته هاجر: آلله أمرك بهذا؟ قال نعم، وبنفس مؤمنة صابرة رائعة قالت: ما دام أن الله قد أمرك فلن يضيعنا.

ووقف نبي الله إبراهيم فوق التلال مودعاً، ونظر إلى السماء وابتهل إلى الله قائلاً: رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ المُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (إبراهيم 37).

وبعد فترة من الزمن، طال أو قصر، أحسَّ إسماعيل بالعطش وبدأ بالبكاء، وراحت هاجر تدير بصرها في جنبات الوادي لعلها تجد ما يرشدها إلى الماء، وابنها يبكي فتفجَّرت في قلبها إرادة الأمومة ورأت جبل الصفا أمامها فأَمِلَتْ أن تجد خلفه ماء، فركضت بعزم وأمل، وصراخ إسماعيل يدوّي في أذنيها والخوف يملأ قلبها فنظرت في الوادي فلم تر شيئا، ولم تكن هناك غير الرمال فعادت تركض نحو طفلها وهو ما يزال يبكي ويصرخ ويطلب الماء، ثم نظرت إلى جبل المروة وراحت تركض بأقصى سرعة والرمال تتطاير تحت قدميها ولكن لم تجد سوى السراب، وانقطع بكاء إسماعيل عندما غاب عن بصرها فعادت بسرعة، ورأته من بعيد يبكي ويبكي عطشا وخوفا لأنه لم يعد يرى أُمَّهُ أمامه، وراحت هاجر تعدو بين جبل الصفا وجبل المروة تبحث عن الماء وتنظر إلى السماء وتقول: يا رب!

وفي المرة السابعة عادت من جبل المروة ورأت ابنها قد انقطع بكاؤه فخافت أن يكون قد فارق الحياة، وبدأت تعدو بكل ما أُوتيت من قدرة فرأت من بعيد ابنها إسماعيل هادئاً يحرّك يديه وقدميه وقد تفجّر الماء تحت قدميه الصغيرتين، فرفعت رأسها إلى السماء وهي تبكي، فقد استجاب الله دعوتها وتدفق الماء من قلب الرمال فأسرعت لتصنع حوله حوضاً ليكون فيما بعد بئر زمزم، ومن هنا جاءت مناسك السعي بين الصفا والمروة كما في هذه الآية إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (البقرة 158).

يقول الله سبحانه وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (الطلاق 2-3)، ويقول أيضا وَأَن لو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (الجن 16)، وهكذا هي رحلة المؤمن نحو الأرض المقدسة، يتذكر فيها قصة آدم أبي البشر، ثم قصة هاجر وإسماعيل، ثم يتابع الرحلة مع عودة إبراهيم وقصته مع إسماعيل وبناء الكعبة المشرفة، ثم ولادة الرسول محمد في عام الفيل، ثم بعثته حاملا إلى البشرية آخر رسالة من السماء، وتبقى هذه الأرض الطيبة الطاهرة إلى الأبد صلة بين الأرض والسماء، وكأن الكون يبدأ في هذه الأماكن الطاهرة المقدسة وينتهي في نفس النقطة التي بدأ منها، فلنتابع رحلة الحجيج فلعلَّنا نفهم لماذا جعل الله هذه الفريضة إلى هذه الأرض الطاهرة المقدسة بالذات!

ونعود إلى نبي الله إبراهيم عليه السلام، فقد عاد بعد سنين طالت أو قصرت ليرى ما حل بزوجته وولده، فوجد أن البدو، يقال إنهم قبيلة جرهم، لما رأوا الماء سكنوا هذه الأرض واصبحت مدينة كبيرة اسمها مكة، ووجد ابنه وقد ترعرع فيها، ويقال إنه كان في الثالثة عشرة من عمره.

وكأن كل الامتحانات التي مر بها نبي الله إبراهيم لم تكن كافية، فها هو يجد نفسه أمام امتحان عسير آخر، فرأى في منامه وفي ليال متتالية أنه يذبح ابنه، فأدرك أن هذا أمر من الله، وأن هذا الامتحان ليس له وحده بل هو امتحان لولده أيضا، فقرر إبراهيم أن يأخذ رأي ابنه بهذا الأمر، فحدثه قائلاً قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذا تَرَى. ولكن إسماعيل كان نسخة طبق الأصل عن أبيه، وقد تعلم خلال فترة عمره القصيرة الصبر والثبات والإيمان، فأجاب بصدر واسع، وطيبة نفس وطاعة مطلقة لرب العالمين: قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ

ووجد الشيطان فرصة سانحة لفتنتهما، وكما حاول إغراء آدم وحواء وأخرجهما من الجنة، فقد بدأ بزرع بذور الفتنة لدى كل منهما، وبدأ باستغلال عاطفة الأُبُوةِ عند إبراهيم، وَحُبَّ الحياة عند إسماعيل فلعله ينجح في اقناع أحدهما برفض الامر الالاهي ومعصية الخالق كما فعل مع أبي البشر، لكن إبراهيم كان يرميه في كل مرة بسبع قطع من الحجارة، وتكرر ذلك ثلاث مرات، فيئس الشيطان من إغرائه إلى الأبد، ومن هنا أصبح رمي الجمرات من شعائر الحج، لكي يطرد الإنسان إبليس من حياته إلى الابد! ويتذكر قول الله سبحانه: إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً (فاطر 6).

ويروي لنا القرآن هذه القصة بشكل مختصر وبأسلوب رائع ومؤثر من خلال الآيات التالية: فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاء الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (الصافات 102-111).

لقد كان ثبات إبراهيم أمام هذا الامتحان الصعب، سببا في مدح الله له على مدى الزمن، وغدا أسوة حسنة لكل الأجيال، وقدوة لكل المؤمنين وأضحت أعماله سُنَّةً في الحج، خالدة حتى تقوم القيامة، وأمر الله نبيه ببناء الكعبة، وأغلب الظن أن الكعبة كانت موجودة من قبل فأعاد إبراهيم

وإسماعيل بناءها، ولعلنا ما زلنا نذكر أن إبراهيم عندما ترك زوجته وولده في المرة الأولى دعا ربه قائلاً رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ المُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (إبراهيم 37)، مما يدل على أن بيت الله الحرام كان هنالك من قبل، وقد جاء في آية ثانية إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (آل عمران 96-97)، والآية الكريمة تقول وُضِعَ للناس دون أن تذكر من وضعه، وتقول بعض الروايات أن الملائكة بنته لآدم عندما هبط من الجنة ليتخذه معبدا، ومهما يكن من أمر فإن الله كلف إبراهيم بإعادة بنائه كما جاء في الآية الكريمة: وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (الحج 26)، ثم يصور لنا القرآن بناء الكعبة وكأننا نرى ذلك بأم أعيننا: وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (البقرة 127-130).

وهكذا تمَّ بناء الكعبة المشرَّفة، واصبحت مقصدا للملايين كل عام، يأتون من كل فج عميق تلبية لدعاء أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام الذي قال عنه الله سبحانه: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (النحل 120)، وقال جل وعلا: وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (النساء 125).

يوم عرفة

في هذا اليوم الكريم، يوم عرَفَة يوم التلبية، يوم المغفرة، نتذكر حديث الرسول الكريم عندما قال "الحَجُّ عرفة"، فالوقوف بعرفة هو أحد الشعائر الرئيسية في الحج، وقد رأى أحد العلماء أن الناس كعادتهم في تجسيد كل حديث، قد جسدوا هذه المعاني أيضا، فظنوا أنهم بوقوفهم بأجسادهم ينطبق عليهم الحديث، الذي يَعِد بالمغفرة لمن وقف بعرفة، ولمن صام عرفة، فظنوا أنهم بأدائهم

لهذا الشكل ينطبق عليهم القول، ناسين أو متناسين بأن الحديث إنما ينطبق على من عرَف عرفة معرفة حقيقية، وقام عرفة قياما خالصا وصام عرفة صياما صادقا.

إن الوقوف بعرفة يبدأ بالصعود، وهو يرمز إلى العروج، والارتفاع والسمو والمعرفة، وكأنما يُحضِّر المؤمنُ نفسه ليوم الحشر والصعود إلى السماء كما جاء في هذه الآية يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (الانشقاق 6)، في هذا اليوم بعد أن يكون الحاج قد أحرَم وطاف وسعى وأعدَّ نفسه لتلبية ربه، ولقاء ربه، يرقى المؤمن بنفسه إلى العلا، فيرتفع ويترفع عن كل ما هو أدنى، فيترك الدنيا خلفه ليستقبل الآخرة، ولا ينفك لسانه طوال هذا اليوم المبارك عن ذكر الله وتلبية نداء الله، ويُعدُّ نفسه ليتلقى رحمة الله ونفحات الله، فيدخل في تلك الفئة التي يصبح حجها مبرورا، كما جاء في حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم: "العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة".

في هذا اليوم المبارك وفي حجة الوداع نزلت آخر آية من القرآن الكريم وفيها يقول المولى جَلَّ وعلا: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِيناً (المائدة 3)، هنالك إذا، وفوق جبل الرحمة، يجد المؤمن زاده، ويستمد قوة روحية تعلو به إلى السماء، فإذا أفاض من عرفات فإنه يصبح إنسانا جديدا، وقد رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه، ورجع إلى فطرته التي فطره الله عليها، فإذا به بهذه القوة وهذا الزاد وهذا الصفاء والنقاء، يدرك حقيقة وجوده وسر رسالته، فيقرر أن يجابه الظلام والباطل ليدخل في درب النور، ويعبّر عن هذه المعاني كلها برجم الشيطان عدوه الازلي، مكتسبا بذلك قوة روحية جديدة تمكنه من مواصلة السير على الصراط المستقيم ويعود إلى مساره الصحيح وخط سيره القويم، وهذا ما وعد الله به عباده بقوله: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقرة 257).

إنَّ مَنْ حجَّ دون أن يعيش الحج بهذا الشكل وهذا المعنى فقد حج بالمعنى الظاهري، وكان حجه صوريا وشكليا، ونحن نعرف أن القضية ليست قضية صور وأشكال، وإنما قضية قيام وقيم ورموز، لا بد أن تتحول إلى واقع في حياتنا وفي سلوكنا وفي معاملاتنا، حتى ينطبق القول علينا ويصبح حجنا مبرورا، فالحج بقيامه الحقيقي هو الذي يغفر الذنوب وهو الذي يحرّم جسد الإنسان على النار، ولكن فهم الاحاديث بحروفها وكلماتها وتحويل معانيها إلى الشكل هو فهم خاطئ لمعنى

الدين ولأحاديث الدين ولآيات الدين، فرُبَّ حاجٍّ يقف كل عام في عرفة بجسده، وما وقف بعرفة وما عرف عرفة وما قام بعرفة، ورُبَّ إنسان لم يتمكن أن يقف بعرفة بجسده، لكنه يقف بعرفة في كل يوم، بسلوكه وصدقه وإيمانه!

إن الحج هو مناسبة فريدة لنتفهم ديننا، ولنتأمل ونتدبر معنى وجودنا ورسالتنا، ولنصحح مسارنا ودربنا وطريقنا لنعود إلى الصراط المستقيم، فنكون لربنا ملبّين، ولوجهه قاصدين، ولعفوه ومغفرته ورحمته سائلين، وبيوم عرفة قائمين، فنعود إلى حياتنا الطبيعية كيوم ولدتنا أمهاتنا، وهذا هو الحج المبرور الذي ليس له جزاء الا الجنة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن رجلا من اليهود قال: يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرؤونها، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا. قال: أي آية؟ قال: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسلام دِينًا، قال عمر رضي الله عنه: قد عرفنا ذلك اليوم الذي نزلت فيه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو قائم بعرفة يوم الجمعة.

عيد الاضحى

إن الحديث عن الحج، ومعاني الحج، وأخلاق الحج، وفضائل الحج، وآداب الحج، ومنافع الحج هي مواضيع تحتاج إلى كتب كثيرة، وليس بإمكاننا الحديث عنها أكثر أو الدخول في تفاصيلها لكيلا يخرج كتابنا عن الخط الذي رسمناه وليبقى متسع لمعالجة ما تبقى من مواضيع وهي كثيرة، ومع ذلك فإنني سأختم هذا الفصل بالتذكير باركان الحج وهي:

- النية، فكل عمل يجب أن يكون مقصودا وليس مجرد صدفة.
- الإحرام عند حدود الميقات.
- دخول مكة بعد الاستحمام أو الوضوء.
- دخول الحرم وطواف الكعبة بالطريقة المقررة.
- السعي بعد الطواف بين الصفا والمروة.

- التوجه إلى منى بعد طواف القدوم في الثامن من ذي الحجة.
- التوجه إلى عرفات في التاسع من ذي الحجة.
- التوجه إلى المزدلفة ليلة العاشر من ذي الحجة.
- الذهاب إلى منى في العاشر من ذي الحجة ورمي الجمرات "جمرة العقبة".
- نحر الأضاحي وحلق الرأس.
- الذهاب إلى مكة لطواف الزيارة في العاشر من ذي الحجة بعد حلق الرأس والعودة إلى منى، وكذلك السعي بين الصفا والمروة لمن فاته السعي في الثامن من ذي الحجة.
- القيام بمنى في الحادي عشر والثاني عشر من ذي الحجة ورمي الجمرات الثلاث بالترتيب.

وبذلك يكون قد اكتمل حجك، ويمكنك العودة إلى مكة والطواف حول الكعبة والارتواء من ماء زمزم لشكر الله تعالى على هذه النعمة.

خاتمة لفصل العبادات

بالرغم من أن المساجد تملأ المدن في أيامنا هذه، وتعج بالمصلين، ولكنها، من سوء الحظ، تفتقد العابدين، لذلك فإننا نرى كثيرا من المسلمين قد اكتفوا بظواهر الآيات ولم يتعمقوا في فهم القرآن وآيات البيان، فضلّوا في فهم العلاقة مع الله، وهي العبادات، ولم ينتبهوا إلى أن توحيد الله هو نقطة البداية للصلة به، ومن هذه النقطة تبدأ الاستقامة أو الانحراف، فمن وَحَّدَ الله حق توحيده، قدّره حق قدره، فعرفه عن علم، وعبده عن فهم، ولم تلتبس عليه معاني الدين بمعاني الدنيا، وإن كانت الحروف واحدة، ولست أَدرِي هل هي رحمة من الله بنا، أم ابتلاء لنا، أن جعل هذا التشابه بين الكلمتين، رغم الفارق الكبير بينهما، وكأن المراد من هذا التشابه أن نفهم أنه في طلب الدنيا يكون الابتعاد عن الدين! وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة: مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (هود 15–16)، وكذلك قوله تعالى: مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا * كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (الإسراء 18–20).

ومن نتائج هذا الفهم الشكلي للعبادات، أن الناس أصبحوا يتعاملون مع الله كمعاملة بعضهم بعضا، وغدت النفوس تخاف الله كما تخاف من الحكام والأقوياء، مع أن الخوف من المخلوق يقتضي البعد عنه والبغض له، أما الخوف من الله فإنه يقرب إليه ولا يبعد عنه، ويدخل الحبّ والرضى والسكينة والاطمئنان إلى القلب.

وهكذا نرى في سلوك كثير من المسلمين أن العبادة اصبحت كعملية تجارية بين طرفين، مبنية على المصالح والمقايضة، وكأنها تعطيه لتأخذ منه، ومن غريب الأمور أن البعض يستشهد على ذلك بآيات من القرآن مثل قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (الصف 10)، أو إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ (التوبة 111)، ثم أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُواْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ (البقرة 16).

لقد ظنوا، حسب فهمهم الظاهر لهذه الآيات، أن عبادة الله تجارة وبيع ومقايضة، ولكنهم لم يقرؤوا ولم يتدبروا قول الله سبحانه: إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (البقرة 26)، فالله سبحانه يضرب الأمثال بالأمور المحسوسة التي يدركها الناس جميعا ليدلهم بها إلى المعاني العُلويّة التي لا يدركها إلا العارفون.

وهكذا يقود الخطأ في فهم العبادة إلى الخطأ في فهم آثارها ومعانيها، مما يؤدي إلى الحرمان من آثارها ومعانيها، وما مَسَخَ العبادات عندنا وصيرها عديمة التأثير، إلا تفسيرها بمعاني الدنيا، فذهبت آثار العبادات وبقيت صُوَرُها: فلم تنهَ الصلاةُ عن الفحشاء والمنكر، ولم تقِ الزكاةُ النفوسَ من الشُّحّ والبُخل، ولم تُحلّ مشكلة الفقر، ولم يُهَذِّب الصومُ النفوس، ولم يكفكف من ضراوتها، ولم يزرع فيها الرحمة، ولم يؤدِّ الحجُّ دوره في التعارف والتبادل والوحدة، فضاعت أركان الإسلام ولم يبق منها سوى الاسم فعم الجهل والضلال كما جاء في الآية الكريمة: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (الكهف 103-104).

إن العبادات إن لم تكن معينة للمسلم على التقوى وزيادة الإيمان فإنها تصبح عادات، وعندئذ يصبح المسلم كأهل النفاق، الذين يصلون ويركعون ويحجون ومع ذلك لا يُكتب لهم في رصيد الدرجات حسنات، بل معاصٍ وسيئات، وسبب ذلك أن تلك العبادات لم تخالط القلوب، فصيَّرتهم كما نرى الكثيرين منهم: صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (البقرة 171)، أو كما جاء في الآية التالية: وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (الفرقان 23).

من هنا نجد أن علينا أن نعود إلى القرآن الكريم، لنفهم العبادات كما أرادها الله سبحانه وكما شرحها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم نعمل على دراستها لنكتشف بعضا مما فيها من

حكمة الله ورحمته، وكلنا ثقة وايمان بأن الله سبحانه لم يشرعها لنا لحاجة له فيها وإنما لتكون، كما كررنا في كل مناسبة، أداة تأخذ بنا نحو الخير والنجاة كما يقول الله سبحانه: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إلى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيد (فاطر 15).

وكما جاء في الحديث عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ انْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَعَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا إلى عِلْمِنَا).

الفصل الثالث
أهل الكتاب

يقول الله سبحانه: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُون (البقرة 62).

تؤكد هذه الآية الكريمة أن الإيمان المرتبط بالتوحيد، هو المعيار الرباني الذي يُحاسَبُ الناسُ جميعاً على أساسه، وأن من يتخذ دينا لا يُبنى على التوحيد فلن يُقبلَ منه، وهذا هو المقصود بكلمة الإسلام كما جاء في هذه الآية الكريمة: وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينْ.

موقف الإسلام من اليهودية والمسيحية

أعلن الرسول الكريم منذ بعثته، كما أمره الله في القرآن، أنه جاء ليكمل الشرائع السماوية السابقة، وأكد في كل المناسبات إيمانه بأنبياء الله السابقين واعتبرهم إخوة له في الرسالة، وذكّر اليهود والنصارى بما جاء على لسان موسى وعيسى، وأشاد بما جاء في التوراة والإنجيل، بل وأطلق عليهم لقب "أهل الكتاب"، مبينا بأن القرآن الكريم ينبع من نفس المصدر، وأنه كالتوراة والإنجيل تنزيل من رب العالمين، الاله الواحد الذي يؤمنون به والذي يشكل القاسم المشترك بين الشرائع الثلاث، وكثيرا ما نجد أن القرآن يربط بين ما أُنزل على محمد وبين الكتب السماوية ليذكّرنا دوما بأنها كلها من عند الله سبحانه كما في هذه الآية: "نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيل"، فالقرآن جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل ومكملا لها كما ذكرنا في أكثر من موضع.

ولنضَعْ نُصْبَ أعيننا بأن آيات القرآن الكريم لا تدع مناسبة إلا وتذكرنا بروعة التنزيل، ومصدره السماوي الواحد، وما في الكتب السماوية السابقة، التوراة والإنجيل، من هدى ونور وأن القرآن انما جاء مصدقا ومكملا لها ليختتم رسالات الله إلى البشرية، ومنها:

وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ، إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (المائدة 43–44).

وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ، وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إلى اللَّه مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ، وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (المائدة 47–49).

لكل ذلك كان الرسول يأمل أن يجد من أهل الكتاب القبول والاستجابة، وقد أرشد الله سبحانه نبيه إلى طريقة الحوار معهم، حيث نجد ذلك واضحا في آيات القرآن الكريم، ومنها أنه عندما جاء وفد من نصارى نجران إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أنزل الله هذه الآية التي تُعتبر الطريقة المثلى في حوار الحضارات، بل في أي حوار، فقد طلب الله من نبيه أن يبدأ بالقاسم المشترك الذي يتفق عليه الجميع، والذي هو في نفس الوقت النقطة الأهم في ذلك الحوار، أي أن أي حوار ناجح يجب أن يبدأ بنقاط الاتفاق وليس بنقاط الاختلاف لكي يكون له حظ من النجاح، فقال في سورة آل عمران: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إلى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُون (آل عمران 64)، وفي سورة العنكبوت يقول سبحانه: وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون (العنكبوت 46).

إن هذه الآية الكريمة تترجم بشكل خاطئ أو غير دقيق كما في الترجمة الفرنسية:

"Notre dieu et le vôtre est unique"

في حين أن المقصود هو:

"Notre dieu et le vôtre est le même"

ولا يخفى على أحد الفرق بين الترجمتين، حيث ما زال يعتقد الكثيرون بأن الله في الإسلام هو إله آخر، في حين أن الآية واضحة إذ تقول لليهود والنصارى إننا نؤمن بنفس الاله الذي تؤمنون به، وإن كان اسمه بالفرنسية "Dieu" وبالإنكليزية "God" وبالعربية "الله"، ولهذا جاء في آية أخرى: قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى.

كانت تلك نظرة سريعة وموجزة عن علاقة الإسلام مع أهل الكتاب، وهي دون شك علاقة تودد واحترام، وسنقوم باستعراض العلاقة بين الإسلام واليهودية والمسيحية كلا على حدة، لنبين نقاط الاتفاق ونقاط الخلاف، ليس من أجل تعميقها بل من أجل إيضاحها، ولنبيّن أن ما يجمع المؤمنين جميعاً، هو أكثر مما يفرقهم، أو على الاقل هكذا يجب أن يكون، وكلي أمل أن أُوفَّقَ في هذه المهمة رغم صعوبتها، نتيجة الظروف الراهنة التي تعيشها المجتمعات وما تمر به من أزمات.

موقف الإسلام من اليهودية

عندما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة، كان يسكنها الأوس والخزرج، وهم الأنصار، وكذلك المهاجرون الذين قدموا إليها من مكة المكرمة، إضافة إلى اليهود، فبدأ فور وصوله صلى الله عليه وسلم بوضع الأسس التي تنظم المجتمع الجديد، فآخى بين المهاجرين والأنصار، وقام بإصدار وثيقة، نظم بموجبها العلاقات بين المجتمع الجديد وبين الجماعات البشرية التي تعايشت معه في المدينة، وبخاصة اليهود، ومما جاء فيها:

البند الأول "يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم".

البند الثاني: "وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإنَّ بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإنَّ بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وإنَّه لم يأثم امرؤ بحليفه وإنَّ النصر للمظلوم"

البند الثالث: "وإن اليهود يُنفِقون مع المؤمنين ما داموا محاربين"، أي أنه في وقت الحرب يتغير هذا الأمر، فإذا حدث اعتداء على المدينة المنورة فالجميع – بحق المواطنة – يدافع عنها، وأن بينهم النصر على من دَهَمَ يثرب، ما داموا يعيشون معًا في بلد واحد، فعليهم التعاون في الدفاع عن البلد لو حدث غزو خارجي.

لقد أقرّت هذه المعاهدة مفهوم الحرية الدينية بأوسع معانيها، وكان موقف الرسول ينبع من اعتقادٍ كامل بأنَّ اليهود، باعتبارهم أهل كتاب، سيتجاوبون مع الدعوة الجديدة ويقومون بدعمها في لحظات الخطر والصراع ضدّ العدو الوثني المشترك، كما أكدت عليه بنود الصحيفة، أو أنَّهم في أسوأ الحالات، سَيَكُفّون أيديهم عن إثارة المشاكل ووضع العراقيل في طريق الدعوة وهي تبني دولتها الجديدة، وتصارع قوى الوثنية التي تتربص بها خارج المدينة.

لكن الذي حدث بعد قليل من إصدار الوثيقة، أن قام اليهود بالتحالف مع قريش خلال حصار المدينة في غزوة الخندق، مما غيّر مجرى العلاقات بين المسلمين واليهود، وجمّد البنود المتعلّقة بهم، لا لشيء إلاَّ لأنَّهم اختاروا عدم الوفاء، وعدم الالتزام بهذه المعاهدة، فكانت النتيجة إعلانا للحرب والقتال.

وتجدر الإشارة، قبل أن نبدأ حديثنا، إلى حقيقة واضحة أنه ليس هناك من خلافات عقائدية هامة بين الإسلام واليهودية، بل كان الخلاف الأساسي، خلافا نابعا عن مواقف سياسية أكثر منها دينية، بدأت بالتعايش ثم بالجدال وأخيرا بالحروب والاقتتال، ولعلنا نلمس ذلك جليا في الآيات القرآنية التالية، كما في قوله تعالى: إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّه.

وقوله أيضا: ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُون.

ونلاحظ بشكل واضح هنا وصف القرآن للتوراة: تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وهذا ما حاولنا أن نردده دائما، بأن كل شريعة في وقتها هي في منتهى الكمال، كيف

لا وهي تنزيلٌ من رب العالمين!

كذلك فإننا نجد كثيرا من قصص الأنبياء في القرآن الكريم وهي تشابه في إطارها العام ما جاء في العهد القديم، مع تخليصها مما أصابها من شوائب وخيالات، ووضعها في إطارها الصحيح بشكل مُنقَّح وجديد.

وسنستعرض مكانة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وقصة الذبح لنقارن بين رأي اليهودية والإسلام بهما، كمثال للخلافات والفوارق، ثم نبين القاسم المشترك الأهم، وهو عامل التوحيد الذي يعتبر دون أدنى شك، من أهم عوامل الاتفاق بين اليهودية والإسلام.

ولنقرأ ما جاء في العهد القديم: اِسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ: الرَّبُّ إِلهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ * فَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ قُوَّتِكَ (سفر التثنية 6: 4-5).

وما جاء في القرآن: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (آل عمران 64-68).

تحدثنا في أماكن كثيرة عن أسلوب القرآن، وعن حوار الإسلام، وعن موقف الرسول منذ بداية بعثته في طريقة الحوار مع أهل الكتاب، وكيف حاول استمالة قلوبهم ودعوتهم إمّا إلى اتباعه بوصفه النبي المكمل لرسالة أنبيائهم، أو على الأقل للتأكيد على وحدانية الله سبحانه.

لهذا جاءت هذه الآية وفيها تأكيد على القاسم المشترك وهو التوحيد، ثم تحدثت عن الرسول المشترك وهو أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، مذكرة أن إبراهيم، خلافا لما يقوله اليهود، لم يكن في ديانته لا يهوديا ولا نصرانيا مسيحيا، وذلك لسبب بسيط وواضح هو أنه عاش قبل نزول التوراة والإنجيل، فاليهودية بدأت مع نزول التوراة، كما كان الإنجيل نقطة البداية بالنسبة للمسيحية.

قصة الذبح

تتفق اليهودية والمسيحية والإسلام بأن إبراهيم عليه السلام كان متزوجا من سارة وكانت امرأته عاقرا.

كما تتفق الشرائع الثلاث على أن الله وهبه إسماعيل أولا ثم إسحاق من بعده، وأن إسماعيل هو ولد هاجر وأن إسحاق هو ولد سارة.

وقد أشار القرآن إلى ذلك في الآية التالية: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (إبراهيم 39).

لكن الاختلاف يكمن في تحديد أيٍّ من ابني إبراهيم الذى أوشك على ذبحه، إذ يقول اليهود والنصارى، بأنه اسحاق ويقول المسلمون بأنه إسماعيل، وقد روت لنا آيات القرآن الكريم هذه الحادثة كما يلي: فَلَمَّا بلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاء الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ، وهنا نجد أن الله سبحانه قد بشره بإسحاق بعد هذه الحادثة مما يدل بأن اسحاق ولد فيما بعد.

إبراهيم وذريته

يقول اليهود بأن إبراهيم عليه السلام كان يهوديا، وقد ذكرنا أعلاه قول الله سبحانه: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (آل عمران 64-67).، فالقرآن يذكر ويؤكد بأن اليهودية ولدت مع نزول التوراة على موسى عليه السلام، وأن المسيحية تبدأ مع نزول الإنجيل على عيسى عليه السلام، لذلك فالأنبياء قبل موسى ليسوا يهودا ولا نصارى وهذا ما تشرحه الآية التالية: أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ

نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (البقرة 140).

ولا بد أن نشير أخيرا إلا أنَّ القرآن الكريم يروي قصص الأنبياء بلغة التقدير والاحترام والمديح لكل الأنبياء عليهم السلام، وسنستعرض بعضا من هذه الآيات.

إبراهيم عليه السلام: وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (مريم 41)، وكذلك: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأوَّاهٌ حَلِيمٌ (التوبة 114)، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (النحل 120)، وغيرها من الآيات الكثيرة.

نوح عليه السلام: ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (الإسراء 3)، وعن أيوب: إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ (ص 44)، وعن داوود: وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (ص 20).

ولا بد أن نشير أخيرا إلى أن موسى عليه السلام هو أكثر الأنبياء ذكرا في القرآن، حيث نجد ذكره في حوالي مئة موضع، وفيها سيرة حياته منذ ولادته، والقائه في البحر، وتبنيه من قبل الفرعون، ثم هروبه إلى أرض مدين، وعودته إلى مصر حاملا رسالته إلى فرعون، بعد أن كلمه الله عند جبل الطور في صحراء سيناء، ثم خروجه مع بني اسرائيل ومطاردة الفرعون لهم بجيشه، إلى معجزة عبور البحر وغرق الفرعون ونجاة موسى وقومه... إلى آخر القصص عن حياة موسى الكليم وصعوده جبل الطور لملاقاة ربه، وكيف أنزل الله عليه الألواح والوصايا العشر.

إن هذا يدل دون ادنى شك، على أن رسالة الإسلام الواضحة والثابتة تؤكد على وحدة المصدر للرسالات الثلاث، وعلى وحدة الأنبياء ووحدة الدين ووحدة الهدف الذي يتقاسمه الجميع وهو الإيمان بالله الواحد الاحد وهذا ما نجده في الآية التالية قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُون (آل عمران 64).

موقف الإسلام من المسيحية

لم يكن في الجزيرة العربية عند بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم جماعات أو قبائل من المسيحيين، بل بعض الافراد ليس أكثر، في حين أن النصارى من العرب كانوا يعيشون في بلاد الشام وعلى أطراف البادية، ولذلك كان احتكاك المسلمين معهم قليلا، ولعل أول احتكاك بين الرسول والنصارى كان لدى لقائه الراهب "بحيرى"، عندما سافر بتجارة خديجة إلى الشام، وتقول كتب السيرة النبوية إن الراهب بحيرى تحدث إليه وسأله عن اشياء كثيرة، وأخبره أنه النبي المنتظر كما هو وارد في الإنجيل، حيث بشر المسيح عليه السلام بنبي يأتي من بعده، وهذا ما تؤكده الآية الكريمة: وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ (الصف 6).

ثم جاءت بعثة الرسول، وبدأ افراد من مكة يدخلون في دين الإسلام، وبدأت قريش باضطهادهم وتعذيبهم، فطلب الرسول من أتباعه أن يهاجروا إلى الحبشة "اثيوبيا"، وكانت مسيحية يحكمها ملك اسمه "النجاشي"، وخاطب الرسول المهاجرين بقوله: "اذهبوا إلى الحبشة فإن فيها ملكاً عادلاً لا يُظلم عنده أحد"، وهاجر المسلمون رجالا ونساء وأطفالا وبلغ عددهم حوالي ثمانين فردا، وأرادت قريش وقف الهجرة واستعادة من هاجروا، فأرسلت وفدا بقيادة عمرو بن العاص لجلبهم، وحملوا معهم الكثير من الهدايا للنجاشي وطلبوا منه تسليمهم، لكن النجاشي لم يشأ ان يتخذ قراره إلا بعد الاستماع للمهاجرين.

وقد جاء في رواية أن النجاشي قال لهم: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم؟ ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من الملل؟ فقالوا له: أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله لنا رسولا كما بعث الرسل إلى من قبلنا، وذلك الرسول منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله تعالى لنوحِّده ونعبده، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا أن نعبد الله تعالى وحده، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الأرحام، وحسن الجوار، والكفِّ عن المحارم وسفك الدماء، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، فصدَّقناه وآمنَّا به، واتبعناه على ما جاء به، فعدا علينا قومنا ليردُّونا إلى عبادة الأصنام، واستحلال الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورجونا ألا نظلم عندك، أيها الملك.

فقال النجاشي لجعفر: هل عندك مما جاء به رسولكم شيء؟

فقال جعفر: نعم:

قال له النجاشي: فاقرأ عليّ.

فقرأ عليه جعفر صدراً من سورة مريم.

فقال النجاشي: ما زاد هذا على ما في الإنجيل إلا هذا العود، وأشار بعود كان في يده أخذه من الأرض، ثم دعا بعمرو بن العاص وصاحبه وقال لهما: انطلقا، فو الله لا أسلمهم إليكما أبداً، ولو أعطيتموني جبلا من ذهب، فكانت هذه الحادثة هي أول عملية لجوء سياسي في التاريخ!

ولما انتصر المسلمون واستعادوا مكة، كتب الرسول إلى ملوك الروم والفرس وإلى النجاشي يدعوهم إلى الإسلام، وقد أرسل النجاشي هدايا إلى الرسول، وتقول الروايات أنه لما بلغ رسول الله نبأ وفاة النجاشي صلى عليه.

هذه الرواية تشير إلى أن بداية العلاقة مع المسيحية كانت ودية ومنفتحة وواعدة، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة: وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ * فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (المائدة 82–85).

ولعل القارئ سيندهش عندما سيقرأ ما يقوله القرآن الكريم عن المسيح وعن أمه العذراء مريم عليهما السلام، وكلنا يعلم بأن الإنجيل لم يتحدث ولو بشيء بسيط عن السيدة مريم العذراء مقارنة بما جاء في القرآن الكريم، بل إن القرآن يتحدث عن المسيح أكثر مما يتحدث عن الرسول محمد، حامل رسالة الإسلام للناس أجمعين!

إن حديث القرآن عن المسيح فيه من المحبة والتقدير والاحترام أكثر مما يتصوره الكثيرون، وما يجهله بعض المسيحيين، فرواسب التاريخ والصراعات والحروب أنشأت حاجزا بين المسلمين والمسيحيين، وعملت على نشر الكثير من الأحكام المسبقة والآراء المتوارثة، ولم يقم أي من

الطرفين بدراستها للتأكد منها، بل غدت مسلمات تتناقلها الأجيال دون أن تكلف نفسها عناء البحث لتتأكد من صحتها!

ولأن الإنسان عدو ما يجهل، فقد احببت بهذه المناسبة أن أتحدث عن هذا الموضوع وبشيء من التفصيل، آملا أن أساهم في خلق ظروف أفضل للفهم والتفاهم، أو على الأقل في تسهيل الحوار وخاصة في المجتمعات التي نعيش فيها والتي تسود فيها حرية التعبير، وحرية الرأي والاعتقاد.

آل عمران

تبدأ قصة المسيح عليه السلام بالحديث عن نسبه الشريف فهو عيسى بن مريم بنت عمران، ويبدأ القرآن بالحديث عن هذا الأصل الطاهر وعن ميلاد السيدة العذراء كما في الآيات التالية: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (آل عمران 33-37)، وهكذا نشأت السيدة مريم في بيت المقدس، فتكفلها رب العالمين، ورعتها الملائكة، وأشرف على تربيتها زوج خالتها نبي الله زكريا، وقد رزقه الله ابناً اسمه يحيى "يوحنا المعمدان"، والذي هو ابن خالة المسيح عليهم السلام.

وكبرت مريم، وجاءت الملائكة تبشرها بأن الله سبحانه قد اختارها لمهمة عظيمة، ولدور فريد، ولكنه ليس سهلاً على الاطلاق كما في هذه الآية: وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (آل عمران 43)، وفي هذه الآية أيضا: إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ

الصَّالِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إذا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (آل عمران 45–47).

وجاءت ساعة الحقيقة، فأرسل الله سبحانه الروح القدس، جبريل عليه السلام، لإبلاغها بأن الله يبشرها بولد هو المسيح عليه السلام، ولن أروي التفاصيل، لأن القرآن قد حدثنا عن ذلك في سورة مريم، فلنستمع إلى هذه القصة كما ترويها الآيات التالية:

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إلى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا * فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا * فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إذا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ * أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرض وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (مريم 16–40).

وهكذا وُلِدَ السيدُ المسيح عليه السلام، ولأن ولادته جاءت بمعجزة من رب العالمين، ولأنه تكلم في المهد فقد نشأ عن ذلك أول خلاف بين الإسلام والمسيحية حول طبيعة المسيح عليه السلام كما سنشرح ذلك فيما بعد.

ويتابع القرآن الكريم سيرة المسيح عليه السلام، فقد بعثه الله نبيا لبني اسرائيل وأيده بالمعجزات، وأنزل عليه الإنجيل وسنستعرض بعضا من الآيات الكثيرة التي تحدثنا عن ذلك:

وَرَسُولًا إِلىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (آل عمران 49).

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (المائدة 110-111).

وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (المائدة 46).

وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ * فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (المائدة 50-52).

ولا بد أن نشير قبل الحديث عن نقاط الخلاف والاتفاق بين الإسلام والمسيحية إلى أن في القرآن ثلاث سور تأخذ اسماءها من المسيحية وهي: سورة آل عمران، سورة المائدة وسورة مريم، ولكي يكون الموضوع كاملا فسنختمه بالآيات التي تتحدث عن العشاء الاخير والمائدة التي أنزلها الله من السماء:

إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا

وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (المائدة 112-115).

نقاط الاتفاق بين المسيحية والإسلام

تتفق المسيحية والإسلام في رواية السيدة العذراء، وإن كان ذكرها في الكتاب المقدس يكاد يكون معدوما، في حين أن لها مكانة عظيمة في الإسلام كما تؤكده هذه الآية: وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (آل عمران 42)، كما يتفق الطرفان على ولادة المسيح من مريم دون أب، ويتفقان أن المسيح هو كلمة الله ألقاها إلى مريم، وأنه من روح الله، كما يتفقون على معجزات المسيح: فقد تحدث في المهد، وكان يشفي المرضى ويبرئ الأكمه والأبرص، كما أنه أحيا الموتى، وأن الله تعالى رفعه إلى السماء... إلى آخر المعجزات التي وردت في القرآن والإنجيل.

وقد يتساءل البعض ما هو الخلاف إذاً؟ بعد كل ما ذكرنا من نقاط مشتركة، والتي تبدو أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة، بل ربما لا نجد مسيحيا واحدا يعرف أو يصدق أن هذا هو موقف الإسلام من المسيح وأمه عليهما السلام!

وقبل أن أتحدث عن نقاط الاختلاف وبالتفصيل حيث سنجد الاجابة عن هذه التساؤلات، أحب أن اشير منذ الآن بأن الخلاف ليس في الوقائع التي ذكرناها، وانما في تفسيرها وفهمها ومغزاها!

نقاط الخلاف بين المسيحية والإسلام

لا أشك في أن كثيرا ممن يعنيهم هذا الموضوع من المسيحيين، لن يوافقوني الرأي فيما سأشرحه عن نقاط الاختلاف، وهذا أمر طبيعي في أي حوار، وكلي أمل أن لا يُساء فهم هذه الطروحات، لأنها خلافات موجودة، وأن تجاهلها لا يفيد في شيء، ولا يؤدي إلى إزالة حواجز الريبة والشك القائمة بين الطرفين، في حين أن عرضها ومناقشتها إذا تم بلباقة واحترام ودون تهجم أو اقتتال، فإنه سيزيل حواجز الخوف والتعصب، حتى وإن ظل كل منهما على موقفه وقناعاته، وذلك

لأن الهدف من الحوار ليس بالضرورة تغيير رأي الآخر ولا الانتقاص منه، وانما فتح الطريق نحو علاقة أكثر صدقا وإخلاصا ومحبة، وقد أشرنا من قبل إلى أن الله سبحانه قد بين لنا أصول الحوار وطريقة التعامل مع اهل الكتاب بقوله: وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون (العنكبوت 46).

الوهية المسيح

يعتقد المسيحيون بأن عيسى عليه السلام، بفعل ولادته غير الطبيعية وبسبب معجزاته الكثيرة، فإنه ليس إنسانا كسائر البشر، بل هو ابن الله.

وسنحاول قراءة بعض نصوص الكتاب المقدس، فلعل دراستها والتأمل فيها، قد يساعدنا على فهم هذا الموضوع بشكل نوفق فيه بين هذه النصوص وما جاء في القرآن والعهد القديم من تأكيد على وحدانية الله سبحانه، وهذا ما تحاول المسيحية أن تقوله، ولكن بطريقة خاصة كما في هذه العبارة: "بسم الآب والابن والروح القدس إله واحد آمين"، مما يجعلها واحدة من الشرائع التوحيدية Monothéisme.

وسنبدأ بهذا النص كما جاء في انجيل مرقص: "وتقدم إليه واحد من الكتبة كان قد سمعهم يتجادلون، ورأى أنه أحسن الرد عليهم، فسأله: "أية وصية هي أولى الوصايا جميعاً؟" فأجابه يسوع: "أولى الوصايا جميعاً هي اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا رب واحد، فأحبّ الربّ إلهك بكل قلبك، وبكل نفسك، وبكل فكرك، وبكل قوتك، هذه هي الوصية الأولى، وهناك ثانية مثلها، وهي: أن تحب قريبك كنفسك، فما من وصية أخرى أعظم من هاتين". فقال له: "صحيح يا معلم! حسب الحق تكلمت، فإن الله واحد، وليس آخر سواه، ومحبته بكل القلب، وبكل الفهم، وبكل القوة، ومحبة القريب كالنفس، أفضل من جميع المخلوقات والذبائح! فلما رأى يسوع أنه أجاب بحكمة، قال له: "لستَ بعيداً عن ملكوت الله!" ولم يجرؤ أحد بعد ذلك أن يوجه إليه أي سؤال (مرقص 12/28-35).

ولو تأملنا أكثر من نص فإننا سنجد أن استخدام كلمة "أب" تعني العلاقة الروحية وليست بالضرورة علاقة النسب، وقد تكرر استعمال لفظ الأب في الأناجيل بمعنى المربي والرحمن، وهي

نسبة تحبب إلى الله، وتقرب منه، وليست مطلقاً نسبة بنوة أو نسب، وهذه جملة من نصوص الكتاب المقدس:

قول عيسى عليه السلام: "وصلّوا من أجل الذين يسيئون إليكم، ويضطهدونكم لتكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات" (متّى 6/34).

وقوله أيضا: "فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم السماوي كامل" (متّى 6/34).

وقوله أيضا: "أما أنت فعندما تتصدق على أحد فلا تدع يدك اليسرى تعرف ما تفعل اليمنى لتكون صدقتك في الخفاء، وأبوك السماوي الذي يرى في الخفاء هو يكافئك".

وقوله أيضا: "أما أنت فعندما تصلي فادخل غرفتك وأغلق الباب، وصلِّ إلى أبيك الذي في الخفاء، وأبوك الذي يرى في الخفاء هو يكافئك".

وقوله أيضا عليه السلام، فصلوا أنتم الصلاة: "أبانا الذي في السماوات، ليتقدّس اسمك، ليأتِ ملكوتك، لتكن مشيئتك على الأرض كما هي في السماء، خبزنا كفافنا أعطنا اليوم، واغفر لنا ذنوبنا، كما نغفر نحن للمذنبين إلينا، ولا تدخلنا في تجربة، لكن نجنا من الشرير، فإن غفرتم للناس زلاتهم، يغفر لكم أبوكم السماوي زلاتكم، وإن لم تغفروا للناس لا يغفر لكم أبوكم السماوي زلاتكم" (متّى 6/15).

وأخيرا لا بد من الإشارة إلى قصة مريم المجدلانية كما وردت في إنجيل يوحنا:

"قال لها يسوع: يا مريم فالتفتت تلك وقالت له بالعبرية: ربوني "Rabboni!" أي يا معلم

قال لها يسوع: لا تلمسيني لأني لم أصعد بعد إلى أبي. ولكن اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم: إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم" (يوحنا 20/16-17).

وقد أكد القرآن كما أشرنا منذ البداية على أهمية التوحيد واعتبر الشرك ظلما عظيما، ثم أعاد التأكيد على مبدأ التوحيد وبشكل خاص للمسيحيين لأنهم بحسب القرآن قد أخطأوا في تفسير ولادة المسيح المعجزة، وذكّرهم بأن خلق المسيح هو كخلق آدم فقد خلقه الله من دون أب أو أم، ونفخ فيه

من روحه، فهو الذي يقول للشيء كن فيكون، وفيما يلي بعضا من هذه الآيات المتعلقة بهذا الموضوع:

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (آل عمران 59-64).

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (المائدة 15-17).

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (المائدة 72-77).

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (مريم 88-92).

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (المائدة 116-118).

صلب المسيح

يؤمن المسيحيون أن المسيح صُلِبَ وماتَ من أجل دفع ثمن خطايا جميع البشر، كي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية، ثم قام من قبره في اليوم الثالث، ثم ظهر لتلاميذه وبقي معهم أربعين يوماً ومن ثم صعد إلى السماء، وجلس عن يمين الآب وسوف يأتي في اليوم الأخير ليدين الأحياء والأموات وملكه لن يكون له انقضاء.

اما القرآن الكريم فيخبرنا بأن الله سبحانه قد نجّى المسيح ومنع الجنود من الوصول اليه، كما جاء في قول الله تعالى: وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (النساء 157-158)، وهنا أيضا نلاحظ، كما أشرنا منذ البداية أن الخلاف ليس في الوقائع، فقد رأت الجموع عملية الصلب، لكن القرآن يخبرنا بأن الله سبحانه قد نجى المسيح عليه السلام من الصلب، وأن الذي صُلبَ لم يكن المسيح بل شبيه له، وأن الذين يختلفون في هذا الموضوع غير متأكدين وانهم يظنون ذلك، ويؤكد "وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا"، ثم تؤكد الآية أن الله رفعه إلى السماء.

إضافة إلى ذلك، فإن الإسلام يعتبر أن المسؤولية إنما هي مسؤولية فردية لا جماعية، وأنه ليس من العدل أن يتحمل البشر خطيئة أبيهم آدم، ثم إن الله سبحانه لم يترك البشرية في الخطيئة منذ بداية الخليقة وحتى إرسال المسيح عليه السلام، وهذا ما توضحه آيات القرآن الكريم، أوّلاً في توبة آدم وقبول هذه التوبة، بقوله تعالى: قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ

الْخَاسِرِينَ (الأعراف 23) وجاء الجواب من رب العالمين: فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (البقرة 37)، وأما المسؤولية الفردية فقد بينتها الآيات التالية:

أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسان إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ (النجم 37–41)، وقوله تعالى: مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (فُصِّلَتْ 46)، وكذلك الآية التالية: يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ *وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (عبس 34–37).

خلاصة القول إن الإسلام لا يعتبر بأن هناك خطيئة أزلية ارتكبها آدم ويتحمل مسؤوليتها ابناؤه من بعده، وأن كل الأنبياء إنما جاؤوا لخلاص البشرية وهدايتها إلى الصراط المستقيم، وأن صفة المخلص تنطبق على الأنبياء أجمعين وليس على المسيح وحده، وأن الله سبحانه هو الذي يهدي البشر إلى الصراط المستقيم، ولنقرأ الآيات التالية: اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إلى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقرة 257)

هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (الأحزاب 43).

لقد بينت الآيات التي ذكرناها أن الإسلام قدّم المسيح عليه السلام، كما قدم إنجيله ومنهجه ودعوته، وقدم أمَّهُ الطاهرة، وقدم حواريه في أكمل وأحلى مشهد، ومن يقرأ القرآن فسيجد المسيح عليه السلام: "نبيا، ورسولا، وكلمة الله، وروح منه، ووجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين"، إلى غير ذلك من الصفات التي لا نجد لها مثيلا في أي نص أو كتاب ديني آخر، كما دافع الإسلام عن مؤمني النصارى المضطهدين دفاعا اتسم بالمحبة لهم، ضد مضطهديهم الطغاة كما جاء في رواية اصحاب الاخدود الذين تم احراقهم لأنهم آمنوا بالمسيح واتبعوه كما ترويه هذه الآيات: قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (البروج 4–9).

وفي الختام، لا بد من الاشارة إلى أن المسلمين يؤمنون بالمسيح نبيا ورسولا، ويُكنّون له ولأمه، كما لكل الأنبياء، كل المحبة والاحترام والتقدير، فإذا كان المسيحيون واليهود لا يؤمنون بنبي الإسلام محمد، وهذا جزء من حرية الاختيار، فلا أقل من أن يحترموه معاملة بالمثل، وهذا الاحترام ليس للمجاملة فحسب، بل هو موقف عقلاني ومنطقي، لأنه يرفع الغطاء عن كل أشكال التعصب والفتن والاقتتال، وقد سبق وقلنا إن شاطئ البحر يظل ماؤه عكرا، ويبقى موجه مضطربا وهائجا، في حين أن البحر في الأعماق يكون هادئا صافيا وزرقته تسر الناظرين.

وهكذا نجد أنّ العلاقة بين محمد وموسى والمسيح، أو لنقل بين الإسلام واليهودية والمسيحية، مكانها الاعماق، في حين يبدو التعصب والاقتتال بين المسلمين واليهود والمسيحيين، عبث صغار يسبحون على الشاطئ، إما لأنهم لا يعرفون السباحة، وهذا سببه الجهل، أو لأنهم يخافون الابحار خشية الدوار، وهذا سببه الضعف وعدم القدرة على مواجهة الصعاب، رغم أن هذا الدرب هو الطريق الصحيح نحو التسامح والمحبة والسلام.

ولنردد قول الله سبحانه: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُون (البقرة 62).

وقوله تعالى: قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون (البقرة 136).

وأخيراً: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (النساء 136).

إن الأمثلة التاريخية عن مواقف المسلمين الاوائل من أهل الكتاب، هي أشد وأقوى دلالة من أي خطاب آخر أو رأي شخصي، ولهذا سأختم هذا الفصل بقصة فتح القدس في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث أصر كهنة بيت المقدس على أن لا يسلموا مفاتيح بيت المقدس إلا لعمر، خليفة المسلمين، فحضر من المدينة وكتب لأهل القدس عهداً، اشتهر باسم "العهدة العمرية" وقد جاء فيه:

"بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تُسكنُ كنائسُهم ولا تهُدم، ولا يُنتقض منها ولا من حيزها ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضارُّ أحدٌ منهم".

إنَّ هذا العهد هو أبلغ من أي حديث عن التسامح والتعايش والاحترام الذي يحمله الإسلام والمسلمون لأصحاب الشرائع السماوية الأخرى، وفي هذا القدر كفاية.

الفصل الرابع
القيم العامة أو العالمية في الإسلام

الحضارة العربية الإسلامية ليست حضارة وليدة بل لها تاريخ وأمجاد يعرفها ويعترف بها العالم أجمع، وكلي أمل أن يكون هذا الفصل مناسبة للتعريف بقيم الإسلام الحقيقية السامية، التي كانت وستبقى محلَّ فخر واعتزاز، وشعلة ونبراسا في كل زمان ومكان.

إن الإسلام هو دين الحرية! حرية العبادة، وحرية الفكر، وحرية المعتقد، وحرية التعبير، وحرية الاختيار! ولعل هذا الطرح سيدعو الكثيرين لإعادة النظر في الآراء والأفكار السائدة والأحكام المسبقة، هذه الآراء التي تجافي الحقيقة، بل وأكثر، فهي تتعارض بشكل صريح مع مبادئ الإسلام السمحاء.

ولكن هناك فئات كثيرة من الناس ما فتئت منذ فترة طويلة، تردد عكس ذلك، إما عن جهل وسوء فهم ودون قصد، وإما لاستخدامها في تحقيق مآرب أخرى!

ولن أتحدث في هذا الفصل عن "الحرية" فحسب، بل سأتحدث عن "المساواة" و"الأخوة"، لنسير جنبا إلى جنب مع مبادئ الثورة الفرنسية! وسنتابع حديثنا عن "العدالة"، وكيف ربط الإسلام بينها وبين الإحسان، ليصبح مفهوم العدالة حجر الاساس لكل حكم رشيد!

وسأختم هذا الفصل بأمثلة واقعية وحوادث تاريخية تتحدث عن هذه القيم، لأقارنها بحوادث مماثلة من حياتنا المعاصرة، لعلها تجد آذانا صاغية، أو تكون عبرة وموعظة وذكرى لكل من يريد

أن يتعرف إلى هذه القيم بموضوعية وتجرد، كما جاء في هذه الآية الكريمة: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيد (ق 37).

الحرية

قد يبدو الحديث عن الحرية في الإسلام غريبا أو مستغربا للكثيرين، مسلمين كانوا أم غير ذلك، رغم أن الحرية في الإسلام ليست قضية ثانوية، وإنما هي في صُلْبِ الإسلام، وليست قضية عرضية، ولكنها أساسية ومحورية، بدأت منذ بدء الخليقة، وربط الإسلام بينها وبين المسؤولية، وقد جاء في الحديث الشريف عن الرسول صلى الله عليه وسلم: "رُفِعَ عن أمتي الخطأ والنسيان وما استُكرهوا عليه"، لكن الحرية أقدم من ذلك بكثير، وقد جعلها الله سبحانه خاصة إنسانية، لم يعطها لأحد في الكون، حتى لملائكته في السماء والذين قال عنهم القرآن الكريم: لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (التحريم 6)، وقد أخبرنا الله سبحانه أنه منذ بداية الخلق، قد خير الكائنات جميعا أن تتبع قانون الله سبحانه أو أن تكون حرة ومسؤولة، فأعرضت كل الكائنات عن هذا الحمل الثقيل وخشيت من هذه المسؤولية العظيمة، وسألت الله سبحانه أن يتكفل بتسييرها وفق قانون إلاهي، لأنها لا تقوى ولا تريد ان تتحمل هذه المسؤولية وهذه الأمانة، وحملها الإنسان، وهذا ما تحدثنا عنه الآية التالية: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (الأحزاب 72).

وقد اختلف العلماء في تفسير المقصود بالأمانة، فقال البعض إنها الفرائض، وقيل بأنها الإيمان وقال آخرون إنها الخلافة، وذهب آخرون إلى أنها التوحيد، وأرجح الأقوال وأجمعها في المراد بالأمانة هنا، أنها التكاليف والفرائض الشرعية التي كلف الله تعالى بها عباده من إخلاص في العبادة ومن أداء للطاعات ومن محافظه على آداب هذا الدين وشعائره وسننه!

يقول ابن جرير: "إن الله عَرَض طاعته وفرائضه على السماوات والأرض والجبال على أنها إن أحسنَتْ أُثِيبَتْ وجُوزِيَتْ، وإن ضَيَّعَتْ عُوقبَتْ، فأبَتْ حَمْلها إشفاقًا منها أن لا تقوم بالواجب عليها، وقلن: لا، نحن مُسَخَّرات لأمْرك، لا نُريد ثوابًا ولا عقابًا، وحملها آدم..."، وقال البيضاوي: "إن المراد بالإباية الاستعفاء لا الاستكبار، أي: أشفقن منها فعفا عنهن وأعفاهن".

وقال الشيخ عبد الرحمن الفاسي: الأمانة هي ما أخذ عليهم الله من عهد التوحيد في الغيب بعد الإشهاد لربوبيته، وقد جاء في الحديث القدسي: "لن يسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن"، فهو يرى أن الأمانة التي عرضها الله على السماوات والأرض والجبال، هي شهود أسرار الربوبية في الباطن، والقيام بآداب العبودية في الظاهر، أو هي إشراق أسرار الحقائق في الباطن، والقيام بالشرائع في الظاهر، بحيث لا تغلب الحقائق على الشرائع، ولا الشرائع على الحقائق، فلا يغلب السُّكْرُ على الصَّحو، ولا الصحو على السُّكْر. وهذا السر خاص بالآدمي، لأنه اجتمع فيه الضدان، اللطافة والكثافة، النور والظلمة، المعنى والحس، القدرة والحكمة، فهو سماوي أرضي، رُوحاني بشري، معنوي وحسي.

ولذلك خصّه الله تعالى من بين سائر الأكوان بقوله: خَلَقْتُ بِيَدَيَّ (ص 75)، أي بيد القدرة والحكمة، فكان جامعاً للضّدَّيْن، ملكياً ملكوتيًّا، حِسُّهُ حكمة، ومعناهُ قدرة، وليست هذه المزية لغيره من الكائنات، فالملائكة والجن معناهم غالب على حسهم، فإذا أشرقت عليهم أنوار الحقائق، غلب عليهم السكر والهَيَمان، والحيوانات والجمادات حسهم غالب على معناهم، فلا يظهر عليهم شيء من الأنوار والأَسرار.

وهذا السر الذي خُصَّ به الآدمي هو كامن فيه، من حيث هو، كافراً كان أو مؤمناً، كما كَمُن الزبد في اللبن، فلا يظهر إلا بعد الترتيب والضرب والمخض، وإلا بقي فيه كامناً، وكذلك الإنسان، السر فيه كامن، وهو نور الولاية الكبرى، فإذا آمن ووحّد الله تعالى، واهتز بذكر الله، وضرب قلبه باسم الجلالة، ظهر سِرُّه.

وله مثال آخر، وهو أن كُمُونَ السر فيه كَكُمُونِ الحَبِّ في الغصون قبل ظهوره، فإذا نزل المطر، وضربت الرياح أغصان الأشجار، أزهرت الأغصان وأثمرت، وإليه أشار في المباحث الأصلية، حيث قال:

وهي من النفوس في كُمُونِ كما يكون الحَبُّ في الغصونِ

حتى إذا أرعدتِ الرعودُ وانسكبَ الماءُ ولانَ العودُ

وجال في أغصانها الرياحُ فعندها يُرتَقبُ اللقاحُ

فلا يظهر هذا السر الكامن في الإنسان إلا بعد إرعاد الرعود فيه، وهي المجاهَدَةُ والمكابَدَة، وقتل النفوس، بخرق عوائدها، وبعد نزول أمطار النفحات الإلهية، والخمرة الأزلية، على يد الذين أهَّلَهم الله لسقي هذا الماء، وتجول في أغصان عوالمه رياح الواردات، وينحط مع أهل الفن، حتى يسري فيه أنوارهم، ويتأدّب بآدابهم، فحينئذ ينتظر لقاح السر فيه، ويجني ثمار معارفه، وإلا بقي السر أبداً كامناً فيه.

إن كل ما تقدم من آراء مختلفة عبر عنها العلماء إنما هي آراء شخصية لن أناقشها في هذا الكتاب، ولكن هذه الأمانة برأينا هي "الحرية والارادة"، ولست أرى في تلك الأمانة معنى آخر سوى الحرية، فقد عرض الله سبحانه على الشمس والأرض والجبال حرية الحركة، فتكون الشمس حرة تشرق عندما تريد وتغرب عندما تشاء، فرأت أنَّ المسؤولية كبيرة وشاقة، فلو غابت أكثر مما يجب لهلك البشر من البرد، ولو أشرقت أكثر لهلك البشر من شدة الحر، وهكذا فعلت الكواكب في السماء وقررت الأرض والجبال مثلهم، وقَبِلَ الإنسان وحده هذه المسؤولية، فَوُلِدَ حُرّاً خلافاً لكل المخلوقات، ولهذا كان بإمكانه طاعة الله أو عصيانه، ولهذا كان مسؤولا عن أعماله وأقواله.

وقد رأى أبو الأعلى المودودي بأنَّ الكون بكل ما فيه يتبع قانونا إلهيا وضعه الله لكل شيء، فالشمس والقمر والكواكب والمجرات تسير إذاً حسب القوانين التي وضعها لها رب العالمين.

وقد رأينا سابقا أن كل ما في الكون وحتى الذرة تنظمها القوانين الالاهية، فإذا خرجت عن مسارها كان هناك اختلال عظيم وانفجار وخراب ليس له مثيل، وكذلك الإنسان فهو بحاجة لأن يحافظ على مساره أيضاً، لأن خروجه عن هذا المسار، الذي سبق وقلنا بأنه هو الصراط المستقيم، يؤدي إلى الفساد والظلم وربما إلى الحروب والويلات.

وإذا كان الله سبحانه قد وضع للكون بكل ما فيه قوانين تضبطه ويسير بمقتضاها، إلا أنه أعطى الإنسان خاصية مميزة، فهو من جهة يخضع لهذه القوانين المنظمة لحياته، والتي بموجبها يخفق قلبه ويدور دمه وبها يتنفس ويتحرك بيديه ورجليه ولسانه...، وهو من جهة أخرى يملك ما لا تملكه الاشياء الأخرى في هذا الكون، وهي "حرية الاختيار" وحرية الرأي في القول والعمل، وذلك لأن لديه العقل الذي يسمح له بأن يطيع ويعصي، يؤمن ويكفر، يصدق ويكذب...الخ، وهذا ما

يبينه القرآن الكريم بوضوح ليس له مثيل، حيث يخبرنا الله جل وعلا في الآية التالية عن الكون بقوله: ثُمَّ اسْتَوَىٰ إلى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (فُصِّلَتْ 11).

وقد رأينا أن الله سبحانه قد أعطى الحرية لآدم فعصى ربه لأنه كان يملك الحرية باتخاذ القرار، وهذا ما يرويه لنا الله في القرآن الكريم عبر هذه الآيات: وَلَقَدْ عَهِدْنَا إلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً * وَإِذْ قُلْنَا لِلمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاّ إبليس أَبَى * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلاّ تَجُوعَ فِيهَا ولا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لا تَظْمَؤا فِيَها ولا تَضْحَى * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْك لا يَبْلَى * فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوءاتُهُما وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى * ثُمَّ اجتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْض عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى (طه 115-123).

وسألفت الانتباه هنا إلى أنه خلافا لما جاء في الكتاب المقدس، فإن الشجرة التي نهى الله آدم عنها، لم تكن شجرة المعرفة، بل هي شجرة الْخُلْدِ، وأهمية هذه الملاحظة هي أن الله سبحانه لم يمنع المعرفة عن الإنسان بل نزع منه خاصية الخلود، وقد جاء في القرآن أن الله علم آدم فكان أكثر علما حتى من الملائكة كما في هذه الآية: وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَاآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (البقرة 31-33).

وسنعود إلى حديثنا عن الحرية، وإلى بداية الخلق لنبين بما لا يدع أي مجال للشك بأن الله سبحانه العلي القدير قد جعل هذه الحرية حقا غير منقوص، وهبة لا رجعة فيها، حتى عندما يستخدمها الإنسان في معصية الخالق، ومع أنه قادر على أن يحرمه من هذه الحرية فإنه لم يفعل، وأمرنا بأن لا نفعل، ولكننا نجد الإنسان وعبر تاريخه الطويل يحاول أن يسلب حرية الآخرين ويعتدي على حقوقهم، بغيا ودون حق، وبالنتيجة نراه يخون الأمانة ويعصي الله، ولهذا قال عنه رب العالمين وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (الأحزاب 72)، ونتيجة سوء التصرف وعدم اتباع ما أمر الله به، فإن كثيرا من الناس يظنون بأن الدين، وخاصة دين الإسلام، هو الذي يسلب

الحرية، إلى غير ذلك من الادعاءات التي تقف على النقيض من الإسلام وافكاره السمحاء كما سنبينه في الفقرات التالية.

وسنبدأ بقصة الخلق وسلوك آدم، والملائكة وإبليس وكيف عامل الله الخالق مخلوقاته عندما أمرهم أن يسجدوا لآدم، فسجدت الملائكة وأبى إبليس ورفض أن يطيع رب العالمين، كما جاء في هذه الآيات:

قَالَ يَا إبليس مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إلى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (ص 75-85).

ولنعد من جديد إلى بداية الخلق، ولنتأمل في هذه الآيات الكريمة وهي تروي كيف ترك الله للإنسان أولا ولإبليس أيضا، حرية التصرف، والاعتقاد، وحرية التعبير، ولست بحاجة لأن ألفت الانتباه أنه حتى في عصرنا الحاضر حيث يتغنى الناس بالحرية والديمقراطية فإن كثيرا من الدول ما زالت ترضخ تحت وحشية الديكتاتورية وظلم حكامها.

وسنستعرض هذه الحادثة بشيء من التفصيل، فعندما خلق الله آدم أمر الملائكة أن يسجدوا له، فسجدوا، إلا إبليس الذي كان معهم، وهو من الجن كما يقول عنه القرآن، أبى أن يسجد لآدم واستكبر وقرر العصيان، ولكن الله العلي القدير، أعطاه فرصة ليشرح وجهة نظره وسأله: قَالَ يَا إبليس مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ، ولم يتردد إبليس، وهو في حضرة الله سبحانه، في التعبير عن رأيه، وترك الله له حريته رغم عصيانه، فأجاب إبليس: قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ، إنه داء الكبرياء، الذي يودي بصاحبه إلى الهلاك، عندها أمره الله ان يخرج من الجنة إذ لا مكان فيها للعصاة، وكذلك كان مصير آدم وحواء، نتيجة المعصية، فهبطا إلى الأرض، وقال الله سبحانه: قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إلى يَوْمِ الدِّينِ، وكان من الممكن أن يمنع الله إبليس من متابعة الكلام، لكن الحرية التي وهبها الله لنا لا تقف عند حد، وها هو إبليس، بكل وقاحة، يسأل رب العالمين أن يمهله وأن يترك له فرصة إلى يوم القيامة! وبكل عجب نرى أن الله يقبل طلبه كما في الآيات التالية: قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إلى يَوْمِ

يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ، وكان من الممكن أن نتخيل أن إبليس بعد أن أعطاه الله هذه الفرصة، سيحاول التعبير عن ندمه ويطلب الصفح عن سلوكه وكلماته، لكنه مدفوعا بالغيرة والحقد والكبرياء، نراه يتمادى في طغيانه ويصر على الاستمرار في هذا السلوك، فإذا به يهدد ويتوعد وعن سابق وعي وتصميم وإصرار فيقول: قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ، فها هو يعلن العداء الأبدي للإنسان، وأنه سيحاول بكل الوسائل والطرق أن يضله ويغويه ويفتنه وأن يعمل على نشر الفساد والرذيلة بكل ما يستطيع، ولكنه يعترف ويقر بأنه لا يستطيع إفساد المؤمنين، ولأن ثمن الحرية هو المسؤولية، فإن من يتبع الشيطان فسيكون مصيره مشابها له وسيرافقه إلى النار، كما يقول الله: قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ. وهكذا نجد أن الله رب العالمين قد ترك للناس جميعا أن يمارسوا حريتهم دون قيود، سوى المسؤولية عن تصرفاتهم، وهذا هو العدل، وقد جاء في الحديث القدسي، عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: "يا عبادي إني حَرَّمتُ الظلم على نفسي وجعلتُه بينكم محرَّما فلا تظالموا"، فإذا لم يلتزم الإنسان، مسلما كان أو غير مسلم، بتعاليم الله فإنها مسؤوليته هو وليست مسؤولية الدين الذي لا يأمر إلا بمكارم الأخلاق، وسنستعرض بعضا من الآيات التي تؤيد ما نقول، وتثبت بشكل قاطع لا يحتمل التأويل بأن الله سبحانه قد وهبنا حرية كاملة تسمح لكل إنسان أن يؤمن أو أن يكفر، أن يطيع أو أن يعصي، أن يصدق بآيات الله أو أن يكذب بها، لكنه في المقابل جعله مسؤولا عن مواقفه وممارسته لهذه الحرية، حيث يقول المولى عز وجل:

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الأرض كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (يونس 99).

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (البقرة 256).

وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (الكهف 29).

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (الغاشية 21-22).

ومن هذه الآيات نستطيع أن نستخلص ما يلي:

- إن الله الذي خلق الإنسان، قادرٌ على إجباره وتسييره كما يشاء، ولكنه من مبدأ الحرية المعطاة للبشر، لم يفعل وتركه حرا.

- إذا كان الله لم يستخدم قدرته ولم يسلب الإنسان حريته، فليس من حق أحد من البشر، بمن فيهم رسول الله، أن يُكره أو يُجبر أحدا على اعتناق الإسلام!

- لا إكراه في الدين، لأن هذا يؤدي إلى النفاق، فطريق الحق واضح وكذلك طريق الضلال، وعلى كل إنسان أن يختار طريقه بكل حرية وأن لا ينسى مسؤوليته في اتخاذ القرار.

- يحدد الله سبحانه دور الرسول في حياة البشر فيقول له: بلغ رسالة الله للبشر وذكرهم بها، فإنك مُذَكِّر، ولكن ليس لك حق السيطرة عليهم أو مصادرة حريتهم!

- وأخيراً فإن علينا أن ندرك بأن الدين هو كالطبيب الذي يردد أمام الجميع بأن التدخين ضار بالصحة وأنَّ علينا ان لا ندخن، ولكنه لا يستطيع أن يمنع التدخين، وهذا هو المراد بقوله تعالى: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ، لذلك فإنه ليس من حق أحد أن يجبر الناس على الصلاة أو الصوم أو غيرها من الاركان، فحساب الناس متروك لله رب العالمين، وهذا تأكيد لقوله سبحانه: فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِر.

من كل ما تقدم فإننا نستطيع أن نعلن بفخر واعتزاز بأن الإسلام هو دين الحرية! حرية العبادة، وحرية الفكر، وحرية المعتقد، وحرية التعبير، وأن تصرفات البعض في مصادرة الحريات وكبتها لا يمت إلى الإسلام بصلة، وعلينا أن لا ننسى أن هذه المبادئ السامية والتي تضاهي أكثر مبادئ الحريات في عالمنا المعاصر، ليست وليدة اليوم، بل هي مبادئ نادى بها الإسلام منذ 15 قرنا، ولا يزال يجهل ذلك الكثيرون!

ويذكر التاريخ قصة القبطي في مصر، الذي فاز في سباق الفروسية أمام ابن عمرو بن العاص حاكم مصر، فاغتاظ منه ابن الحاكم وضربه بسوطه وقال له "كيف تسبقني وأنا ابن الاكرمين؟!"، إنه الجهل والجهالة بل الجاهلية والكبرياء، كلها ترد الإنسان إلى الحضيض، فيتصرف بغريزته ووحشيته ويقوده الشيطان نحو الهاوية، ولكن عدالة الإسلام كانت على موعد مع هذا الحدث، وسافر والد القبطي برفقة ابنه من مصر إلى المدينة في موسم الحج، واشتكى إلى خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأرسل من يحضر ابن عمرو بن العاص وطلب من

القبطي صاحب الحق أن يقتص منه، فضربه بالسوط كما فعل به، ودوى صوت عمر بن الخطاب بجملته الشهيرة، والتي أصبحت شعارا ينادي به الناس عبر العصور، إذ قال: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا؟!"، فهل نحن بحاجة بعد هذا كله أن نردد على مسامع الذين لا يريدون أن يسمعوا بأن الإسلام قد غرس جذور الحرية في كل زمان ومكان؟!

المساواة والعدل

إنَّ المساواة في الإسلام هي كالحرية قيمة إنسانية عليا، وقد تجلى ذلك واضحا في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربيّ على عجميّ، ولا لأبيض على أسود إلاّ بالتقوى"، إن هذه المساواة تسوي بينهم في حقوق الكيان الإنساني، الذي يتساوى فيه كل الناس، المسلم وغير المسلم، الغني والفقير، الأبيض والأسود، الرجل والمرأة، فالكل سواء، وقد بَينَّ القرآن الكريم أن الناس متساوون في الواجبات والحقوق، وأن المعيار الوحيد لتفضيل أحدهم على الآخر، هو عمل الإنسان وسلوكه وتقواه، وهذا ما تبينه الآية الكريمة: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (الحجرات 13).

لكن الإسلام لم يتوقف عند المساواة بل جعلها مقرونة بالعدل، والعدل هو روح الإسلام وكيانه، لأنه لا تستقيم حياة ولا حضارة دون عدل، وقد وضع الإسلام إلى جوار العدل مبدأ الإحسان، لِيُلَطِّفَ من حدة العدل الصارم الحازم، وترك باباً مفتوحاً للتسامح والعفو، دون أن يعطل العدالة التي تبقى هي الأساس، وهكذا نجد أن العدل والاحسان هما أمر إلهي لكل البشر كما جاء في الآية التالية: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (النحل 90)، وفي هذه الآية أيضا: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (النساء 58).

إن هذه المبادئ، لم تكن في النصوص فقط، بل تحولت إلى واقع على الأرض، ورأينا كيف ساوى الإسلام بين بلال الحبشي وأبي ذر الغفاري، ومعاذ بن جبل سيد الأنصار وصهيب الرومي،

وبين سلمان الفارسي وعم الرسول حمزة القرشي، وفي رواية أن سلمان الفارسي اجتمع مع نفر من العرب فسألوه عن نسبه، وكان العرب يفتخرون بأنسابهم حيث يقول هذا: أنا قرشي، ويقول الآخر: أنا قيسي ويقول ثالث: أنا تميمي، وأدرك سلمان أن هؤلاء لم يفهموا بَعْدْ، رسالة الإسلام الذي ساوى بين البشر، فأجابهم بهذا البيت من الشعر:

أبي الإسلامُ لا أبَ لي سواهُ إذا افتخروا بقيسٍ أو تميمِ

ومازال المسلمون يرددونه عبر العصور، وقد بكى عمر بن الخطاب لما سمعه ورده بدوره.

وقد سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول: "سلمان منا أهل البيت"، ولا عجب أن نجد في الحلقة الأولى حول الرسول الكريم ثلاثة من غير العرب، وكانوا من المقربين وهم: بلال الحبشي، وصهيب الرومي وسلمان الفارسي، وعندما تم فتح مكة أمر الرسول بلالا الحبشي أن يصعد الكعبة المشرفة ليزيل الأصنام عنها، وأصبح بلال مؤذن الرسول.

وإذا كنا نتحدث بفخر واعتزاز عن مبادئ الثورة الفرنسية، وكتابها الذين نادوا بالمساواة أمثال: روسو، مونتسكيو، ديدرو، وفولتير وغيرهم، وعن وثيقة حقوق الإنسان والمواطن، حيث تبدأ الوثيقة بعبارة: "يولد الناس أحراراً ومتساوين في الحقوق"، كما نص الإعلان العالمي لحقوق الإنسان: "على حق المساواة بين أي إنسان وآخر في الكرامة والإخاء، وعلى أن الناس يولدون أحراراً متساوين في الكرامة، كما أن الناس سواسية أمام القانون، ولهم الحق في حماية متساوية ضد أي تمييز يخل بالإعلان العالمي"، فإنه يجب أن لا ننسى أن هذا إنما جاء في عام 1789، أي بعد الإسلام بما يزيد على 11 قرنا!

ولم يكتف الإسلام بالتأكيد على العدالة وسيادة القانون، بل جعل من تطبيقها أساسا للحكم الرشيد، وشرطا لاستمرار الحضارات وتقدمها وتطورها، وإلا فان النتيجة الحتمية تكون في ضعفها وانهيارها، ولعلنا نجد في هذه القاعدة تفسيراً لانهيار الامبراطوريات عبر التاريخ، وهذا ما يؤكده رسول الله في الحديث الذي روته عنه عائشة عندما خطب الناس بعد أن جاؤوا ليشفعوا لامرأة سرقت، وهي من أشراف مخزوم، فقال صلى الله عليه وسلم: "إنما أهلك من كان قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والله لو أنَّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها".

هذا هو الإسلام الذي يتساوى فيه أمام القانون الغني والفقير، المواطن العادي ورئيس الدولة، ليس في النصوص فقط، وإنما في تطبيقه على الجميع، وكم من مرة رأينا في عصرنا الحاضر وفي أكثر البلاد ديمقراطية، مسؤولاً أو وزيراً أو رئيساً متهماً بفضائح مالية كبرى، فإذا بالقضاء المستقل! يطلب منه الاستقالة، ويصدر في حقه حكماً مع وقف التنفيذ!! في حين يطبق القانون على بقية أفراد الشعب تطبيقاً دقيقاً دون مراعاة أو محاباة!!

وسنذكّر ببعض الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة المتعلقة بهذا الموضوع، وهي كثيرة جداً لا يتسع لها كتابنا هذا، ومنها:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (النساء 135).

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (النساء 58).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (المائدة 8).

ويخاطب المولى عز وجل رسوله مرشدا له في التعامل مع اهل الكتاب بقوله: فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (الشورى 15).

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (آل عمران 18).

ان هذه الآيات الكريمة والكثيرة تؤكد على مبدأ العدالة والمساواة في الحقوق والواجبات ومنها نستخلص:

- دعوة الرسول والمسلمين إلى تطبيق العدالة ولو على أنفسهم أو أهلهم أو أقربائهم ودون محاباة أو مراعاة لأحد.

- تطبيق العدالة والحكم بها، يكون للناس كافَّة، دون تفضيل المسلم أو القريب، لأن العدالة تشمل الناس جميعا.

- إن من غير المقبول أن يكون القاضي طرفا في النزاع، وليس مقبولا إذا كان بينه وبين أحد المتخاصمين مشكلة أو عداوة أن يميل إلى خصمه، فإذا لم يستطع التجرد فليطلب إعفاءه من القضية.

- الله سبحانه عادل وقائم بالقسط، وعلينا أن نتبع طريقه، ولله المثل الأعلى.

- إن الله حرم الظلم على نفسه، وجعله محرما بين بني البشر.

وأما الأحاديث النبوية فهي كثيرة أيضا، ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وذكر منهم: الإمام العادل..."

وفي حديث آخر يقول الرسول: "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"، وكلنا يذكر ما جاء في خطبة الوداع، من حديث جابر بن عبد الله قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في وسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال: "أيها الناس! ألا إن ربكم واحد، ألا إن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى"، وعند فتح مكة أعلن الرسول صلى الله عليه وسلم إلغاء التمييز على أساس الحسب والنسب كما كان يفعل العرب قبل الإسلام بقوله: "إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عَيْبَةَ الجَاهِلِيَّةِ، وَفَخْرَهَا بِالآبَاءِ، مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، النَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ".

هذه هي المساواة في الإسلام والتي هي هدف العدالة وغايتها، وقد يكون من المفيد أن نتذكر وصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي موسى الأشعري عندما عينه والياً على اليمن، فأوصاه قبل سفره بقوله: "أما بعد، فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة، فافهم إذا أُدلي إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، وآسِ بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك، البيّنة على من ادعى واليمين على من أنكر،

والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحلَّ حراماً أو حَرَّمَ حلالاً، ولا يمنعك قضاء قضيته أمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهُديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم لا يُبطله شيء، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل".

ومن يقرأ هذه الوصية يجد فيها أسس القضاء العادل ومبادئ القانون، وكأنها من وحي الواقع المعاصر.

بعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عليّاً، وهو في الثلاثين من عمره، إلى أهل اليمن فأسلموا على يديه، وجاءه شريح بن الحارث فسأله: بماذا يأمر دينك؟ فأجابه علي بقوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ.

فبرقت عينا شريحٍ وسأله: بماذا يدعو دينك أيضاً؟ فأجابه علي، وقد أحسّ بتأثّره بمقولة العدل، بقوله تعالى: إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا.

فسأله ثالثةً إلامَ يدعو دينك أيضاً؟ فأجابه بقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ.

فسأله وماذا يقول نبيّك؟ فأجابه: "سبعة يظلّهم الله في ظلّه، يوم لا ظلّ إلا ظلُّه، أوّلهم إمام عادل"، فاستبشر شريحٌ قائلاً: "دين يدعو للعدل"، ودخل في الإسلام.

وقد عين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شريح بن الحارث قاضيا على الكوفة، ويُروى أنه كتب فوقه في مجلس القضاء لافتة كتب عليها: "إنّ الظالم وإنْ حكمتُ له ينتظر العقاب، وإنّ المظلوم وإنْ حكمتُ عليه ينتظر الإنصاف".

ودعم جملته بحديث نبوي شريف يقول: "إنّكم تختصمون إليّ وإنّما أنا بشر فأيّما رجل اقتطعت له حقّ من أخيه لا يستحقّه فإنّما اقتطعت له قطعة من النّار سيطوّق بها يوم القيامة".

وللحديث بقية حيث سنختتم هذا الفصل بمقارنة بعض الحوادث التاريخية من حياتنا المعاصرة ومن تاريخنا الإسلامي تاركين للقارئ استخلاص العبر.

الإخاء

لقد اخترنا لدى شرحنا للقيم العالمية في الإسلام، وبشكل مقصود، أن نتحدث عن "الحرية والمساواة والاخاء"، لأنها كانت شعار الثورة الفرنسية، والتي من مبادئها استمد الغربيون "وثيقة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان"، ولعل أكثر الناس، مسلمين كانوا أم غير مسلمين، يجهلون تماما أن أغلبية المفاهيم الواردة في هذه الوثيقة، وأحيانا بحرفيتها، نجدها إما في القرآن الكريم أو في أحاديث الرسول الأميّ محمد صلى الله عليه وسلم ومنذ القرن السابع الميلادي، أي قبل 11 قرنا من عصر التنوير في فرنسا، ولو أن المكان يتسع لها، لقارنتُها مادة فمادة لإثبات ذلك، ولكني أترك للقارئ أن يبحث في هذا الفصل أو هذا الكتاب عن الآيات ذات الصلة وهي كثيرة بلا شك.

كان العرب في شبه الجزيرة العربية يعيشون في مجتمع قبلي، الولاء فيه للقبيلة، فسادت بينهم الحروب، إلى أن جاء الإسلام، فبدأ بتغيير هذه القاعدة، وجعل مبدأ الإخاء هو الرابط الجديد بدل رابطة القبيلة، وهذا ما تشير إليه الآية التالية: وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (آل عمران 103)، وإذا كان القرآن الكريم يؤكد على أهمية هذه القيمة الجديدة والرباط الجديد، فإنه يشير إلى أن خلق هذا الرباط بين البشر وتوحيدهم ليس بالأمر السهل، كما جاء في هذه الآية: وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأرض جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (الأنفال 61-64)، ولنقرأ هذه الآية الكريمة: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُون (الحجرات 10).

وعندما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة كان أول ما فعله أن آخى بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلا نصفهم من المهاجرين ونصفهم من

الأنصار، آخى بينهم على المساواة يتوارثون بعد الموت، وقد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فَرَّجَ عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة".

وهكذا جعل الإسلام من الإخاء مبدأ اساسيا في بناء الفرد والمجتمع، مع كل ما يتبع ذلك من التضامن والحب والمساعدة، ليصبح المجتمع بمن فيه كالجسد الواحد كما يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر".

وبالفعل فقد استطاع الإسلام في أقل من عقدين من الزمن، أن يحول المجتمع القبلي إلى دولة عظيمة، وألغى فيها العصبية الجاهلية وآخى بين الناس، فسادَ السلام بينهم بدل الاقتتال، والمحبة والتضامن بدل الكره والأنانية، والاحترام والتقدير بدل الاستعلاء والتكبر، وسنختم هذا الحديث بقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (الحجرات 12).

وقد يتساءل البعض، كيف استطاع الإسلام أن يحول هذه المبادئ إلى منهج حياة وإلى واقع يسمعه الناس ويرونه؟

لهؤلاء اقول: اقرؤوا التاريخ، فشهادة التاريخ أصدق شهادة، وستجدون أن القرآن لا يعلمنا قيماً مجردة، وإنما يقدم لنا تصوراً خاصاً للكون والحياة، ومنهجاً جديداً للتفكير، وأنه بنظرته إلى الوجود والموجودات يؤكد على مركزية الإنسان الذي جعله خليفة في الأرض، وجعل الكون مُسَخَّراً له كما في الآية التالية: وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (الإسراء 70).

إنَّ هذا هو المجتمع الفاضل الذي ينشده الإسلام، مجتمع الحرية والإخاء والمساواة والعدل والإحسان.

وبذلك يكون الإسلام قد أعلن المساواة بين البشر قبل أن تعلنها الثورة الفرنسية بأحد عشر قرنا.

وسأستعرض بعض الأمثلة لأقارن فيها بين موقف الإسلام الفعلي وموقف الحضارات الأكثر ديمقراطية في عالم اليوم، وليس ذلك دفاعا عن الإسلام، فهو لا يحتاج إلى دفاع، ولا تهجما على ديمقراطيات اليوم، اذ يجب الاعتراف بأن فيها الكثير من الايجابيات، وإن تكن بحاجة إلى تطوير كما يقول حتى المدافعين عنها، وإنما لنتعرف جميعا إلى هذه القيم العالمية التي جاء بها الإسلام.

الانتخابات الرئاسية في امريكا عام 2000
بين جورج بوش وآل غور

لا يشك أحد في ديمقراطية الولايات المتحدة الأمريكية، بل إن الكثيرين يعتبرونها قائدة العالم الحر، ومع ذلك فعندما جرت الانتخابات عام 2000 واختلف الطرفان على نتيجة التصويت في ولاية فلوريدا، وكان الفارق 1500 صوتا فقط لصالح بوش.

تقدم محامو آل غور بطلب إلى المحكمة الفدرالية في فلوريدا، وكان فيها 6 قضاة من أصل 7 ديمقراطيين، وحصلوا على موافقتها بإعادة عد الأصوات في ثلاث مراكز انتخابية معروفة بأنها تصوت عادة للحزب الديمقراطي! وهذا ما قد يؤدي إلى تغيير نتيجة التصويت لصالح آل غور.

وطالب محامو بوش تدخل المحكمة العليا، وهي أعلى سلطة قضائية في الولايات المتحدة، والكل يعرف مدى استقلاليتها ونزاهتها، وهي مؤلفة من 9 قضاة، 7 منهم كانوا معينين من قبل رؤساء جمهوريين، فألغت المحكمة العليا قرار محكمة فلوريدا، وأوقفت العد وأعلنت فوز جورج بوش بالانتخابات!

إن موقف الإسلام في مثل هذه الحالة واضح وصارم، إذ يطلب من القضاة المؤمنين العادلين أن يشهدوا بالحق ولو على أنفسهم أو أهلهم، فكيف إذا تعلق الأمر بمجرد شخص ينتسب إلى حزبهم؟ ولنقرأ قول الله سبحانه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ (النساء 135)، وكذلك ما جاء في هذه الآية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ

اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (المائدة 8)، وهنا أيضا يقول المولى عز وجل، إن القاضي العادل يجب ان يبحث عن الحقيقة وأن يتجرد عن العواطف، وأنه من غير المقبول أن يلعب عامل الحب أو الكراهية دورا في اتخاذ القرار وإصدار الحكم، فليس من العدل أن تحكم ضد شخص فقط لمجرد أنه ينتسب إلى حزب آخر!

لذلك رأينا الرسول الكريم يعلن بشكل واضح وصريح: "والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطعت يدها!"، فالرسول يطبق القانون حتى على أقرب الناس وأحبهم إليه، فالناس سواسية أمام القانون.

وقد رأينا في الفقرات السابقة كيف طبق عمر بن الخطاب القانون على ولد عمرو بن العاص، حاكم مصر، أمام فلاح مصري قبطي مسيحي، فعدالة الإسلام هي للناس جميعا، ولم يشفع لابن عمرو بن العاص في إعفائه من العقاب، لا حسبه ولا نسبه ولا مركز أبيه، لأن هذه هي عدالة الإسلام.

وكلنا يذكر أنه لما جاء رسول كسرى لإيصال رسالة إلى أمير المؤمنين عمر، وجده نائما على الأرض تحت شجرة دون حراسة أو فراش، فقال جملته الشهيرة والتي تلخص وحدها هذه العدالة الحقيقية السمحاء: "عَدَلْتَ، فأمنتَ، فنمتَ يا عمر!".

الرئاسة والقضاء في فرنسا

يُعتبر رئيس الجمهورية في فرنسا، وفي أكثر الأنظمة الديمقراطية، القائد الأعلى للجيش، ورئيس مجلس القضاء الأعلى، وقد نصّت المادة الخامسة من الدستور الفرنسي أن رئيس الجمهورية هو الضامن للمؤسسات والدستور، والمسؤول عن الاستقلال الوطني وتراب الوطن والمعاهدات. وتشير المادة 64 من الفصل الثامن: إلى أن الرئيس مسؤول عن ضمان استقلال القضاء، يساعده في ذلك مجلس القضاء الأعلى.

وقد رأى المجلس الدستوري الأعلى أن رئيس الجمهورية يتمتع بحصانة خلال فترة حكمه، ولا يمكن مقاضاته خلال هذه الفترة إلا أمام محكمة الجزاء العليا وفي حالة الخيانة العظمى، وليس في حالة الجُنَح أو القضايا الأخرى، مما يجعل محاكمته في الواقع أمراً غير ممكن.

وقد فتح القضاء الفرنسي تحقيقا عام 1997 في قضية منح الرئيس الفرنسي، عندما كان رئيسا لبلدية باريس، وظائف وهمية لأعوان سياسيين وتمويلها من الأموال العامة، وعندما جرت المحاكمة عام 2004 لم يستطع القضاء محاكمة الرئيس لتمتعه بالحصانة، ولم يستطع حتى الاستماع إلى شهادته، حيث رفض الرئيس طلب القضاء مبررا ذلك بأنه الرئيس الأعلى للقضاء!

لكن القضاء الفرنسي انتظر نهاية ولاية الرئيس وعاد لفتح القضية من جديد، وبعد اخذ ورد استمر 3 سنوات استطاع القضاء ادانة رئيس الجمهورية "بتهمة اختلاس أموال عمومية وخيانة الأمانة واستغلال النفوذ"، وأصدر في حقه حكما بالسجن لمدة سنتين مع وقف التنفيذ! أي أن الحكم معنوي فقط، وقد اعتُبر ذلك نصراً سياسياً كبيراً للقضاء في واحدة من أرقى الديمقراطيات في العالم!

مقابل ذلك، سنستعرض موقف القضاء في الإسلام في حوادث مشابهة، في الاشخاص وليس في التُّهَم، فلعلها تكون لنا درسا وعبرة فتزيدنا قناعة وإيمانا وثقة بهذه القيم، فنعرف قيمة حضارتنا وسمو تراثنا ونرى كيف تم تطبيقها على أرض الواقع، كما تشير الآية الكريمة: قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي (البقرة 260)، فهنيئا لأصحاب القلوب المطمئنة.

أمير المؤمنين علي بن أطالب والقاضي

"رُوي أن عليا بن أبي طالب رضي الله عنه افتقد درعا له كانت أثيرة عنده، ثم ما لبث أن وجدها في يد رجل يهودي يبيعها في سوق الكوفة، فلما رآها عرفها وقال: "هذه درعي سقطت عن جمل لي في ليلة كذا وفي مكان كذا"، فقال الذمي: "بل هذه درعي وفي يدي يا أمير المؤمنين وبيني وبينك قاضي المسلمين"، فقال علي: "أنصفتَ فَهَلُمَّ إليه"، فلما صارا عند شريح القاضي في مجلس القضاء، قال شريح: "لا ريب عندي في أنك صادق فيما تقوله يا أمير المؤمنين ولكن لابد لك من شاهدين"، فقال علي: "نعم، مولاي قنبر وولدي الحسن يشهدان لي"، فقال شريح: "ولكن شهادة الابن لأبيه لا تجوز"، فقال علي: "يا سبحان الله رجل من أهل الجنة لا تجوز شهادته، أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة"، فقال شريح: "يا أمير المؤمنين ذلك في الآخرة، أمّا في الدنيا فلا تجوز شهادة الابن لأبيه"، عند ذلك التفت علي إلى الذمي وقال: "خذها فليس عندي شاهد غيرهما"، فقال الذمي: "ولكني أشهد بأن الدرع درعك يا أمير المؤمنين"، ثم أردف قائلاً: "يا لله، أمير المؤمنين يقاضيني أمام قاضيه، وقاضيه يقضي لي

عليه! أشهد أن الدين الذي يأمر بهذا لحق، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله"، وتقول الرواية أن عليّاً أهداه الدرع بعد ذلك"، فهل نعرف أحكاما مماثلة في عصرنا الحاضر؟

إن هذه الحادثة تبين كيف يساوي القضاء في الإسلام بين الناس، وكيف يرضى أمير المؤمنين، وهو من يعيّن القضاة، بحكمهم دون أن يكون له حصانة أو معاملة خاصة، والله يقول: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (النساء 58).

القاضي وابنه

ومن قصص القضاء، أن ابن شريح القاضي جاء يستشير أباه يوما فقال له: "يا أبت إن بيني وبين قوم خصومة، فانظر فيها فإن كان الحق لي قاضيتهم وإن كان لهم صالحتهم"، ثم قص عليه قصته فقال له شريح: "انطلق فقاضهم"، فمضى إلى خصومه ودعاهم إلى المقاضاة فاستجابوا له، ولما مثلوا بين يدي شريح، قضى لهم على ولده، فلما رجع شريح وابنه إلى البيت قال الولد لأبيه: "لماذا فعلت ذلك يا أبت؟ والله لو لم أستشرك من قبل لما لمتك"، فقال شريح: "يا بني والله لأنت أحب إليَّ من ملء الأرض من أمثالهم، ولكن الله عز وجل أعز عليّ منك، لقد خشيت أن أخبرك بأن الحق لهم فتصالحهم صلحا يُفَوِّتُ عليهم بعض حقهم، فقلت لك ما قلت".

وهكذا نجد أن هذا القاضي قد قرأ قول الله سبحانه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ، فَفَهِمَهُ ووعاه، وطبّق ذلك على ولده، لأن عدالة الإسلام ليس لها حدود، فهي تتجاوز حدود الدين والعقيدة والقرابة والنّسب، وتتجاوز حدود الأرض والوطن، فمن كان له حق فلا يُظلم، بل من واجب القضاء أن يعطيه حقه لإنسانيته، فالعدل حق يشترك فيه جميع الناس بلا استثناء!

ولقد أشرنا من قبل إلى قصة القبطي مع ابن عمرو بن العاص حاكم مصر، وكيف طبق خليفة المسلمين عمر، حكمه فيها، وانتصر لفلاح مصري قبطي، في وجه رجل من أشراف العرب وابن واحد من أكبر القادة في جيش المسلمين، وذلك لأن عدالة الإسلام عامة شاملة تساوي بين الناس كما جاء في هذه الآية وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل.

العفو والتسامح

إن أكثر الآراء والافكار السائدة والاحكام المسبقة ظلما للإسلام، وما يعتقده غير المسلمين وخاصة في الغرب، هو أن الإسلام والمسلمين، لا يعرفون العفو ولا التسامح، سواء كان ذلك فيما يتعلق بالدين أو بغيره من شؤون الحياة، وأنهم لا يعرفون الحوار بل إنهم يلجؤون لاستعمال العنف بدل النقاش والمجادلة وتبادل الافكار!

ولقد كان لتصرفات بعض المسلمين في أيامنا هذه وفي مناسبات عديدة، أثر واضح في دعم هذه الآراء وتعميمها وانتشارها في أكثر المجتمعات الغربية، بعد أن كانت محصورة بفئة من المجتمع معروفة بعدائها وكرهها للإسلام والمسلمين.

وقد يتفاجأ هؤلاء عندما نؤكد ونبين لهم أن الإسلام يقف على النقيض من هذه التصرفات، وهو من أكثر الدعاة إلى التعايش السلمي وإلى التسامح بأرقى أشكاله، وأن المشكلة تكمن كما قلنا سابقا، في أولئك الذين يفهمون الدين بشكل سطحي ويقفون على الشاطئ بكل ما فيه من أمواج هائجة وماء عكر.

وسنستعرض بعضاً من الآيات والأحاديث التي تثبت ما نقول وبشكل لا يترك مجالا للشكوك والظنون:

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (الأعراف 199).

ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (المؤمنون 96).

ادْعُ إِلىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (النحل 125-128).

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (آل عمران

.(159

لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (الممتحنة 8).

فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (الحجر 85).

وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (النور 22).

وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (آل عمران 133–136).

وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمور (الشورى 43).

فهل بعد كل هذه الآيات القرآنية شك فيما أشرنا اليه؟ ولكي نكون أكثر إيضاحا، فسنشير إلى موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من أهل مكة، الذين طردوه وطردوا المسلمين وحاربوهم، وعندما انتصر الرسول وفتح مكة توجه لهم قائلاً: "ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء!"

وهكذا أعطى الرسول الكريم بموقفه هذا، المثل الذي يجب على المسلمين اتباعه، والله سبحانه يقول: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (الأحزاب 21).

ولم تكن هذه الحادثة فريدة في التاريخ الإسلامي، فمن يقرأ التاريخ سيجد أمثلة كثيرة، فالحروب الصليبية استمرت لقرنين من الزمن، وروايات المذابح الصليبية كثيرة، ومع ذلك فعندما أَسَرَ المسلمون ملك فرنسا "لويس التاسع"، وإخوته وآلاف الجنود معهم، كان بإمكانهم قتلهم وهم الذين جاؤوا لغزو بلاد المسلمين وليس العكس، ولكن الحكمة تقول: "العفو عند المقدرة من شيم

الكرام"، لذلك قرر المسلمون، بقيادة صلاح الدين الأيوبي، إطلاق سراح الملك الفرنسي واخوته و10.000 أسير، شرط التعهد بعدم العودة إلى حربهم مرة أخرى.

إن الإسلام لا يضع قيودا في الحوار، فكل المواضيع تقبل النقاش، وقد جادل الكافرون حتى في وجود الخالق سبحانه، فردَّ عليهم القرآن بالعقل والمنطق، وضرب لهم الأمثال لعلهم يهتدون، لذلك فإن من يكتب في عصرنا الحاضر لينتقد الإسلام، أو رسول الإسلام، فهذا شأنه بل وحقه، والإسلام لا يعترض على ذلك، ولكن ما يرفضه الإسلام والمسلمون هو القدح والذم والتهجم والاستهزاء، فهذا ليس فكرا ولا حوارا ولكنه دعوة إلى التعصب والاقتتال، وبالرغم من كل ذلك فإن الله سبحانه يرشدنا ويعلمنا كيف نتصرف تجاه أولئك المستهزئين، واقرؤوا معي هذه الآيات وكأنها نزلت خصيصا لما يجري في أيامنا هذه، ولو قرأناها وعملنا بها لتغيرت نظرة العالم إلى الإسلام، ولوقف الكثيرون معنا بدل أن يتعاطفوا مع الذين يلهثون وراء الشهرة والربح وهم على شفا الإفلاس، فأنقذناهم بسلوكنا المتهور ومواقفنا الغاضبة، وابتعدنا عن السلوك الإسلامي الصحيح، وهذا ما يقوله المولى عز وجل عن أصحاب السلوك القويم: وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ.

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (النساء 140).

وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (فُصِّلَتْ 34-36).

كما تجدر الاشارة إلى موقف الإمام الشافعي رضي الله عنه في مواجهة السفهاء الذين كانوا يتهجمون عليه بالقدح والذم، وكيف أعرض عنهم متذكرا قوله تعالى: "وأعرض عن الجاهلين"، ولا أبالغ إذا قلت إن الامام الشافعي لو كان حيا، وسمع ما يكتبه بعض اللاهثين وراء الشهرة في أيامنا هذه، ولا يجدون طريقا لبلوغ هذا الهدف أقصر من مهاجمة الإسلام والمسلمين، بل جعلوا من مهاجمة الرسول الكريم فرصة للشهرة العابرة للقارات، أقول لو كان الإمام الشافعي حيا، لكان رده اليوم، كرده في ذلك العصر، هذه الابيات:

يخاطبني السفيه بكل قبحٍ وأكره أن أكون له مُجيبا

يزيدُ سفاهةً وأزيدُ حُلماً كعودٍ زاده الإحراقُ طيبا

إن الإسلام يعلّمنا بكل وضوح، أن الرد لا يكون بالعنف، ولكن بالتي هي أحسن، وأننا بهذه الطريقة نضع المسيء أمام مسؤولياته، ونتركه لضميره، ولعل هذا الرد سيجعله يخجل من تصرفاته، وقد أشار القرآن الكريم أننا بهذا السلوك وبهذه الطريقة نستميل صاحب الموقف المعادي فإذا به يعود إلى الصواب ويترك موقف العداء ليصبح من الاصدقاء! ولنقرأ قول الله تعالى: وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (فُصِّلَتْ 34).

وسنختم حديثنا عن العفو والتسامح بهذه الآية الكريمة: وَيَسْأَلُونَكَ مَاذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (البقرة 219)، إذ يصبح السلوك ومعاملة الناس بالحسنى أهم من إنفاق المال رغم أهميته!

وهكذا تبين لنا لدى استعراضنا لبعض القيم العالمية في الإسلام، رغم أننا لم نتحدث إلا عن القليل منها، ولو أردنا الحديث عن كل القيم الإسلامية لكان علينا أن نخصص الكتاب بأكمله لها، لذلك فقد اخترنا القيم التي وردت في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، واتخذَتْها الثورة الفرنسية شعارا لها، وأصبحت شعارا لفرنسا، ومن أهم قيم الجمهورية، وذلك ليتبين لنا أن هذه القيم، هي قيم مشتركة وأنه على صعيد الفكر يلتقي البشر، ولكي يفهم شبابنا بأننا كنا سباقين في نشر هذه المبادئ وأنه يحق لنا أن نفتخر بتاريخنا وماضينا وحضارة آبائنا واجدادنا، شرط أن نستعيد هذه القيم ونفهمها من جديد ونقدمها بلباس العصر وروحه المتجددة، لنقدم للعالم مساهمتنا في إغناء القيم الإنسانية لما فيه خير البشرية في كل زمان ومكان، ولنضع نصب أعيننا قول الله سبحانه لرسوله الكريم: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (الأنبياء 107)، وقوله: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أكثر النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (سبأ 28)، وهذا ما يؤكد على عالمية هذه القيم ودورها في تقدم الأمم والشعوب، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول: "إنما أنا رحمةٌ مُهداة".

قيم أخرى

لقد اكتفيت في الفقرات السابقة بالحديث عن بعض القيم العالمية في الإسلام، كما ذكرتُ اعلاه، ولكنني سأزود القارئ، باختصار ودون شرح أو تفصيل، ببعض القيم الأخرى والتي لا تقل أهمية عن سابقاتها، مما يسمح لكل منا أن يتعمق بها فيما بعد، ولتكون زادا وعونا وغناء لنا في رحلة التعرف على مبادئ الدين الحنيف وقيمه الخالدة، وسأقدم هذه القيم تحت عنوانين رئيسيين، ليكون المدلول أكثر وضوحا والتأثير أكثر سماعا، وسيكون ذلك عبر الآيات القرآنية التي تذكرنا بما يحبه الله لنتبعه وبما لا يحبه الله لنجتنبه، وهذه هي التقوى التي تحدثنا عنها مرارا وتكرارا وعرفناها بأنها: "أنْ لا يفتقدك الله حيث أمرك، وأنْ لا يجدك حيث نهاك".

من يحبهم الله سبحانه

المتقين: بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (آل عمران 76).

المحسنين: وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (البقرة 195)، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (آل عمران 134).

الصابرين: وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (آل عمران 146).

المتوكلين: فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (آل عمران 159).

المقسطين: وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (المائدة 42)، لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (الممتحنة 8).

التوابين: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (البقرة 222).

المطهرين: لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِين (التوبة 108).

العفو: وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (النور 22)، وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِين (آل عمران 134)، وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأمور (الشورى 43).

العدل والاحسان: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (النحل 90).

1. إتباع الرسول: قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (آل عمران 31)

من لا يحبهم الله سبحانه

المعتدين: وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (البقرة 190)، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (المائدة 87).

الظالمين: وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (الشورى 40)، وَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (آل عمران 57).

المسرفين: يَا بَنِي آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (الأعراف 31).

المفسدين: وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأرض إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (القصص 77)، وَإِذا تَوَلَّى سَعَى فِي الأرض لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (البقرة 205).

الكافرين: قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (آل عمران 32)، لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (الروم 45)، يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (البقرة 276).

المستكبرين: لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (النحل 23).

الخائنين: وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (الأنفال 58)، وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا النساء (107)، إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (الحج 38).

المختال الفخور: وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الأرض مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (لقمان 18)، وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (النساء 36).

الجهر بالسوء: لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (النساء 148)

1. الفرحين: إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (القصص 76)، لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (آل عمران 188).

هذا غيض من فيض، ومن أراد المزيد فالقرآن بين أيديكم، وصدق الله إذ يقول: الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (البقرة 1–2).

الفصل الخامس
مفهوم الجزاء في الإسلام (الثواب والعقاب)

إن نظرة الإسلام إلى الحياة الدنيا توضح وتؤكد أنها دار اختبار، وأن الآخرة هي دار القرار، وأن الله سبحانه الذي خلق الإنسان بيديه، ونفخ فيه من روحه، وأمر ملائكته أن تسجد له، وآتاه من العلم والمعرفة ما لم يؤت ملائكته، وفضله على كثير من خلقه، أعطاه حرية الاختيار بين الشكر لله أو الكفر بنعمه، وجعله مسؤولا عن قراره وأعماله وتصرفاته، وأنه سيختبره ويبتليه في حياته، وأنه سيحاسبه على عمله، إنْ خيراً فخير، وإنْ شَرّاً فشر، ولا بد من الاشارة ومنذ الآن إلى أن البلاء والاختبار لا يمثل عقوبة إلهية للبشر، ولكنه يمثل تجربة للإنسان في ما يواجه به حياته، وكلنا يعرف أن الحصول على النجاح يتطلب كثيرا من العمل والجد والجهد والتعب، ولكن علينا أن لا ننسى أن الله سبحانه قد زود الإنسان بطاقات ومواهب ترفعه إلى مستوى المسؤولية التي أُلقيت على كاهله، فقد خلقه على الفطرة السليمة التي تميل بطبيعتها إلى الخير، وأنه سبحانه، عن طريق هذه الفطرة، وعبر إرسال الرسل والأنبياء والشرائع السماوية، قد أعطى الإنسان كل ما يلزم ليدلَّه ويهديه إلى الصراط المستقيم، وهذا ما تشير إليه الآية التالية: وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (الحجرات 7-8).

إن الإنسان سيُحاسَبُ يوم القيامة، بميزان الله الحق، الذي يعرف حقائق الأشياء وليس ظاهرها، وأنه إذا كان الإنسان، في الحياة الدنيا، يَحكُمُ على ظواهر الأمور وحسب الأدلة التي يملكها، فإن الله الذي لا يخفى عليه شيء لا في السماوات ولا في الأرض، يحكم على نية الإنسان

الحقيقية الكامنة وراء تصرفاته، وقد جاء في الحديث الشريف: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرءٍ ما نوى".

وسأذكر بعضا من الآيات التي تبين الخطوط العامة المرتبطة بهذه المبادئ، كما في قوله تعالى:

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ العَزِيزُ الغَفُورُ (المُلك 1–2)

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً * إِنَّا خَلَقْنَا ٱلإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً * إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (الإنسان 1–3)

الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (العنكبوت 1–3).

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (الشمس 7–10).

إن هذه الآيات وغيرها، وهي كثيرة، تؤكد وتبين أن الاختبار والابتلاء في هذه الحياة الدنيا هما الممر الذي لا بد منه للوصول إلى جنة الخلد والعودة اليها، بعد أن أخرجت الإنسانَ منها معصيتُه لرب العالمين، وهذا يؤكد ما قلناه في موضع آخر، من أن المعصية قد هبطت بالإنسان من الجنة، وأن الطاعة والعمل الصالح سيعيدانه إليها ولو بعد حين، أمّا إذا استمر في المعصية فإن السقوط سيكون نهائيا، ولكن في هذه المرة ليس إلى الأرض بل إلى الجحيم.

ولا بد أن نؤكد من جديد، أن الله سبحانه، الرحيم بعباده، والذي جعل من هذه الحياة حياة اختبار، والذي يعرف طبيعة الإنسان الذي خلقه، كما جاء في القرآن الكريم: أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِير (المُلك 14)، قد راعى الإنسان، ووضع ميزانا لعدالة السماء فيه من الرحمة والتسامح الكثير، ولنقرأ قول الله عز وجل: مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (الأنعام 160)، وكما جاء في الحديث عَن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النبي صلى الله عليه وسلم فِيْمَا يَرْوِيْهِ عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتعالى أَنَّهُ قَالَ: "إِنَّ الله كَتَبَ

الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إلى سَبْعِمائَةِ ضِعْفٍ إلى أَضْعَاف كَثِيْرَةٍ. وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً" رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَمُسْلِم.

هذه هي عدالة السماء، وهذا هو ميزان الله، ومن هنا يتبين لنا أن الاختبار يتم ضمن أفضل الشروط والتي تميل بشكل واضح لمصلحة الإنسان، ولم يتوقف الإسلام عند هذا الحد، ذلك أن الله سبحانه يعرف الطبيعة البشرية، ويعرف أن الإنسان، رغم كل شيء، قد ينساق وراء شهواته وتشده الخطيئة نحو الحضيض، فلا يدينه إلى الأبد، ولا يتركه لمصيره المظلم، بل يناديه ليعود إلى الصراط المستقيم في أية لحظة، ويفتح له باب التوبة مؤكدا له أن هذا الاختبار ليس فيه خاسر دائم ولا رابح دائم، وأن الإنسان لا يقدر أن يسير على خط ثابت طوال حياته، وأنه في كل مرة يبتعد عن مساره وعن خط سيره الصحيح، فإن عليه تعديله والعودة إلى المسار السليم، ولنقرأ قوله سبحانه: قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (الزُّمَر 53).

إن مفتاح التوبة الذي أعطاه الله للإنسان، هو الوسيلة التي تسمح للأمل أن ينتصر على اليأس، وبهذا المفتاح يتغلب الإنسان على ضعفه وميوله وغرائزه، فيقوم من جديد بعد كل سقوط، وهو أكثر تصميما على تجنب السقوط والتغلب على عوامل الضعف لديه، ولعل الحديث الذي رواه النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه يلخص كل ما أريد أن أقوله في هذا المجال.

فقد جاء عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: "يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا

يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ" رواه مسلم.

إن نظرة الإسلام إلى الإنسان هي نظرة واقعية إذاً، تعترف بضعفه ولكنها تدعوه ليرتفع إلى القمّة، وكلما تقدم نحو الافق أكثر كلما بدا له الافق أكثر بعدا، فرحلة السمو نحو المثل العليا لا تتوقف، ويمثل هذه القمّة أنبياء الله الكرام، ويرتفع نحوها عباد الله الصالحين، أو لنقل أولياء الله الصالحين، كما جاء في هذه الآية: أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (يونس 62-64)، إن الوصول إلى هذه المراتب، لا يكون بالتمني ولكن بالعمل، ككل ما في الحياة، فالنجاح يتطلب الكثير من الجهد والسهر والتعب.

وسنحاول سريعا استعراض نقاط الضعف الإنسانية وكيف تعامل الإسلام معها، فهو لا ينفي حاجات الإنسان ولكنه يهذبها، لا يمنعها بل يؤطّرها، وهدفه الثابت أن يحفظ له توازنه ويبعده عن الانحراف والضلال والضياع، وهذه بعض الأمثلة في أسلوب الإسلام وكيفية التعامل مع حالات الضعف الإنسانية، يقول تعالى:

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا (النساء 26-28)، ولنلاحظ كيف بدأت الآية الكريمة بإعطاء الطمأنينة للإنسان، فالله يريد أن يبين له ويهديه، وإذا أخطأ أن يتوب عليه، ثم يقول له: إن الضعف ليس خطيئة ولكنه قد يكون سببا في الوقوع بها، فينبهه إلى ذلك ويدعوه إلى اتباع الحق وأن الله قد خفف عليه مراعاة لضعفه.

والآية التالية تحدثنا عن نقطة ضعف أخرى: وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا (الإسراء 11)، وفي هذه الآية أيضا خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (الأنبياء 37)، وكأن هذه الآيات تريد أن تقول للإنسان بأنه لو أعطى نفسه فرصة للتأمل والتفكير، لما استعجل في اتخاذ قراراته وتصرفاته، ولكان باستطاعته تجنب كثير من الاخطاء، وربما ما زلنا نذكر ما قلناه في بداية هذا الكتاب لدى حديثنا عن أركان الإسلام، كيف تلعب العبادات دورا كبيرا في التخلص من نقاط الضعف لدى البشر، تماما كالتمارين الرياضية التي

تحافظ على لياقة الجسد وسلامته، كما جاء في هذه الآية الكريمة، والتي شرحناها بكثير من التفصيل، ولا حاجة للعودة إليها من جديد: إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (المعارج 19–25).

ومن نقاط الضعف أيضا، مواجهة الشدائد ومصاعب الحياة، كما تبينه لنا الآية التالية: وَإِذا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (يونس 12)، فالإنسان بطبعه يلجأ إلى الله في حالات الضعف والحاجة، لكنه ينسى في حالات الرخاء والقوة، كما في قوله تعالى: وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (هود 9–11).

ويعلمنا القرآن كيف نواجه الصعوبات عند حدوثها كما جاء في قوله تعالى: وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إذا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (البقرة 155–157)، فالإنسان الذي يملك العزيمة والإرادة والإيمان لا يسقط أمام التحديات والصعوبات، إن هذا السلوك يرفع الإنسان إلى الدرجات العلى ويصلي الله على الصابرين كما صلى على نبيه الكريم، بمعنى يرفع درجتهم جزاء على صبرهم ويغفر لهم وتغمرهم رحمته فيأتي الفرج ولو بعد حين، وهذا جزاء الإيمان والصبر، أَمّا في الآخرة فهذه الآية تبشرهم بما يكفي: إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (الزُّمَر 10).

وهكذا هي رحلة الإنسان في الحياة الدنيا، في مواجهة الغرائز والشهوات وكلّ نقاط الضعف لديه، فنراه ينتصر حينا وينهزم حينا آخر، فيناديه الإسلام ليخرجه من أوحال الخطيئة لكيلا يغرق فيها، ويفتح له باب التوبة على مصراعيه، كما جاء في هذه الآية: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقرة 257).

ولا بد ونحن نتحدث عن التوبة أن نزيل من الأذهان ما يعتقده الكثيرون ويردده البعض قائلين: "إنَّ الله غفور رحيم!"، لنؤكد لهم بأن التوبة إنما تكون لمن يعمل السوء عن جهل أو عدم معرفة، وليس عن سابق وعيٍ وإصرارٍ وتصميم، لكنه عندما يدرك أنه قد ارتكب خطأ، لا يلبث أن يبادر سريعا إلى التوبة، ودون تسويف أو تأجيل، وهذا ما تبينه الآية الكريمة: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (النساء 17–18)، ولنقرأ هذه الآية أيضا: وَالَّذِينَ إذا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (آل عمران 135).

إن مفهوم الحياة في الإسلام، كما بيناه أعلاه، سيقودنا إلى الحديث عن الحساب، ومن ثم عن الثواب والعقاب، وسنستعرض في هذا السياق مبدأ الوسطية في الإسلام، هذا المبدأ الذي يُعتبر بحق من أعظم وأهم المبادئ الإنسانية، والذي يحدد الاطار العام للقيم الإسلامية السمحاء، وسنرى بما لا يدع مجالا للشك أن اتباع هذا المبدأ في حياة الإنسان، يؤدي بشكل أكيد إلى نجاح الإنسان في عملية الاختبار التي يتعرض لها طوال حياته، ويصبح التمسك بها ربحا للحياة الدنيا وللآخرة، وهذا هو الفوز المبين، كما في قوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (الجاثية 30)، كما سأحاول على خلفية دراستي للعلوم المالية والإدارية، استعراض نظرية المؤسسات في العلوم الادارية ومقارنة ذلك بمبدأ الوسطية لإضفاء طابع عصري على الوسطية التي لم تلق ما تستحق من الاهتمام، رغم قيمتها الفائقة وصلاحيتها لكل زمان ومكان، فهي بدون مبالغة كنز لا يعرفه الكثيرون.

الحسيب

ذكرنا أعلاه أن الحياة الدنيا هي دار ابتلاء واختبار للإنسان في رحلة العمر التي قد تطول أو تقصر، وقلنا إن الإنسان مسؤول بمفرده عن أعماله وأفعاله، كما جاء في قول الله تعالى وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إلى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (الزُّمَر 7)، وعندما نتحدث عن الاختبار فلا بد من الحديث عن الأدلة والسجلات التي تُحصى بها أعمال كل

منا وتُسَجَّل، ولا بد من اعلان النتيجة، ومن ثم المحاسبة وتوزيع الجوائز، وفي استعراض هذا الموضوع سأترك لخيالي العنان والحرية، للتعبير عن خواطري وآرائي، وكلي أمل أن يشاركني القارئ هذه الخواطر، حتى وإن كان لا يوافقني الرأي، متمنيا أن لا أطيل الحديث، وسأبدأ بهذه الآيات التي تتحدث عن الحساب، كما في قول الله تعالى: وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (الإسراء 13-14)

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ * وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِي الصّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ * وَجَآءَتْ كُلّ نَفْسٍ مّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ * لّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (ق 16-22).

لا أدري لماذا، في كل مرة أقرأ هذه الآية الكريمة، يتبادر إلى ذهني جهاز الكمبيوتر، ولعل ترجمة الكمبيوتر بالحاسوب هي أول هذه الأسباب، ولعل السبب الثاني يعود إلى طابعة الحاسوب التي تطبع مئات بل آلاف الصفحات بشكل متواصل، والتي يمكن بعد ذلك طيها ككتاب لحفظها، أو نشرها لقراءتها، كما جاء في الآية الكريمة، والسبب الثالث يعود إلى ذاكرة الحاسوب التي تستطيع أن تخزن في خلايا معدنية صغيرة جدا، مليارات الأحرف الكتابية، وقد رأينا كيف استطاع الإنسان خلال عقد من الزمن أن يضاعف وبشكل هندسي قدرات التخزين الهائلة وما زال في بداية الطريق، فما بالك بخالق الكون الذي علّم الإنسان ما لم يعلم، ولنقرأ قوله تعالى وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر 21)

خلية من مادة السليسيوم من صنع الإنسان قادرة على تخزين مليارات الأحرف.	أوراق الطابعات التي يمكن نشرها وقراءة أو تصفح ما فيها.

إن هذه الملاحظات هي خواطر شخصية وليست تفسيرا، فكتب التفسير أفاضت في تفسير هذه الآيات الكريمة، ولكنني كما ذكرت في البداية، فإن الآية الأولى تذكرني بالحاسوب والآية الثانية تجعلني أتابع تخيلاتي أكثر وأكثر، ويخطر لي كأن الله سبحانه، قد أوكل إلى بعض الخلايا في عنق الإنسان وفي جسده، تسجيل أعماله بالصوت والصورة، ليخرجها له يوم القيامة فيرى أعماله دون زيادة ولا نقصان، فدعونا نسترسل معا في الخيال، ولنتصور ولو للحظات، كيف تقوم هذه الخلايا بتسجيل كل حركاتنا وسكناتنا، بل تذهب إلى أبعد من ذلك فتسجل كل ما يخطر في بالنا من فكر أو تمنيات، ولنطابق ذلك مع الآية الكريمة:

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ.

ويمكننا أن نتخيل دون عناء، أن خلية أو أكثر في الجهة اليمنى من العنق هي الرقيب، وأن خلية أو أكثر في الجهة اليسرى هي العتيد، وتأمل معي قول الله سبحانه: وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيد، وهل هناك أقرب من خلايا الإنسان إلى نفسه؟ ثم تابع معي هذه الرحلة الخيالية، وتصور يوم القيامة والبعث والنشور، وأكمل قراءة الآية إلى نهايتها، لّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ، وفي الآخرة، عند الحساب، ستتعرف على هذا السر العظيم، وتكتشف أنك كنت أنت الرقيب على نفسك، ودون أن تدري، فقد كنت في غفلة من هذا، فكشف الله لك هذا السر العظيم، فأصبحت ترى كل شيء بعينك فبصرك اليوم حديد!!

ولا أشك ولو للحظة واحدة، أن الله جل وعلا، قد جعل في كل جزء من الجسد، خلية أو أكثر، واختص كلا منها بوظيفة معينة، وهذا ما أراه في قوله سبحانه: الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (يس 65)، واقرؤوا معي إن شئتم آية أخرى حيث يصور لنا رب العالمين مشهدا من مشاهد يوم الحساب بقوله: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ

هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (الحاقّة 19–29).

وهكذا يمكننا القول، عبر هذه الخواطر، أن أعمالنا تُحصى لنا، وأن كل واحد منا هو الرقيب على نفسه، كما جاء في سورة القيامة: بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ، لأنه يعلم جميع أعماله فما الداعي لإخباره؟ وبما أن اطلاعه على جميع أسراره وأعماله دقيق وكثير وشامل، لذا تّم التعبير بتاء المبالغة كما في الآية الكريمة: "بل الإنسان على نفسه (بصيرة) ولم يقل بصير لأن حرف (التاء) في كلمة (بصيرة) هو مثل التاء في كلمة (علامة) التي تدل على المبالغة، فإذا قيل إن الشخص الفلاني علامة فهذا يعني أنه عالم كبير، وحين يقال (بل الإنسان على نفسه بصيرة) يعني أن الإنسان بصير جدا في ذلك اليوم على جميع أحواله وأقواله وأفعاله، ولنتفهم هذه الدقة في الحساب ونحن نقرأ قو الله تعالى في الآيات التالية:

وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (الأنبياء 47).

فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (الزلزلة 7–8).

وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (الكهف 49).

ولنتابع القراءة في آيات الله سبحانه: يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (المطففين 6–10)، وهكذا نرى أن هذا الكتاب، هو كتاب مرقوم، أي أن صفحاته مرقمة بشكل متسلسل لا يمكن لأحد أن يحذف منه شيئا، لأنه سِجلُّ أعمالنا المصَدَّقُ والمختوم، وقد تكفل رب العالمين بحفظه كما جاء في الحديث القدسي: "يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه".

وسواء كان السجل، في كتاب أو خلية أو غير ذلك مما قدره الله سبحانه، فإن النتيجة واحدة، وهي أن أعمال الإنسان مسجلة محفوظة وأنه سيحاسب على أعماله، والآيات التي تؤكد ذلك لا تحصى لكثرتها، نذكر بعضا منها لنختتم هذه الخواطر ونتابع المواضيع التالية، ومنها قول الله سبحانه: كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (المدثر 38)، كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (الطور 21)، وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (آل عمران 164)، مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (الجاثية 15)، والله أعلم.

نظرية المؤسسات

من المعلوم أن هدف أيَّ مؤسسة تنظيمية، سواء كانت شركة أو جمعية أو ما شابه ذلك، هو التأثير في سلوك الأفراد العاملين فيها وفي تصرفاتهم، لكي يعملوا في الاتجاه الذي يخدم أهداف المؤسسة وأن يساهموا في تحقيق هذه الاهداف.

وتتفق هذه النظريات على أن هدف أيَّ مؤسسة هو الحد من حرية العاملين فيها وتوجيههم للسير في الطريق الذي تريده! لكنها تختلف في طريقة تحقيق ذلك، ولقد حاولَتْ كثير من النظريات في هذا المجال أن تشرح أو تفسر الطرق التي تلجأ إليها هذه المؤسسات للوصول إلى هذا الهدف.

وسنستعرض هنا وباختصار، ثلاثة من هذه النظريات، وهي الأكثر شهرة واستعمالا في المجالات الإدارية، وسنقوم بعد ذلك باستخدام القياس لنرى كيف يمكن الاستفادة منها في شرحنا لمفهوم الجزاء في الإسلام في واقعنا المعاصر، آملين أن يساهم ذلك في القاء الضوء على فهم

متجدد للإسلام، الذي يعاني، بسبب الجهل والجمود، من نظرة ضيقة وفهم محدود، مما يجعله عرضة للتجريح والانتقاد، هو منها بريء، مما يزيد في سوء الفهم من البعض، وردّات الفعل من البعض الآخر، دون ترو أو تفكير، مما يجعلنا، بين الفعل وردة الفعل، نتيه في دائرة معيبة، نعرف كيف تبدأ ولا نعرف كيف تنتهي، وذلك لأننا لا نعرف مخاطبة الناس بلغتهم ومفرداتهم، فيغدو الحوار كحوار الطرشان، أو نوعا من الحوار الذاتي "المونولوغ"، الذي يعمق الجهل وسوء الفهم بين الأمم والشعوب، وكأننا نسينا أو تناسينا، عن جهل أو سوء فهم، قول الله سبحانه: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (الحجرات 13).

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (العنكبوت 46).

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (آل عمران 64).

ولنعد إلى النظريات الثلاثة لنتعرف إليها باختصار شديد ولننتقل بعد ذلك إلى موضوعنا الرئيسي لنشرح ما أردنا الوصول إليه عبر هذا القياس وتلك المقارنة آملين أن نوفق في ذلك بشكل مبسط ويسير.

نظرية البيروقراطية: تشير هذه الكلمة، كما عرفها الألماني ماكس فيبر، إلى المؤسسة التي تطبق اللوائح والقواعد والقوانين الداخلية بشكل دقيق، إضافة إلى تقسيم العمل ووضع تدرجات هرمية في المجال الوظيفي.

هذه النظرية تعمل باختصار على الحد من حرية العاملين، عن طريق القواعد والقوانين، لتجبرهم على التصرف بما يخدم أهداف المؤسسة، وتلجأ إلى العصا والجزرة لتحقيق هذه الأهداف، وتستخدم العقوبات بحق المخالفين والمكافآت بحق الذين يلتزمون ويطبقون هذه القواعد والنظم والقوانين، وهكذا كما يعتقد أصحاب هذه النظرية، فإن النجاح في تطبيقها ووضعها موضع التنفيذ يؤدي إلى نجاح المؤسسة واستمراريتها، كما أن عدم مراعاتها وتطبيقها بشكل صحيح، يؤدي إلى فشل المؤسسة وإفلاسها ومن ثم إلى موتها واختفائها.

نظرية السوق أو النظرية الليبرالية: تنطلق هذه النظرية من مبدأ جديد، وترى أن السوق، عن طريق "العرض والطلب"، هو الذي يحد من حرية العاملين في أي مؤسسة، وأن المؤسسة التي لا تتأقلم مع حاجات السوق، لن تجد تصريفا لبضائعها، مما يؤدي إلى إفلاسها وخروجها من السوق، وبهذا تلعب القوانين الطبيعية دور الحَكَم في تسيير عمل المؤسسات، لذلك نراها تنادي بمبدأ الحرية الاقتصادية، وتعتبر أن تدخل الدول والحكومات في عمل الأسواق، هو خروج عن هذه المبادئ، وأنه يجب أن نترك للسوق وظيفة تنظيم الفعاليات الاقتصادية.

النظرية الثقافية: اشتهرت هذه النظرية في الثمانينات من القرن الماضي، عندما بدأت كبرى الشركات الامريكية تطبيقها، وهي مستوحاة من النظريات التي كانت سائدة في اليابان في ذلك الحين، وأدت إلى نجاح ملحوظ في ادارة الشركات اليابانية مقارنة بغيرها في أماكن أخرى من العالم.

وتقوم هذه النظرية على مبدأ أن العاملين في المؤسسة، إذا كانوا يحملون نفس القيم، الثقافية والعلمية والاجتماعية، فإنهم سيرون بشكل متطابق الفرص المتاحة للمؤسسة، كما أنهم سيرون بشكل متطابق أيضا العوائق والتهديدات التي تواجههم، فيعملون معا على اغتنام الفرص والابتعاد عن الاخطار وكأنهم رجل واحد، مما يؤدي إلى نجاح المؤسسة في تحقيق أهدافها بشكل أمثل، لذلك فإن هذه المؤسسات تعمل على اختيار العاملين فيها على أساس القيم التي يحملونها، كما تعمل على نشر هذه القيم داخل المؤسسة عن طريق الدورات التدريبية والمنشورات الدورية التي تساهم في نشر هذه القيم واقناع العاملين بها وتأكيد انتمائهم لها وبيان أهميتها في نجاح المؤسسة وديمومتها.

ولن أدخل في نقاش هذه النظريات وصحة أو عدم صحة تحليلها وتفسيرها لما يجري على أرض الواقع، والحقيقة هي أن كل واحدة منها تجيب عن بعض النواحي في عمل المؤسسات، وقد أثبتت الدراسات أنه لا توجد مؤسسة تتبع نموذجا واحدا وفي كل الظروف، كما أكدت هذه الدراسات أن كل مؤسسة تستعمل مزيجا من هذه النظريات، وأن موقع المؤسسة يتغير باستمرار لأنها في حالة حركة دائمة لتتأقلم مع المحيط الذي تعمل فيه والذي بدوره يتغير باستمرار، لكنها قد تكون أقرب إلى إحدى الطرق في موقعها، ثم تنتقل إلى موقع آخر، محاولة في هذه الحركات المحافظة على توازنها وبقائها.

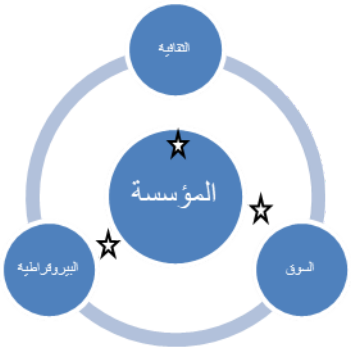

الوسطية في الإسلام

لعلنا لا نحتاج إلى شرح طويل لنبين أن الإسلام، كونه مؤسسة كباقي المؤسسات، قد جمع بين هذه النظريات الثلاث، فوضع القوانين وحث المؤمنين على الالتزام بها، وبَيَّنَ ما ينتظر احترامها وتطبيقها من أجر وثواب، وما ينتظر مخالفتها من جزاء وعقاب، فهو يشبه في هذا الجانب نظرية البيروقراطية، مع فارق هام هو أن البيروقراطية تؤدي إلى الجمود بسبب تطبيقها بحرفيتها والتمسك باحترام اللوائح والقوانين، وعدم اتخاذ المبادرة خوفا من الخطأ وتحمل النتائج، في حين نجد أن الإسلام يدعو بشكل متواصل إلى التأمل والتفكير لفهم القواعد والقوانين وتطويرها، وليس الالتزام بحرفيتها، كما جاء في الحديث الشريف "اختلاف أمتي رحمة"، وفي حديث آخر "إذا حكم الحاكم فاجتهد وأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر واحد"، مما يؤكد على حرية الفكر وتشجيع المبادرة دون خوف من العقاب كما هو الحال في البيروقراطية، ولأن الإسلام يأخذ بعين الاعتبار مبدأ النية كما جاء في الحديث الشريف: "إنما الاعمال بالنيات وانما لكل امرء ما نوى".

أما النظرية الليبرالية فهي تنادي بحرية السوق وحرية الأسعار، والاحتكام إلى الأسواق في تسيير عمل المؤسسات والعاملين فيها، وقد وجدنا أنه حتى في أكثر الدول ليبرالية، فإن تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية أمر ضروري تمارسه جميع الدول لتأمين الاستقرار وتجنب الفوضى والازمات! وكلنا يعرف كيف تلجأ هذه الدول إلى الضرائب لإعادة توزيع الثروات، فتأخذ من الغني لتعطي الفقير، وذلك من أجل الحفاظ على السلم الاجتماعي.

أما الإسلام فإنه يعتبر أن الحرية لا تكون إلا للإنسان، وأن الكون بكل ما فيه يسير حسب القوانين الإلاهية التي تحكم حركته وسلوكه، وأن على الإنسان أن يفهم هذه القوانين، ليجعلها في

خدمته، لأنه مستخلف في الأرض، وقد سخر الله له كل ما في الكون، ولعلنا ما زلنا نذكر قوله سبحانه: إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (الأحزاب 72)، وقد بينا بأن المقصود بالامانة هو "الحرية"، وقد أبى الكون كله أن يحمل هذه الحرية، فجعله الله مُسَخَّراً للإنسان، كما يقول تعالى أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأرض وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (لقمان 20)، وقد رأينا كيف فرض الإسلام مبدأ إعادة توزيع الثروات عن طريق الزكاة وإيرادات الدولة الأخرى، كما جاء في قوله تعالى: مَا أَفَاءَ اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَللهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ (الحشر 7)، ولنتذكر أن هذه المبادئ عمرها 15 قرنا وما زالت من أهم الوسائل المتبعة في عالم اليوم.

أَمَّا النظرية الثقافية فهي تلتقي مع أسلوب الإسلام الذي يجعل من الالتزام به نقطة مشتركة تجمع بين أفراده وتؤاخي بينهم، كما جاء في الآية التالية: وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (آل عمران 103)، لكن الإسلام يضيف إلى هذه النظرية بُعداً أخلاقياً، بحيث يمنع التعاون فيما فيه ضرر للآخرين، كما جاء في هذه الآية: وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (المائدة 2).

مما تقدم يتبين لنا أن الإسلام قد قدم نظرة جديدة وواقعية لحياة الإنسان، وفق فيها بين الدنيا والآخرة ولم يجعلهما على طرفي نقيض، وقدم للإنسان طريقة وفلسفة في الحياة، هي دون أدنى شك، قمة في الواقعية والمثالية في آن واحد، وأصبحت مقياسا للاتزان والتوازن في حياة الإنسان، ألا وهي "الوسطية"، وهذا ما سنشرحه في الفقرات التالية.

يقول المولى عز وجل وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (البقرة 143)، ومعنى "وسطا" أي عدلا ومعتدلا، وقد جاء في الحديث "خير الأمور أوساطها"، وفي حديث آخر "إن لكل شيء طرفين ووسطاً، فإذا أمسك بأحد الطرفين مال الآخر، وإذا أمسك بالوسط اعتدل الطرفان، فعليكم بالأوسط من الأشياء".

وقال الإمام الأوزاعي رحمه الله: "ما من أمْرٍ أمَرَ الله به، إلا عارض الشيطان فيه بخصلتين، لا يبالي أيهما أصاب: الغُلُوُّ أو التقصير"

وإذا حاولنا أن نفهم هذا المبدأ، فسنكتشف لماذا جعل الله من أمتنا أمة وسطا، وماذا يترتب على هذه الوسطية من سلوك ومواقف وقيم.

إنَّ أهم ما في الوسطية هو أنها إضافة إلى العدل والاعتدال ونبذ التطرف، فهي تقوم على مبدأ التسامح وقبول الاختلاف، ليس منّة ولا تفضلا، بل واجبا وواقعا لا يمكن إنكاره، وذلك لأنها تعرف من القوانين الطبيعية في الاحصاء، كيف يتوزع البشر حول المركز بحيث يتساوى فيه "الوسط والوسيط والمنوال"، كما سنراه بعد قليل، مما يجعل من تقبل الآخرين الذين يتوزعون حول الوسط، أمرا واقعا لا مفر منه، وكل ما تعمل عليه هو أن تدعوهم إلى عدم الخروج من الدائرة، وكلنا يعرف أن الواحد منا ينتقل من نقطة إلى أخرى، فهو في حركة دائمة، وتقدم مستمر، وهذه الحرية هي أمر أساسي في الإسلام، وقد رأينا كيف أنتجت هذه الحرية عدة مدارس فقهية قانونية، تموضعت جميعها ضمن الدائرة، فلم ينكر عليها ذلك أحد، بل رأينا أن هذه المدارس تُغيرّ موقعها بتغير الزمان والمكان، وهذا ما سنراه لدى حديثنا عن الاجتهاد.

إنَّ ما يجب أن نعيه منذ الآن، هو أن الإسلام قد حدد لنا إطارا عاما، دون الدخول في التفاصيل، وترك لنا حرية الاختيار، لنقف في النقطة التي تناسبنا، واننا بحكم الحركة والتقدم، لا بد ان نغير مواقعنا مع مرور الوقت، انما يظل هدفنا ان نقترب من الوسط لنحافظ على التوازن ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، ودون ان يكون لنا الحق بإصدار الاحكام حول الذين اختاروا موقعهم في نقاط مختلفة، ما دام الجميع ينتسبون إلى الإسلام، وأنهم ما زالوا ضمن الدائرة، فالاختلاف ليس حقا فقط، ولكنه واقع وضرورة، والحديث يقول "اختلاف امتي رحمة".

الفضيلة والوسطية

الوسطية إذاً، هي التوازن والاعتدال، وهي الوقوف بين طرفين، في المكان أو الزمان، في الصفات أو الأفعال، أما التطرف فهو الوقوف عند أحد الطرفين، يقول أفلاطون "الفضيلة وسط بين طرفين كلاهما إفراط وتفريط وكلاهما رذيلة"، وإذا طبقنا ذلك على فضائل الأمور فإننا نجد أن

"الحق" فضيلة وهو وسط بين الزيادة والنقصان وكلاهما رذيلة، وأن "الكرم" فضيلة وهو وسط بين البخل والإسراف وكلاهما رذيلة، و"الشجاعة" فضيلة وهي وسط بين الجبن والتهور وكلاهما رذيلة.

يقول ابن القَيِّم رحمه الله: ومن كيد الشيطان العجيب، أنه يختبر الإنسان حتى يعلم أي القوتين تغلب عليه: قوة الإقدام والشجاعة أم قوة الانكفاف والاحجام والمهانة، فإن رأى الغالب على النفس المهانة والإحجام، أخذ في تثبيطه وإضعاف همته وإرادته عن المأمور به وثقَّله عليه فهَّون عليه تركه حتى يتركه جملة، أو يُقصّر فيه ويتهاون به، وإن رأى الغالب عليه قوة الإقدام وعلو الهمة، أخذ يقلل عنده المأمور به ويوهمه أنه لا يكفيه وأنه يحتاج معه إلى مبالغة وزيادة، يقصر بالأول ويتجاوز بالثاني.

فقوم قصّر بهم عن الإتيان بواجبات الطهارة، وقوم تجاوز بهم إلى مجاوزة الحد بالوسواس. وقوم قصّر بهم عن إخراج الواجب من المال، وقوم تجاوز بهم حتى أخرجوا جميع ما في أيديهم وقعدوا كَلّاً على الناس.

وقَصَّرَ بقوم حتى أهملوا أعمال القلوب ولم يلتفتوا إليها وعَدّوها فضلا أو فضولا، وتجاوز بآخرين حتى قصروا نظرهم وعملهم عليها ولم يلتفتوا إلى كثير من أعمال الجوارح...

فالوسطية إذا هي الفضيلة وهي على النقيض من التطرف، إنها نقطة التوازن المثلى، التي يجب السعي نحوها والاقتراب منها ما أمكن، لننعم براحة النفس والضمير، ونجد الطمأنينة والسكينة والفوز في الدنيا والآخرة، وهذا ما يدعو إليه القرآن الكريم، حيث يجعل منها سلوكا واسلوبا يتبعه المؤمن في كل الأمور، ولنقرأ بعضا من هذه الآيات كما يقول الله تعالى:

وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (الإسراء 29)، وهنا دعوة ضد البخل والإسراف.

وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (الفرقان 67)، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (الأعراف 31)، وهي تأكيد للآية السابقة.

وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلاً (الإسراء 110)، وهي تأكيد على الاعتدال في كل الأمور حتى في الصلاة، يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ

قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلا (المزمل 1–8).

وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ (لقمان 19)، هي دعوة للتوسط في المشي بين التباطؤ والهرولة، ودعوة للتوسط في الحديث بين خفض الصوت وارتفاعه لكيلا نزعج الآخرين.

واخيرا نجد الدعوة إلى الاعتدال في الأمور كلها، كما في قوله تعالى: وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأرض إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (القصص 77).

ولقد اثبتت العلوم الإحصائية، كما في نظرية النهاية المركزية التي تقول بأنه إذا أضفنا عدداً كبيراً كبراً كافياً من المتغيرات العشوائية المستقلة والمتماثلة في التوزيع إلى بعضها بأي طريقة فإن توزيع المجموع سيكون تقريباً هو التوزيع الطبيعي ويتصف بانه:

• توزيع متصل، له شكل الناقوس. • تتساوى فيه مقاييس النزعة المركزية: الوسط والوسيط والمنوال.. • يحمل نسباً متساوية وثابتة من الوسط فجهة اليمين موجبة ويسارها سالبة.	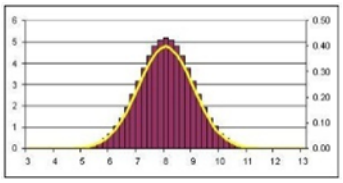

ومن كل ما تقدم فإننا نستطيع ان نستخلص أن الإسلام قد اختار لأتباعه موقعا وسطا، هو قمة الاعتدال، ودعاهم إلى الابتعاد عن الاطراف، لان من يعبد الله في الطرف "عَلَى حَرْفٍ"، فإنه مع اول زلة قدم، سيقع في الخطر ويخرج من الدائرة، في حين أن من يقف في الوسط، فإنه يتمتع بحرية كبيرة ودون أن يتعرض لخطر السقوط والضياع، وهذا ما عبر عنه القرآن في الآية التالية: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ، (الحج 11)، وكما جاء في الحديث الشريف عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إِنَّ الْحَلالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ.

ولا بد لنا قبل أن ننتهي من هذا الحديث أن نربط بين الوسطية ومبدأ الحساب والجزاء (الثواب والعقاب)، إذ لا بد أن نشير إلى أن النظرة للحياة تختلف تبعاً لإيماننا بوجود حياة أخرى من عدمه:

فمن يعتقد أن الموت هو نهاية الحياة وأنها حياة لن تتكرر، فإن المادة واللذة والشهوات تمثل القيمة الكبرى في حياته وتفكيره، وهي الجنة والنعيم، ويصبح الحرمان منها هو الجحيم والعذاب النفسي والجسدي الذي يرافقه طوال حياته، فهو يريد الحصول على كل شيء ضمن هذه الحياة، والجزاء عنده دنيوي، وهو عندما يستطيع تجنب العقاب فإنه يعتبر ذلك انتصارا وربحا.

ومن يعتقد ويؤمن بالحياة بعد الموت وبالبعث والنشور، فإنه ينظر إلى اللذة والحرمان بمنظار آخر، وقد يقبل برحابة صدر أن يضحي ببعض اللذات العابرة والقصيرة في هذه الحياة، مقابل نعيم أكبر في الحياة الآخرة، فهو كالطالب الذي يبذل الجهد وراء الجهد ويحرم نفسه من كثير من اللذات بهدف الحصول على شهادة تضمن له مستقبلا أفضل، وهكذا حال المؤمن، فهو يحاول التوفيق بين الحاضر والمستقبل، ويعرف أنه إذا استطاع الهروب من العقاب في هذه الحياة، فإنه سيُحاسَب امام الله رب العالمين، ولا يخفى على أحد أهمية هذا الاعتقاد وهذا الإيمان في استقرار الحياة واستتباب الامان والسلام في العالم. وقد حدثنا القرآن الكريم عن هذه المواقف كما جاء في الآيات التالية، يقول الله تعالى:

إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (المؤمنون 37)، وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (الجاثية 24).

ويقول سبحانه: إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (الإنسان 27)، ومعنى يحبون العاجلة، أي يحبون الحياة الدنيا وما فيها من لذة ومتعة، أمّا اليوم الثقيل فهو يوم الحساب في الآخرة، وكما جاء في هذه الآية أيضا: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا * كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (الإسراء 18-20).

لقد أكد الإسلام أن العدالة، والحساب، والجزاء، لن يكون كاملا ونهائيا إلا في الآخرة، أما الجزاء الدنيوي، الذي قد نراه من حين إلى آخر فإنه تذكرة لمن أراد ان يتذكر كما جاء في قوله تعالى: إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (الإنسان 29-31).

وسنستعرض بعض الآيات التي تؤكد على أن الحساب الكامل والعدالة النهائية إنما هي في الآخرة، ومنها قوله تعالى: وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإذا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (النحل 61)، وقوله أيضاً: وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإذا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (فاطر 45)، وكذلك: وَرَبُّكَ الغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ العَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (الكهف 58).

وهكذا نستطيع القول بكل واقعية، بأن الإسلام يرافق الإنسان في كل مراحل حياته، ويعترف بنقاط الضعف وبنقاط القوة لديه، ونراه يحاول دوما، أن يقنعه ويوجهه ويدله على أن الإيمان بالله هو الطريق الذي يؤدي إلى انتصار القوة على الضعف، وأن العبادات التي تَحَدَّثْنا عنها، هي الوسائل التي تساعده في الانتصار على رغبات نفسه الأمّارة بالسوء، وهكذا تكون الشرائع السماوية قد جاءت لتساعد الإنسان في بناء حياة متوازنة وسطية، أو لنقل إنها منهج وسطي بين الايثار والأنانية، بحيث يأخذ الإنسان من دنياه، دون أن ينسى الآخرة، لا يضحي بمصالحه ولا يستغل

الآخرين، فهو ككل إنسان جدير بإدارة حياته المادية، ينفق قسما من دخله لتلبية حاجاته وحاجات أسرته، ويوفر قسما ليؤمن حاجاته في فترة التقاعد، وبسلوكه هذا يكون قد ربح الدنيا والآخرة، وذلك هو الفوز الكبير، وآيات القرآن التي تبين ذلك كثيرة ومنها، قوله تعالى: وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأرض إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (القصص 77).

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (الأعراف 32–34).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (المائدة 87–88).

فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (آل عمران 148).

وكما جاء في الحديث عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم انه قال: "ليس بخيركم مَن ترك دنياه لآخرته، ولا مَن ترك آخرته لدنياه، إلاّ أن يتزوّد منهما معًا فإنّ الأولى مطية للثانية". وفي بعض الروايات "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا".

ولن يفوتنا في هذه المناسبة ان نشير إلى اهمية الوسطية في تشجيع عملية ترشيد الاستهلاك والحفاظ على الموارد الطبيعية، والقيام بعملية التنمية الشاملة والمتوازنة والمستدامة، دون أن يغيب عن أذهاننا أن الإنسان هو الهدف الأول والأخير لعملية التنمية هذه، وأن الله سبحانه قد استخلفه في الأرض وسخرها له، ليقوم بإعمارها لا بخرابها، فهو ليس في صراع مع الطبيعة، كما يقول البعض، بل هو في سعي دائم لفهم قوانينها واكتشاف خيراتها والاستفادة منها دون إسراف أو تبذير، فهي ليست له وحده وانما هي للأجيال القادمة أيضا، وهذا ما نجده واضحا في الآية المذكورة اعلاه، عندما توازن بين الدنيا والآخرة، وتمنع الإنسان من الفساد في الأرض، أي عدم افساد البيئة وعدم المبالغة في استغلالها لكي نسمح لها بالتجدد لتقديم الخير للإنسانية جمعاء،

وسنختم هذه الفقرات بهذه الآية حيث يقول تعالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأرض ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (المُلك 15).

الخلاصة

يقول الله سبحانه: وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (البقرة 48)، ويقول بعض العلماء أن آخر آية نزلت من القرآن الكريم هي: وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إلى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (البقرة 281)، وكأنها وصية الله الأخيرة للإنسان، وتذكرة له بيوم الحساب وبمسؤوليته أمام رب العالمين.

لقد أكد الإسلام على البعث والحساب ومن ثم على الجزاء الذي يشمل الثواب والعقاب، وجعل الجنة والنار الجزاء الأخير وربط ذلك بأعمال الإنسان، وليس أدل على ذلك من الآية التالية: لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً (النساء 123–124)، قال قتادة والسدي: "تفاخر المؤمنون وأهل الكتاب، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أحق بالله منكم، وقال المؤمنون: نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضي على سائر الكتب، فنزلت هذه الآية، ولعلنا نفهمها ونعيها ونتواضع في أحاديثنا ونحن نوزع الجنة على من نشاء ونحرّمها على من نشاء! متناسين أن الله هو من يحكم ويحاسب بعدله السماوي كما جاء في قوله سبحانه: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (الأنبياء 47).

ولا بد أن نلفت الانتباه إلى أنه في حالة العقاب كان التعبير في الآية السابقة عاما، اما في حالة الثواب فقد جاء التأكيد على أن ذلك يشمل الرجل والمرأة، سواء بسواء، ودون أي فرق في المعاملة، وسنعود إلى هذه النقطة لدى حديثنا عن وضع المرأة وحقوقها في الإسلام.

ولنقرأ بعضا من هذه الآيات الكثيرة، حيث نجد قوله تعالى: مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (فُصِّلَتْ 46)، إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (الكهف 107)، وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (طه

112)، إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (الكهف 30)، ولعل من ادق الآيات وابلغها بهذا الصدد هاتين الآيتين: فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (الزلزلة 7–8).

ويبقى السؤال الأزلي الذي يطرحه الناس جميعا، في كل مرة يجيء الحديث عن الحرية والمسؤولية والثواب والعقاب، سواء كان السائل مؤمنا يريد أن يطمئن كما في قصة نبي الله وخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام: قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي (البقرة 260)، أو كان غير ذلك يريد أن يجادل بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، هذا السؤال الذي شغل الفلاسفة منذ أقدم العصور، وزرع الفتنة بين تيارات الإسلام المختلفة وما زال، يتعلق بحرية الإنسان وهل هو مُخَيَّرٌ أم مُسَيَّر؟ وما دور القضاء والقدر في حياة الإنسان؟ وما هي حدود مسؤولية الإنسان عن أعماله؟ وغيرها من الاسئلة المصيرية والوجودية والتي تحتاج إلى أجوبة بسيطة، مباشرة، واضحة يفهمها عامة الناس قبل الخاصة، وبأسلوب بعيد عن الفلسفة وعلم الكلام، كما ذَهَبَتْ إليه التيارات الفكرية كالمعتزلة والاشعرية وغيرهم، وسأحاول عبر الفقرات القادمة الحديث عن القضاء والقدر بأسلوب بعيد عن المصطلحات الفلسفية والنظريات الفكرية المختلفة.

القضاء والقدر

القضاء لغة: الإحكام والإتقان وإتمام الأمر، قال ابن فارس في معجمه: "القاف والضاد والحرف المعتلّ (قضى)، أصلٌ صحيح يدلّ على إحكام أمر وإتقانه وإنفاذه لجهته".

وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم بمعان متعددة نذكر منها:

الأمر: قال تعالى: وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ (الإسراء 23)، أي أمر ووصى.

الحكم: كما في قوله تعالى: فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ (طه 72)، أي احكم بما تريد.

الأداء: في قوله سبحانه: فَإِذا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ (البقرة 200)، أي أدّيتم.

الإعلام: كما في قول الله تعالى: وَقَضَيْنَا إلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتَابِ (الإسراء 4)، أي أوحينا وأخبرنا وأعلمنا.

القدر لغة: يطلق على الحكم والقضاء، قال ابن فارس في معجمه: "القاف والدال والراء (قَدَرْ)، أصلٌ صحيح يدلّ على مبلغ الشيء كُنهَه ونهايته".

وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم بمعان متعددة نذكر منها:

القدر الذي هو العلم السابق: إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (القمر 49).

القدر هو قدرة الله على كل شيء: وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (الفرقان 2)، وكذلك وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (الحجر 21)، أي نظهره ونبرزه للوجود بحكمة وبقدر ما يحتاجه الخلق.

فالقدر: هو ما قدره الله سبحانه من أمور خَلْقِهِ، في علمه، فهو يتعلق بالمستقبل.

والقضاء: هو ما حكم به الله سبحانه من أمور خَلْقِهِ وأوجده في الواقع فهو يتعلق بالماضي.

ولن أدخل في شرح وتفصيل الآراء الكثيرة والمتشعبة عن هذا الموضوع والذي أدى إلى بروز مدارس مختلفة وتفسيرات متناقصة عبر التاريخ، فشرحها يحتاج إلى كتاب، ولكنني أحب ان اقول بشكل مبسط: بأن القضاء هو ما يتعلق بقانون كوني أو أمرٍ ما تحول إلى واقع، أي حدث وانتهى، فهو لا يمكن تغييره، وأَمّا القدر فهو ما يتعلق بما سيكون، أي أنه لم يحدث بعد، وهنا تكمن حرية الإنسان.

وعلى هذا فالإيمان بالقضاء والقدر يعني: الإيمان بعلم الله الأزلي، والإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة، وسنقوم بشرح مختصر لهذه المفاهيم المجردة وترجمتها إلى كلمات مفهومة وملموسة وبسيطة كما وعدنا.

الحرية والقضاء والقدر

سبق وبينا بأن الله سبحانه قد جعل من الحرية خاصة إنسانية، لم يعطها لأحد في الكون، حتى لملائكته في السماء، ورأينا أن الإنسان وحده قد قبل هذه المسؤولية، فَوُلِدَ حراً خلافا لكل المخلوقات، ولهذا كان بإمكانه إطاعة الله أو عصيانه، فأصبح مسؤولا عن أعماله وأقواله، وقد قال

الفقهاء: "إن العقل والحرية مناط التكليف"، ولهذا كان المجنون والصغير والمكره غير مسؤولين من الناحية الشرعية، وقد ربط الإسلام بين الحرية والمسؤولية، كما جاء في الحديث الشريف عن الرسول صلى الله عليه وسلم: "رُفِعَ عن أمتي الخطأ والنسيان وما استُكرِهوا عليه"، وقد عبر القرآن الكريم عن هذه الحرية بكل وضوح بقوله تعالى: وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (الكهف 29)، إنها حرية العقيدة التي لا يحق لأحد أن يُكره الآخرين عليها، وكما جاء في قوله تعالى: وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الأرض كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (يونس 99)، وكذلك في قوله سبحانه: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ (البقرة 256).

مما تقدم يتبين لنا بوضوح أن الإنسان حُرٌّ في اختياراته، وأن السؤال الذي يطرحه البعض عما إذا كان الإنسان مُسيّراً ام مُخيراً، إنما يعود لسوء فهم بعض الآيات والأحاديث النبوية، ولا بد أن نبين مصدر هذا الالتباس وسوء الفهم، عن طريق شرح مختصر للمفاهيم المتعلقة بالقضاء والقدر وهي: العلم، والكتابة، والمشيئة، والإيجاد، واعطاء مثال لشرحها:

العلم: هو الإيمان بأن الله تعالى عالم بكل صغيرة وكبيرة، وهو علم سابق لوجود الموجودات، ويقول الفلاسفة: سبق علمه به في سابق أزله، كما في قوله تعالى: وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأرض وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (الحجرات 16)

الكتابة: الإيمان بأن الله تعالى كتب مقادير كل شيء، سواء كتبها في اللوح المحفوظ كما يقول البعض، أو جعلها في قوانين كما يقول آخرون. وهذا ما جاء في قول الله سبحانه مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأرض وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (الحديد 22).

الإرادة والمشيئة: أي أنه لا يكون شيء في السماوات ولا في الأرض إلا بإرادة الله ومشيئته، ولا بد من وقوع ما شاءه سبحانه، يقول المولى عز وجل: إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ، وقوله: إِنَّمَا أَمْرُهُ إذا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (يس 82-83)، وما جاء في هذه الآية أيضا: وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (التكوير 29).

الإيجاد: فالله تعالى هو خالق كل شيء وموجده، كما جاء في قوله تعالى: قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (الرعد 16).

وفي ضوء هذه المفاهيم الاربعة سنشرح القضاء والقدر بشكل يزيل الالتباس وسوء الفهم، وسنضرب مثلا رجلين، أحدهما آمن والآخر لم يؤمن فنقول:

- إن الله سبحانه بعلمه الأزلي، قد علم أن الأول سيؤمن وأن الآخر سيكفر.

- كان بإمكان الله، أن ينتظر إيمان الأول وكفر الثاني ليسجل في كتاب كل منهما ما فعل، ولكنه لأنه يعلم ما سيحدث علما أكيدا، فقد سجل مسبقا في كتابهما ما سيحدث، فليست معرفة الله هي التي دفعت وأجبرت كل واحد ليتخذ قراره، بل إن كل واحد قد تصرف بحريته واختار الإيمان من عدمه، ولو وقف أحدنا أمام النافذة يراقب الشارع وفيه حفرة صغيرة، فرأى شخصا يسير في الطريق، فقال لمن حوله انظروا كيف سيقع هذا الرجل، فإذا وقع الرجل، فهل وقع لأننا قلنا إنه سيقع ام لأنه سار في هذا الطريق؟! إن كلامنا لم يؤثر إطلاقا في وقوعه، لكن هنالك فرقا بين ما قلناه وما كتبه الله سبحانه، فالله يعلم الغيب ولا يخطئ، أما كلامنا فيحتمل الخطأ والصواب، فقد كان من الممكن أن يغير الرجل رأيه ويعود من منتصف الطريق فلا يقع، ومن هنا جاء الالتباس وفهم الكثيرون أن ما كتبه الله يعني فرضه وألزمه وأجبر الإنسان على فعله! في حين أن الله عَلِمَهُ دون زيادة ولا نقصان، إضافة إلى أن الإنسان ليس عنده علمٌ بما قدر الله سبحانه وتعالى له، إذ أن هذا سرٌ مكتوم لا يعلمه الخلق، قال تعالى: وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (لقمان 34).

- إن الله سبحانه، الذي أعطى الحرية لكل إنسان، قبل بمشيئته أن يؤمن الأول ويكفر الثاني، ولو شاء لأجبرهم على الإيمان، ولكن عندها تنتفي المسؤولية، كما جاء في الآية التي ذكرناها أعلاه: وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الأرض كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (يونس 99)، وهنا نجد أن مشيئة الله سمحت حتى بالكفر والمعصية، ولكنها لم تأمر بالكفر والعصيان، ولعلنا هنا نجد تفسير قوله تعالى: وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (النحل 93)، والمقصود بقوله يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، خلافا لما يفهمه الكثيرون، هو أن هذا الشخص الذي لم يؤمن، قد آثر الغيَّ على الرشاد، والكفر على الإيمان، فأقرّه الله على مراده، وتمم له ما ينبغي لنفسه، فالعباد هم الفاعلون لفعلهم بقدرتهم واختيارهم، وقد نسب تعالى إليهم أعمالهم وأفعالهم، من إيمان وكفر، وطاعة ومعصية، وأنه تعالى مكنهم من هذا ومن ذاك، ولكنه حبب إلى المؤمنين الإيمان وزينه في قلوبهم، وكَرَّه إليهم

الكفر والفسوق والعصيان، وولّى الآخرين ما أرادوا لأنفسهم، حيث اختاروا الشر على الخير والمعصية على الطاعة وأسباب العقاب على أسباب الثواب

- واخيرا، فإن الله هو الذي أوجد الخير والشر، والكفر والإيمان، والليل والنهار، والصحة والمرض، والموت والحياة، وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة: وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (الصافات 96).

وسنورد هنا ما قاله الشيخ السعدي، رحمه الله، في شرحه لهذا الموضوع:

"إن الجميع يقولون بما جاء به الكتاب والسنة، من إثبات الأصلين:

أحدهما: الاعتراف بأن جميع الأشياء كلها، أعيانها وأوصافها وأفعالها بقضاء وقدر، لا تخرج عن مشيئة الله وإرادته، بل ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

والأصل الثاني: أن أفعال العباد، من الطاعات والمعاصي وغيرها، واقعة بإرادتهم وقدرتهم، وأنهم لم يُجبروا عليها، بل هم الذين فعلوها بما خلق الله لهم من القدرة والإرادة، ويقولون لا منافاة بين الأمرين، فالحوادث كلها، والتي من جملتها أفعال العباد، تتم بمشيئة الله وإرادته، والعباد هم الفاعلون لأفعالهم، المختارون لها، فهم الذين اختاروا فعل الخيرات وفعلوها، واختاروا ترك المعاصي فتركوها، والآخرون اختاروا فعل المعاصي وفعلوها، واختاروا ترك الأوامر فتركوها، فاستحق الأولون المدح والثواب، واستحق الآخرون الذم والعقاب، ولم يجبر الله أحدا منهم على خلاف مراده واختياره، فلا عذر للعاصين إذا عصوا وقالوا إن الله قدّرها علينا، فلنا بذلك العذر، فيقال لهم، إن الله قد أعطاكم المكنة والقدرة على كل ما تريدون، وأنتم بزيغكم وانحرافكم، أردتم الشر ففعلتموه، والله قد حذركم، وهيأ لكم كل سبب يصرف عن معاصيه، وأراكم سبيل الرشد فتركتموه وسبيل الغيّ فسلكتموه..."

الاحتجاج بالقضاء والقدر

كتب محمد إقبال يقول: "المسلم الضعيف يعتذر بالقضاء والقدر، والمسلم القوي هو قضاء الله وقدره".

يثير كثير من الناس، عن جهل أو عن قصد، موضوع القضاء والقدر، ليبرروا سلوكهم وتقصيرهم، قائلين بأن هذا قدرهم، وأنهم لا يستطيعون رد القضاء والقدر، مما يسمح لهم أن يستمروا في تكاسلهم وتواكلهم وعدم القيام بأي جهد لتغيير واقعهم وإصلاح نفوسهم، ويرددون كما قال المشركون من قبل: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (الأنعام 148)، هؤلاء يتناسون قول الله سبحانه: إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ (الرعد 11)، وقوله تعالى: وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ (التوبة 105)، ولذلك سنحاول الإجابة على هذه الشبهات بأربع قواعد:

القاعدة الأولى: أن علم الله الأزلي محيط بكل شيء، ما كان وما سيكون، فكل الأمور تقع بمقتضى علمه ودون استثناء.

القاعدة الثانية: أن الله غنيٌّ عن العباد، لا تنفعه طاعة المطيع كما لا تضره معصية العاصي، فهو ليس بحاجة إلى العباد حتى يجبرهم أو يعذبهم بغير ذنب يستحقون العقاب عليه.

القاعدة الثالثة: أن الله تعالى لا يظلم، وقد حرم على نفسه الظلم، بقوله: إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (يونس 44).

القاعدة الرابعة: أن الله سبحانه ربط المسؤولية بأمور أربعة هي:

لا يكلف الله إلا البالغ العاقل، فالصغير والمجنون ليسا محل تكليف.

الحرية والإرادة: فالمكره والمضطر ليسا مسؤولين عن أعمالهما، وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة: إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (البقرة 173)، وما جاء في الحديث الشريف حيث يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "رُفِعَ عن أمتي الخطأ والنسيان وما استُكرهوا عليه".

القدرة: فالعاجز عن فعل الشيء المطلوب، غير مطالب به، كما جاء في قوله تعالى، لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ (البقرة 286).

إرسال الرسل وإنزال الكتب السماوية ليبيّن للناس الحق من الباطل، كما في هذه الآيات: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (المائدة 19)، وقوله سبحانه الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (البقرة 1–2).

الخلاصة

إن الله سبحانه خلق الإنسان وأعطاه الحرية والعقل والإرادة والقدرة على الاختيار، وجعل الاختيار مع وجود العقل وعدم الإكراه مناط التكليف، لذلك قال الفقهاء أن الله برحمته "إذا أخذ ما أوهب أسقط ما أوجب"، وقد بينا في أماكن كثيرة أن الله سبحانه قد وضع في الإنسان قابلية الخير والشر، وهذا هو جوهر الحرية، أي القدرة على الاختيار بين شيئين، قال تعالى: وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (الشمس 7–10)، وقال أيضا: وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (البلد 10)، أي سبيل الخير والشر، وكذلك إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (الإنسان 3)، كما نجد في القرآن الكريم كثيرا من الآيات التي تؤكد على حرية الاختيار ومنها أن الله تعالى يبين الطريق ويدل عليه وعلى الإنسان الاختيار بين أن يقبل أو يرفض:

وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى (فُصِّلَتْ 17)، والمعنى بَيَّنَّا لَهُمْ. مما يعني أن الهداية هي بيان وإرشاد للحق.

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (محمد 25)، وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (محمد 17)، فالاختيار في أن يسلك الإنسان طريق الخير أو الشر هو بيده كما جاء في الآيات الكريمة: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (يونس 108)، فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (الصف 5)، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأرض أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (البقرة 26–27).

الفصل السادس
العبادات والمعاملات

ذكرنا في حديثنا عن الإسلام وأركانه الخمسة بأن الدين هو علاقة الإنسان بربه، وقلنا أيضا بأن العبادات هي علاقة فردية بين الخالق والمخلوق، وأنها تظل أمورا شخصية، كما جاء في الآية الكريمة: إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا (الإسراء 7).

ثم تحدثنا عن علاقة الإنسان بالإنسان، وصنفناها بالمعاملات، وقلنا إنها تؤثر في الآخرين وتتأثر بهم، وتتطور مع تطور الفكر البشري والحضارة الإنسانية والمدنية المعاصرة، وسنحاول في هدا الفصل إيضاح الفرق بين علاقة الإنسان بربه، وعلاقته بنفسه وبالآخرين، وعلاقة ذلك بالدين والشريعة، وذلك لنرسم بشكل واضح وبيّنٍ الحدود بين ما هو دينيٌّ أو إلاهيّ مقدس، وما هو دنيويٌّ أو بشريّ وبين ما هو سياسي وروحي، وسيقودنا هذا الحديث للتفرقة بين الدستور والقانون في مجال التشريع، لنصل أخيرا إلى الحديث عن الاجتهاد في الإسلام الذي توقف منذ القرن الثاني عشر للميلاد، ولم يعد إلى وضعه الطبيعي منذ ذلك الحين، رغم العصر الذهبي الذي عاشه قبل ذلك ولعدة قرون.

إن الشريعة الإسلامية تهتم بحياة الإنسان الدينية والدنيوية، ولذلك فقد نَظّمت العلاقة بين العبد وربه في مجال العبادات بحيث تتناول التزام المسلم بأداء الفرائض والشعائر الدينية التي تم جمعها في أركان الإسلام الخمسة التي شرحناها سابقا، كما نظمت العلاقة بين الناس بعضهم مع بعض في مجال المعاملات، والتي تشمل جميع العلاقات الإنسانية.

ولا بد من الاشارة منذ الآن إلى أن هذا التصنيف إنما يهدف إلى فهم كل منهما بشكل واضح ومفصل، مع التأكيد على أن سلوك المسلم في كلا المجالين، يجب أن يكون منسجما مع مبادئ الإسلام ومقاصد الشريعة التي ترتكز على أصول ومبادئ عامة منها:

"مصلحة المجتمع والإنسان، الحرية، حقن الدماء وصيانة الأموال، احترام العقائد، التيسير على الناس ومنع الإضرار بهم، إحقاق الحق والعدل والمساواة بين الناس جميعاً، درء المفاسد وجلب المصالح، الوفاء بالعهد وعدم الغش"، وما إلى ذلك مما تستدعيه الحاجة ويقره المنطق السليم.

وقد ذكر الإمام الشاطبي أن الإسلام يحرص على حفظ خمسة أشياء، سماها الضرورات الخمسة وهي: "حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل"، وأكد العلماء على أنها قيم مشتركة بين جميع الشرائع والملل.

العبادات

إن مفهوم العبادة في الإسلام، كما بيناه، مفهوم واسع وشامل يتعلق بكل جوانب الحياة، ذكرها الله سبحانه في بيان الغاية من الخلق بقوله: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (الذاريات 56). فالعبادة هي قبل كل شيء طاعة للخالق جل وعلا، كما جاء في هذه الآية: قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (الأنعام 162).

لكن العبادة كما قلنا هي هذه الرابطة أو العلاقة بين العبد وربه والتي تقوم على التسليم والقبول بوحدانية الله ثم تتوسع لتشمل كل العبادات المنصوص عنها في أركان الإسلام الخمسة. فهي موقوفة، وَصَلَتْ إلينا بطريق النقل، يُشترط في أدائها النية، وأن تكون خالصة لوجه الله، والرسول يقول: "صلوا كما رأيتموني أصلي" وفي حديث آخر "خذوا عني مناسككم"، ومن هنا يمكننا القول بأنه ليس هناك اجتهاد في العبادات، وأن دور الفقه ينحصر في تفسير نصوص الشريعة، واستنباط الأحكام المنظمة لها وتوضيح كيفية ادائها، ويُرجع إليه في تفسير العبادة وشروطها وتفاصيلها.

المعاملات

أما المعاملات فهي تشمل جميع العلاقات الإنسانية القائمة على أساس من العدل والاحسان، في البيع والشراء والزواج والمواريث والحدود وغيرها، مما لا يدخل في باب العبادات، وقد بُنِيَتْ على أساس المصالح الكبرى في الدين، والتي عليها مدار الشرائع السماوية وهي بترتيب الأولوية:

درء المفاسد، وتُسَمّى الضرورات.

جلب المصالح، وتسمى الحاجات.

اتباع مكارم الأخلاق، وتسمى العادات أو العرف

ولذلك قال العلماء: "دَرْءُ المفاسد مُقَدَّمٌ على جلب المصالح"، وجعلوا منها قاعدة فقهية.

وللشرح سنضرب مثلا للمعاملات، بالبيع الذي هو: مبادلة مال بمال من أجل التملك، فالناس فيه ثلاثة أقسام:

فمن الناس من يبيع بالعدل، ومنهم من يبيع بالظلم، ومنهم من يبيع بالإحسان فالذي يبيع بالعدل هو الذي يعطي الشيء ويأخذ ثمنه فلا يَظلم ولا يُظلم.

والذي يبيع بالظلم والجَور كالغشاش والكذاب والمحتكر ونحوهم.

والذي يبيع بالإحسان هو من كان سمحاً في البيع والشراء، ويُمهل في القضاء، ويُبادر بالوفاء، ولا يزيد في الثمن، وهذا أفضل الأقسام، كما جاء في حديث جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا إذا بَاعَ وَإذا اشْتَرَى وَإذا اقْتَضَى".

وهكذا نرى أن الاحسان مبدأ عام وشامل، يصاحب الإيمان والعدل وكل التصرفات، فهو المعيار الذي يرافق السلوك والتصرفات الإنسانية، ليعدّلها ويُخفّف من غلوها ويُقرّبها من الوسطية، ولا أبالغ إذا قلت بأن الاحسان هو ملح الطعام الذي لا بد منه لكي يكون لما نأكله مذاقا طيبا وطعما مستساغا.

إن النظام الإسلامي، بدون أدنى شك، نظام يتمتع بالمرونة ويتيح القيام بعمليات الإصلاح والتطور والتجديد، مراعاة لظروف الحياة والمجتمعات التي يقتضيها تغير الزمان والمكان، وقد حقق ذلك على أرض الواقع بشكل لم يحدث في التاريخ من قبل، فأنشأ نظاماً قائما على العدالة والمساواة بأجمل صوره، وهذا ما سنراه في الفقرات اللاحقة.

وهكذا يمكننا أن نقول بشكل مختصر، بأن العبادات تتعلق بالأمور المرتبطة بالعقيدة، وهو الجانب الإيماني الذي يتطلب إيماناً ويقيناً ثابتا لا يتزعزع بالله سبحانه وتعالى، وهذا من الدين، ولذلك فهو لا يتغير، في حين أن المعاملات تتعلق بأمور دنيوية، وهو الجانب المادي من العلاقات البشرية، وهذا من الشريعة، وبالتالي فهو خاضع للزمان والمكان وقابل للتغيير، وبرأيي فكله اجتهاد، شريطة أن لا يتعدى حقاً من الحقوق الخاصة أو العامة، وأن يُراعي المبادئ العامة التي أقرها الشرع الحنيف، كما في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ (المائدة 1)، وقوله سبحانه وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا (البقرة 275)، أو كما جاء في الحديث "الناس عند شروطهم"، الا ما حَلّلَ حراماً أو حَرَّمَ حلالاً، وسنعود لشرح ذلك بالتفصيل.

مما تقدم نستطيع أن نقول بأن الإسلام قد وضع خطوطاً ومبادئ عامة لتنظيم المعاملات، التي تعتمد على قوانين السببية والعلية، ومن ثم فهي قابلة للتغيير تبعا للزمان والمكان، وهذا لا ينطبق على جانب العقيدة، أي العبادات، التي تنظم العلاقة بين الخالق والمخلوق، ولذلك اعتبر كثير من الفقهاء أن الأصل في المعاملات التعليل، والأصل في العبادات التعبد لا التعليل، وهذا ما يفتح مجال الاجتهاد في المعاملات دون العبادات التي ينحصر البحث فيها بقراءة النصوص وشرحها وتفسيرها كما قدمنا، وهذا ما يشير إليه الحديث الشريف: "بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وحج البيت".

فالإسلام كدين، لم يُبْنَ على شيء من الجوانب المادية، كالبيع والشراء وغيرها من الأمور الدنيوية، بل على أركان الحياة الروحية الدينية الثابتة والتي لا تخضع للتبديل والتغيير، فالصلوات الخمس تبقى كذلك وفي أوقاتها التي حدّدها الرسول الكريم، وشهر رمضان سيبقى كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها وكذلك بقية الأركان.

الدستور والقانون

تعتمد الدول الديمقراطية والمتقدمة على أسس تشريعية مؤسساتية واضحة، يتم فيها الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، وتتبنى دستوراً نابعاً من تاريخها وحضارتها والقيم السائدة فيها، وهذا الدستور يحدد المبادئ العامة التي يقوم عليها العقد الاجتماعي، ويشكل الإطار الذي يحدد شكل الحكم وطريقته والقيم الهامة التي تقوم عليها الدولة.

وتقوم السلطة التشريعية، البرلمان، بِسَنِّ القوانين التفصيلية اللازمة لإدارة الدولة وتأمين حسن سيرها، وقد انشأت أكثر هذه الدول هيئةً أو مجلساً دستورياً، مهمته التأكد من انسجام القوانين الجديدة مع الدستور وعدم مخالفتها له، وكثيرا ما نرى المجلس الدستوري يعترض على بعض القوانين، إما لأنها تخالف الدستور بأحد المواد الواردة فيه، أو لأنها تخالف روح الدستور ومبادئه العامة، مما يضطر الحكومات إلى سحب هذه القوانين نهائيا أو إعادة صياغتها في ضوء ملاحظات المجلس الدستوري.

وقد يحدث أن الدولة تريد إصدار قانون جديد، تعرف أنه يتعارض مع الدستور، ولكنه يُعَبِّرُ عن حاجاتٍ جديدة للمجتمع أو لفئة منه، فتعمل عندها إلى تعديل الدستور، إمّا عن طريق استفتاء شعبي، لأن الشعب هو مصدر السلطات، أو عن طريق البرلمان ومجلس الشيوخ، شرط حصوله على موافقة ما لا يقل عن ثلثي المجلسين (هذا المثال من النظام الفرنسي).

وإذا كان هذا هو الحال في هذه الدول، فكيف تتم الأمور في الإسلام القائم على الشريعة والذي يصعب فيه رسم الحدود بين ما هو إلاهي ديني وما هو بشري دنيوي؟ هذا ما سنحاول مناقشته في الفقرات القادمة.

الشريعة

في حديثنا عن الشريعة، في الفصل الاول، قلنا إن كلمة الشريعة في أصل اللغة تطلق على معنيين الأول: مورد الماء أي الطريق الموصل إلى الماء، والثاني: مكان تجمع الماء ولا يسمى مكان تجمع الماء في لغة العرب شريعة إلا إذا كان سهلا منبسطا يُؤخذ منه الماء دون مشقة.

اما الشريعة في الاصطلاح فتطلق على معنيين:

أصول الدين، أي العقيدة والعبادات، التي تشترك بها كل الرسالات السماوية.

فروع الدين ومسائل العبادة الداخلية فيه التي تستقل بها كل رسالة عن غيرها.

لذلك كانت الأحكام الشرعية على قسمين:

أحكام شرعية اعتقادية (التوحيد) تشترك بها كل الشرائع السماوية وهي من الدين.

أحكام شرعية عملية (الفقه) وهي قد تختلف من شريعة إلى أخرى من حيث أحكام العبادات، والمعاملات، والشهادات، والجزاء المحدد في الجنايات، ونظم المواريث، فلكل شريعة أحكامها الخاصة بها.

وهذا ما نجده في قول الله سبحانه: لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا (المائدة 48)، أي طريقا وسنة لتسلكوه، وقد قال الفقهاء "شرع من قبلنا شرع لنا إذا لم يخالف شرعنا"، ويقصدون بذلك القسم الثاني من الشريعة، ولأن كل شريعة إنما أتت لتكمل ما قبلها، فإذا لم تتغير الأحكام السابقة بنصوص جديدة، فهي تظل صالحة للشرائع التي تأتي بعدها، وكثيرا ما نجد ذلك في القرآن الكريم كقوله تعالى: مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأرض فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا (المائدة 32)، وهذه الآية تأكيد على أن هذا التشريع باقٍ، وهو شرعٌ للمسلمين أيضا.

فالشريعة إذا، هي مجموعة من الأُطر والمبادئ العامة والأنظمة التي وضعها الله لخدمة الإنسان وتنظيم حياته وتسهيلها، ولكي يعيش المؤمنون على نهجها وينظموا حياتهم وفق أحكامها، كما في قوله تعالى: يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْر (البقرة 185)، وقد رأينا في حديث السيدة عائشة رضي الله عنها أن النبي عليه الصلاة والسلام "ما خُيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما"، ولهذا يجب أن نضع نصب أعيننا أن الشريعة والنصوص الشرعية إنما جاءت لتحقيق مقاصد الشارع الحكيم، التي تدعوا إلى الحفاظ على مصالح الإنسان ودفع المفاسد عنه، وأن القوانين يجب أن تكون منسجمة مع مبادئ الإسلام ومقاصد الشريعة التي ترتكز على هذه الأصول والمبادئ العامة، وهي نفس المبادئ والأسس الثابتة في تشريعات الدول الحديثة والديمقراطية والتي يستقي منها المشرع العصري القوانين والأحكام، وفي حين أن المبادئ تظل ثابتة راسخة لا تتغير بتغير الزمان والمكان، إلا أن القوانين المنبثقة عنها تتغير وتتطور حسب الحاجة وحسب تقدم الدول وتطورها، وعلينا أن لا ننسى أن

هذه القيم العالمية في الإسلام، إنما جاءت إلى البشرية قبل 15 قرنا، وقد ذكرنا في المقدمة أهم هذه المبادئ فلا داعي لتكرارها.

مصادر التشريع

اعتمد التشريع الإسلامي في بدايته على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وكان هذان المصدران كافيين للإجابة عن حاجات المجتمع في ذلك الحين، ولكن تطور الحياة واتساع الدولة والاختلاط بالحضارات الأخرى، وَلَّدَ حاجاتٍ جديدة وطَرَحَ أسئلة في أمور لم يعرفها المسلمون من قبل، وظهرت معاملات ومشكلات جديدة، ولم يتأخر رد علماء المسلمين، فنشأت المدارس الفقهية وأشهرها: المالكية، والحنبلية والشافعية والحنفية، ونشأ علم جديد هو علم "أصول الفقه" الذي يُعنى باستنباط الاحكام والقوانين بما يتلاءم مع الشريعة ومصادر التشريع الاربعة التي اعتمدها هذا العلم وهي: القرآن، السنة، القياس والإجماع.

فالشريعة مصدرها الأساسي هو القرآن الكريم، وما لا يوجد في القرآن الكريم نبحث عنه في السُنَّة النبويّة، فإن لم يوجد في السُنَّة، نستخدم العقل في القياس عليه إذا وجدنا رأيا في حالة مشابهة، فإذا لم نجد، تم اللجوء إلى الإجماع، أي الأخذ برأي الجماعة، لقوله صلى الله عليه وسلم "لا تجتمع أُمَّتي على ضلالة"، ورُوي عن عبد الله بن مسعود قوله: "ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن".

وقبل أن نشرح هذا الموضوع، ولكي تكون الأمور واضحة ومقبولة من الجميع، فإننا سنورد بعضا من آراء كبار العلماء، الذين أكدوا منذ زمن طويل أن الأحكام تختلف باختلاف الزمان والمكان، وقد فَسَّرَ الفقيه الحنفي ابن عابدين تغير الاجتهاد بتغير العصور والأزمان بقوله: "هذا اختلاف عصر وزمان، لا اختلاف حجة وبرهان".

يقول ابن عابدين: "كثير من الأحكام يختلف باختلاف الزمان لتغير عُرف أهله، أو لحدوث ضرورة، أو فساد أهل الزمان، بحيث لو بقي الحكم على ما كان عليه، لأصاب الناس بالمشقة والضرر، ولخالف قواعد الشريعة الإسلامية المبنية على التخفيف والتيسير ورفع الضرر والفساد".

ويقول الفقيه الحنبلي ابن القيم: "إن الشريعة معناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها، وكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، أو من الحكمة إلى العبث، ليست من الشريعة وإن أُدخلت فيها بالتأويل".

ويقول القرافي، الفقيه المالكي: "إن جميع أبواب الفقه المحمولة على العوائد، أي العادات، تتغير أحكامها إذا تغيرت هذه العوائد".

وهكذا نستطيع القول، ودون أن نأتي بجديد، بأن الأحكام المرتبطة بالمعاملات تتغير وتتطور بتغير الظروف والمعارف والحاجات، وذلك أمر ضروري، والقول بعكس ذلك هو تقييد للشريعة ومخالفة لأهم مبادئها ولتعريفها، ألا وهو اليسر، وهذا ما تشير إليه الآيات التالية في قوله تعالى: يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْر (البقرة 185)، وقوله أيضا: لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا (البقرة 286)، وكذلك: وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ (الحج 78)، وقد جاء في الحديث الشريف: "بُعثتُ بالحنفية السمحة"، وقد سبق ورأينا أنه يجوز للإنسان، في حال الضرورة، أن يخالف ما نص الكتاب والسنّة على وجوبه أو تحريمه، دون أن يكون في ذلك مخالفة منه للشريعة، وهذا ما تشير إليه هذه الآية فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (البقرة 173)، وكذلك قوله سبحانه فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (المائدة 3).

ولكيلا نُحمّل الضرورة أكثر مما يجب، فلا بد أن نشير إلى القاعدة الفقهية التي تقول: "الضرورة تُقَدَّرُ بقدرها"، وهذا ما نجده في القوانين المدنية في كثير من الدول تحت اسم "الأسباب المخففة للمسؤولية"، وهذه حالة تختلف عن القيام بالفعل "عن سابق وعي وتصميم".

إن إيماننا بأن الشريعة الإسلامية شريعة خالدة ترتكز على مبادئ عليا أساسها العدل والاحسان، وأنها جاءت لخير الإنسان، وأنها تمتاز بروح المرونة وبقدرتها على متابعة ومرافقة تطور الحياة والمجتمعات، حتى لا تُصاب بالجمود والتقهقر، يجب أن لا يمنعنا من الاعتراف بوجود بعض الأحكام الدخيلة على الشريعة، والنابعة من التعصب والجهل، وهي بحاجة ماسة إلى المراجعة والدراسة لإعادة النظر فيها، وإعداد قائمة بما لا يتفق منها مع العقل، أو لا يقدم الجواب الملائم لحاجات الإنسان في عصرنا الحاضر، ولا يكون ذلك إلا بتشكيل لجان مختصة في مجالات العلوم المختلفة، وهذا ما سنراه لدى كلامنا عن الاجتهاد وشروطه.

الاجتهاد

الاجتهاد لغة: مأخوذ من الجُهد وهو بذل الطاقة أو الوسع، يُقال بَذَلَ كُلَّ ما في وسعه، قال تعالى: وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ (التوبة 79)، وقال أيضا: وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ (النحل 38)، وكلها تفيد الجهد والمشقة.

الاجتهاد شرعا: أي في مصطلح الفقهاء، هو بذل الجهد واستخدام الرأي للوصول إلى حكم فقهي، أو هو استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، وقد جاء في الحديث عن معاذ بن جبل ان رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بَعَثَهُ إلى الْيَمَنِ قَالَ لَهُ: "كَيْفَ تَصْنَعُ إِنْ عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ؟ قَالَ أَقْضِي بِمَا فِي كِتَابِ اللَّهِ، قَالَ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ قَالَ فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ، قَالَ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ؟ قَالَ أَجْتَهِدُ رَأْيِي لا آلُو، قَالَ فَضَرَبَ بِيَدِهِ فِي صَدْرِي وَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ لِمَا يَرْضَاهُ رَسُولُ اللَّهِ".

وآيات القرآن كثيرة في هذا المجال نذكر منها قوله تعالى: وَإِذا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أذاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إلى الرَّسُولِ وَإلى أُولِي الأمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ (النساء 83).

ولعلنا نجد مصدر الاجتهاد في القرآن الكريم في الآية التالية: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (العنكبوت 69)، وهذه الآية لا تتحدث عن الجهاد كما يفهمها البعض، بل عن الاجتهاد، أي مَن اجتهد في الوصول إلى الحق يسره الله له، فقد وعد الله المجتهدين بأن يرشدهم سبيل الحق والفهم الصحيح لأحكام الشريعة المؤدية إلى الطريق الذي ارتضاه الله لعباده، والذي أكدنا مرارا بأنه الصراط المستقيم.

وأخيراً فلنقرأ قوله تعالى وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (البقرة 282)، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "من عمل بما علم، علمه الله ما لم يعلم".

وقد اجتهد الصحابة رضي الله عنهم في معرفة الأحكام الشرعية، واجتهد التابعون ومن بعدهم العلماء، وظلت هذه حال الاجتهاد حتى القرن السادس الهجري (الثاني عشر للميلاد)، وعندما بدأ الحكام يتدخلون في القضاء والإفتاء لتبرير قراراتهم وتصرفاتهم وسياساتهم أمام الناس،

دعا العلماء إلى وقف باب الاجتهاد، حماية للشريعة من تأثير السلطة التنفيذية ومنعا من التلاعب بالنصوص والأحكام الشرعية باسم الاجتهاد، ورغم أن هذا الموقف إنما جاء من غيرة العلماء وخوفهم على الشريعة في ذلك الحين، إلا أن هذا الموقف لا يتفق مع الشريعة لا نصّاً ولا روحاً، وأنه أمام حركة النمو والتطور، وبروز الحاجات الجديدة والمصاعب التي لم نتعود عليها من قبل، وفي ظل إغلاق باب الاجتهاد يطرح السؤال نفسه: هل الشريعة الإسلامية قابلة للتطور؟

ورغم ان الجواب سيكون بنعم دون أدنى شك، فإن الموضوع ليس بهذه السهولة التي يتصورها البعض، لأن الاجتهاد يتطلب فكراً حراً، ثاقباً ومستقلاً، وشجاعة أدبية تحظى بقبول ورضى الغالبية، لكي لا نقول الجميع، مع مراعاته لنظرة الإسلام العامة والشاملة، وحرية الفكر الكامنة في الروح الإسلامية، تماما كما فعل الائمة أبو حنيفة وابن مالك وابن حنبل والشافعي رضي الله عنهم أجمعين.

إنَّ السؤال الذي يطرح نفسه لدى الحديث عن الاجتهاد، ينبع من القاعدة الفقهية القائلة: "لا مساغ للاجتهاد في موارد النص"، ومعنى ذلك "أنه لا يجوز ولا يصح الاجتهاد في حكم مسألة ورد بشأنها نص صريح من القرآن الكريم أو السنة الصحيحة أو الإجماع الثابت"، فهل يشمل ذلك العبادات والمعاملات أم العبادات وحدها؟

الحقيقة أن الآراء مختلفة جدا في هذا الموضوع، ولذلك تبدو الإجابة على هذا السؤال صعبة بعض الشيء، وليس من السهولة بمكان إبداء رأي قطعي في هذا الشأن، وذلك لأن الجواب بالنفي يوقف باب الاجتهاد، في حين أن الجواب بنعم، يعني أنه يجوز لنا في مجال المعاملات، أن نخالف نصا صريحا سواء كان من القرآن أو السنة أو مما أجمع عليه الصحابة أو ما ورد في المذاهب الفقهية المعروفة!

ولا يخفى على أحد عمق المسؤولية المرتبطة بهذا الجواب، وهذا ما يفسر اختلاف الآراء في موضوع حساس كهذا، وتَرَدُّدَنا في إبداء الرأي في الوقت الحاضر، مما يقودنا إلى ترك الإجابة عنه حتى نستعرض بعضا من مواقف وآراء الصحابة والفقهاء.

ولكي يكون السؤال واضحا فسأعيد طرحه بشكل مبسط لنعرف عن ماذا نتحدث، فقد سبق وقلنا بأنه في الدول الديمقراطية الحديثة، عندما يتعارض قانون مع الدستور فإنه يكون لاغيا، وإذا

وجد المشرّع أن هذا القانون ضروري وحيوي، فإن الحكومات تقترح تعديل الدستور، وهذا لا يتم الا في حالات قليلة وبشروط صعبة، تحدثنا عنها في بداية هذا الفصل.

ومن هنا نعود لطرح السؤال: هل يحق للمُشرّع أو المجتهد في الإسلام، أن يَسُنَّ قوانين جديدة قد تخالف مصدرا من مصادر التشريع الاربع وهي: القرآن والسنة والقياس والإجماع، أي يعمل على تعديل الدستور؟

للإجابة على هذا السؤال، فإننا سنبدأ بالمصدر الأول للشريعة وهو القرآن الكريم، وسيكون ذلك عبر الحديث عن الآية التالية: إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (التوبة 60)، إن هذه الآية تحُدّد مصارف الزكاة، فهي تُعطى لسبع فئات من الناس إضافة للعاملين عليها، أي الموظفين الذين يعملون على إدارتها وتحصيلها وتوزيعها وتسجيل المستحقين لها إلى غير ذلك من المهام.

وقد ذكرت الآية من بين المستحقين لها: الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ، وهم حديثو العهد بالإسلام، وقد أعطاهم الرسول صلى الله عليه وسلم نصيبهم في حياته، وتبعه الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وحدث ذات يوم أن جاءه رجلان منهم، وطلبا منه أرضا قائلين: إن عندنا أرضا سبخة ليس فيها كلأ ولا منفعة فإن رأيت أن تعطيها لنا، فكتب لهم كتابا بذلك، ولم يكن عمر حاضرا، فانطلقا إليه ليشهد لهما، فلما سمع عمر ما في الكتاب تناوله من أيديهما، وتفل فيه فمحاه، وقال لهما: "إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يتألفكما والإسلام يومئذ قليل، وإن الله أغنى الإسلام وأعزه اليوم، فاذهبا فاجهدا جهدكما كسائر المسلمين، فالحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر"، ووافقه أبو بكر على ما فعل، وهكذا نجد أن عمر رضي الله عنه، عندما رأى أن الإسلام قد أصبح قويا عزيزا، وأنه لم يعد بحاجة إلى بذل الأموال لمداراة الرجال، وأن الله قد أغنى الإسلام وأعزه، فقد رأى أنه لم يعد هناك مبرر لإعطاء المؤلفة قلوبهم نصيبا من الزكاة، فاقترح وقف العمل بهذا الشق من الآية، ولم ينكر عليه ذلك أحد من المسلمين.

وقد فهم البعض من هذا القرار، أن عمر قد نسخ أو ألغى العمل بآية من آيات القرآن الكريم، لذلك أرى من الضروري، رفعا لكل التباس وتجنبا لسوء الفهم، أن أوضّح بأن المقصود بما

قام به عمر هو تقييد العمل بهذه الآية لا إبطالها، ولذلك قال العلماء بأنه يصح "تعميم أو تقييد" العمل بقاعدة قانونية قرآنية، ولا يحق "إبطالها أو نسخها" بقاعدة قانونية أخرى.

وكذلك فعل عمر في عام المجاعة، فأوقف العمل بتطبيق الحد على السارق، لأنه بفكره الثاقب وفهمه لروح الإسلام والشريعة أدرك أنه لا يمكن أن يتم تطبيق الحد والناس جياع، وأنه لابد من إقرار العدل والأمن وتأمين الحاجات الضرورية للإنسان أوّلاً حتى تُطبّق الحدود.

فهل كان هذا الاجتهاد من عمر رضي الله عنه تعديلا لحكم جاء في مصدر التشريع الأول الذي هو القرآن الكريم؟

سؤال آخر لعله يحمل بعضا من عناصر الجواب، وهنا لا بد أن نعود للحديث عن القرآن الكريم، وقد قلنا منذ البداية بأنه المصدر الأساسي والأول للشريعة الإسلامية، إلا أن القرآن كما قال عنه رب العالمين: الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ، فهو إذا كتاب عقيدة وايمان، غرضه الرئيسي الدعوة إلى الإيمان بالله الواحد والسمو بحياة البشر عن طريق فهم العلاقة والصلة بين العبد وربه بما يضمن للإنسان حياة سامية رفيعة، فهو ليس كتاب قانون، وإن كان قد وضع بعض المبادئ والأحكام العامة في التشريع، ويجب أن نفهم ذلك على أنه إطار عام، نستطيع التحرك ضمنه بحرية كبيرة، دون الخروج عن المبادئ والمثل العليا التي هي مقاصد الشريعة.

اما الأحكام الشرعية النابعة من المصدر الثاني للشريعة، وهو الحديث الشريف، فقد احتدم الجدل حولها في الماضي كما في الحاضر، فمنها ما يتعلق بالعبادات، ومنها ما يتعلق بالمعاملات، ومنها ما يتعلق بالتشريع ومنها ما ليس له طابع تشريعي، كما جاء في حديث تلقيح النخل أن النبي صلى الله عليه وسلم: "لما رآهم يُلقّحون النخل قال لهم ما أرى هذا يغني شيئا، ثم قال لهم إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله فلن أكذب على الله، وقال أنتم أعلم بأمور دنياكم فما كان من أمر دينكم فإلي"، وقد صنف الامام النووي هذا الحديث في شرحه على صحيح مسلم في باب: "وجوب امتثال ما قاله شرعاً، دون ما ذكره صلى الله عليه وسلم من معايش الدنيا على سبيل الرأي"، فذلك هو المقصد الشرعي، وهو عامٌّ في سائر الأمور الدنيوية.

ولا بد أن نشير هنا إلى الآية الكريمة: خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (الأعراف 199)، ومما لا شك فيه، أنه وعملا بهذه الآية الكريمة، والأخذ بالعرف، فإن النبي صلى

الله عليه وسلم وجد عاداتٍ وأعرافاً عند العرب، فأقرّ بعضها دون تغيير وغيّر بعضها الآخر، وهي أحكام تنطبق على الواقع والعادات التي تخص المجتمع في ذلك الحين، وليس من الضروري أن تُطبّق بحرفيتها على الأمم الأخرى أو الأجيال القادمة، وإن دراسة الظروف والحالات التي دعت لهذه الأحكام ومعرفة أسباب النزول، هي من الأهمية بمكان لمساعدة الاجتهاد والمجتهدين، لمتابعة الطريق واعادة النظر في كثير من الأحكام لتأويلها حسب الحاجات الجديدة، وبما يتوافق مع الأعراف الجديدة في البيع والشراء وبقية العقود، وقد رأينا أن المذهب الحنفي الذي نشأ في العراق، لا يعتمد كثيرا على الحديث الا ما كان متواترا أو مشهورا، في حين نجد مذهب انس بن مالك يعتمد كثيرا على الحديث، وذلك لأنه نشأ في أرض الحجاز، ولعلنا نجد في ذلك تفسيرا لاختلاف أسلوب كل منهما، ألا وهو اختلاف المكان، فأهل العراق كانوا يعتمدون كثيرا على المنطق والعقل فكان أبو حنيفة مضطرا لاستخدام نفس الأسلوب لإقناعهم، في حين كان حديث الرسول صلى الله عليه وسلم له أكبر الأثر في أرض الحجاز، ولهذا اعتمد عليه المذهب المالكي.

ومرة أخرى، وتجنبا لسوء الفهم، أحب أن أوضّح بأن ما أوردناه، ليس المقصود منه عدم اتباع السنة النبوية الشريفة، فالله يقول: وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا (الحشر 7)، وإنما المراد منه لفت الانتباه إلى تأثير المكان في قواعد التشريع، وأن ما ينطبق على القرآن ينطبق على الحديث، وأن الاجتهاد في مجال المعاملات يتمتع بحرية واسعة، شرط مراعاة الإطار العام للمبادئ والأحكام التي تمثل مقاصد الشريعة الغراء.

المصدر الرابع في الشريعة هو الإجماع، وأهم تطبيقاته كان في إجماع الصحابة رضوان الله عليهم، ورغم أهمية هذا المصدر فإن الخلفاء بدءاً من العهد الأموي، فوضوا الاجتهاد لأفراد وليس لجماعة، ربما لأن السيطرة على الفرد أو تغييره عند الاختلاف معه أسهل من التعامل مع جماعة يصعب السيطرة عليها، وقد رأينا كيف رفض الإمام أبو حنيفة استلام القضاء، رغم الضغوط الكبيرة التي تعرض لها، وذلك لكي يحافظ على رأيه المستقل، واستلم القضاء تلميذه أبو يوسف.

وقد تساءل الفقهاء عما إذا كان لإجماع الصحابة الحق في نسخ أو إبطال بعض الاحكام الواردة في القرآن أو السنة؟ كما تساءلوا عما إذا كان هذا الاجماع ملزما لمن بعدهم؟

وقد سبق وأجبنا عن السؤال الأول بأنه يصح "تعميم أو تقييد" العمل بقاعدة قانونية قرآنية، ولا يحق "إبطالها أو نسخها" بقاعدة قانونية أخرى، أمّا واجب الالتزام بإجماع الصحابة، فهو على

الأرجح ليس ملزما، وهذا ما ذهب إليه الكرخي بقوله: "إن سنة الصحابة تكون ملزمة في الأمور التي لا يجلوها القياس، وليست كذلك فيما يمكن أن يتقرر بالقياس"، والمقصود أن ما ورد عن الصحابة في واقعة أو حادثة فهو ملزم لأنهم كانوا أقرب وأدرى بذلك، أما فيما يتعلق بحكم شرعي مبني على القياس، فهذا غير ملزم لأنه يعتمد على التأويل.

وهنا نعيد التأكيد على أن الاجتهاد في عصرنا الحاضر لا يمكن أن ينجح دون فهم التاريخ والظروف الاجتماعية التي كانت سائدة في عهد الرسول والصحابة والتابعين، للبناء عليها وإكمالها، ولن يُكتب له النجاح إن حاول نقض الأحكام، لا لحاجة بل لمجرد التغيير.

أخيرا يأتي المصدر الثالث وهو القياس، الذي يقوم على دراسة التشابه بين الحالات لتطبيق نفس الاحكام عندما تكون العلة واحدة في الحالتين، وهنا يلعب العُرفُ دورا هاما، ومنه وُلدت القاعدة الفقهية: "العادة مُحَكَّمَة"، أي أنه يجب تطبيق ما اعتاد عليه الناس في مجتمعهم إن لم يكن هناك نص مخالف، وكذلك القاعدة القائلة: "الأصل في الاشياء الإباحة"، أي أن كل ما لم يرد فيه نص بالمنع، فهو مسموح به، مالم يخالف المبادئ العامة للشريعة الإسلامية.

ونظرا لاعتماد القياس على التشابه في علة الأحكام، وبسبب اختلاف الأوضاع الاجتماعية والزراعية والصناعية من أمة إلى أخرى، فإن الفقهاء لم يجدوا كثيرا من حالات التشابه، فاستخدموا العقل والمنطق في أحكامهم، وقد اعتمد المذهب الحنفي بشكل كبير على القياس وجعله أصلا من أصول التشريع، وعندما سُئل الامام الشافعي: "فما القياس؟ أهو الاجتهاد أم هما مفترقان؟ أجاب: هما اسمان لمعنى واحد".

يقول الفيلسوف هوبز: "إن من تتناوبه سلسلة من نفس الأفكار ونفس المشاعر المتكررة، فهو إنسان لا تنتابه أفكار ولا شعور مطلقا"، ولعل هذا هو حال المسلمين اليوم، فهم مازالوا يكررون الحديث عن قيم الإسلام بطريقة آلية، وكأنهم لا قيم لهم، ولا بد أن نتذكر ما قلناه منذ البداية بأن الإنسان هو هدف الإسلام الأول في هذا الكون، خلقه الله سبحانه، وعلّمه الأسماء، وسخّر له كل ما في الكون، وجعله خليفة في الأرض، وأرسل له الرسل والشرائع، فكانت رسالة محمد آخر الرسالات وشريعته أخر الشرائع، ولأن المولى سبحانه أراد للإنسان أن يطير بجناحيه وأن يدير أموره بنفسه، فقد ألغى النبوة وانقطعت صلة الأرض بالسماء، وأصبح على الإنسان، بعد أن زوده الله بالإسلام، أن يتابع طريقه ليحصل على كمال المعرفة بالكون وبنفسه، ليرسم حياته ومصيره.

وقد رأينا كيف يحظى الإنسان بالاحترام والإجلال والتقدير في الآيات القرآنية الكريمة كما في قوله تعالى: وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (الإسراء 70)، إن هذا التكريم وهذه المكانة الشامخة السامية تعني، بلا شك، حق الإنسان وواجبه في ممارسة حياته والتعبير عن ذاته وإعمال عقله فيما يواجهه من قضايا ومشاكل، مسترشدا بما آتاه الله من مبادئ الشريعة السمحاء.

وقد نادى كثير من العلماء المسلمين ودعوا إلى اعادة النظر فيما تراكم في الشريعة عبر عصور من الانحطاط والانغلاق والتزمت والتعصب، وساد الكسل العقلي والفكري لعدة قرون، وبدت الشريعة نظاما جامدا غير قابل للتطور والتطوير، ومن اشهرهم الامام محمد عبدة الذي اكد على دور العقل وقدمه على ظاهر الشرع عند تعارضهما، ومن أهم آرائه التي يجب الإشارة إليها قوله: "إن الاختلاف بين البشر هو القاعدة السائدة والغالبة، وليس لأحد من المختلفين في الرأي أو الرؤية أن يدعي احتكار اليقين أو امتلاك الحقيقة المطلقة"، وهذا ما ذكرناه في الآيات الكثيرة التي تؤكد على حرية الإنسان، فالحرية هي الأساس في وجوده وهي الأساس في خلق الله تعالى للكون وخلافة الإنسان في الأرض.

من كل ما تقدم يصبح واضحا أن تجديد الفكر الإسلامي، واعادة الاعتبار للتفكير الحر، وإحياء الاجتهاد، قد أصبح أمرا ضروريا وملحا ولم يعد يحتمل الانتظار، لكي يعود للإسلام دوره الحضاري الذي غير العالم ذات يوم، وما زالت آثار هذه الحضارة شاهدة على ذلك من مشارق الأرض إلى مغاربها.

إن التجديد الذي ننشده، هو في الحقيقة استمرار لما قام به الصحابة الكرام وأئمة المذاهب والتابعين، والاستهداء بروح الشريعة ومقاصدها العالمية، وفهم أهداف التجربة الإسلامية في عهد الرسول والخلفاء الراشدين وفهم غاياتها الإنسانية، والانتباه إلى أن ما يميزها عن غيرها، هو الاساس الديمقراطي الحر، القائم على روحانية الإسلام والساعي إلى وضع مبادئ ذات بعد عالمي، بهدف قيام مجتمع على أساس روحي.

وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: "إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا".

وقد كتب المفكر الالماني هورتن: "إن روح الإسلام رحبة فسيحة، بحيث تكاد لا تعرف الحدود، وقد تمثلت كل ما أمكنها الحصول عليه من أفكار الامم المجاورة، فيما عدا الأفكار الملحدة، ثم أضفت عليها طابع تطورها الخاص".

شروط الاجتهاد

جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يترك عالما اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسُئلوا فأفتوا بغير علم فَضَلّوا وأَضَلّوا"، وفي حديث آخر: "اجرؤكم على الفتوى اجرؤكم على النار"، وهكذا نجد أن الإسلام بمقدار ما حث وشجع على الاجتهاد، فإنه حذر ونهى عن الاجتهاد بغير علم، حتى لا تنتشر الفوضى ويسود الجهل والانحراف عن مقاصد الشريعة كما ارادها الله سبحانه، بحيث يقوم بالفتوى الجهال الذين يتزيون بزي العلماء، فيُحلّون ما حرّم الله، ويحرّمون ما أحلَّ الله، وهذا ما تؤكده الآية الكريمة بقوله تعالى: وَلَوْ رَدُّوهُ إلى الرَّسُولِ وَإلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ (النساء 83)، فالرجوع يكون إلى الله والرسول ثم إلى أولي العلم من بعد الرسل.

ولكي يؤدي الاجتهاد دوره على أكمل وجه، فقد حدد العلماء شروطا للاجتهاد، هي معرفة العلوم الإسلامية اللازمة، كعلم الفقه، وعلم أصول الفقه، وعلم الرجال، وعلم المنطق، وعلم الدراية، والأدب العربي، وعلم تفسير القرآن، وعلم الحديث وأمثالها، واشترطوا بالمجتهد، العدالة والتقوى، أي أن يكون محيطاً بمدارك الشرع ومقاصد الشريعة، ووجوه القياس ومعاقد الإجماع، وأن يعرف الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنه، وأسباب النزول...الخ.

وإذا تعمقنا في هذه الشروط، فإننا سنلاحظ بسهولة أنها ترتبط بالعبادات والأحكام الشرعية، أكثر منها في المعاملات.

كما أننا نستطيع ودون جهد كبير أن نؤكد أن الاجتهاد في المعاملات وخاصة في عصرنا الحاضر، عصر السرعة والمتغيرات، والحالات الجديدة التي تطرح نفسها في كل يوم، كالمعاملات المالية المعقدة، والمواد المعدلة وراثيا، والاستنساخ، واستخدام الخلايا الجذعية، وغيرها من الأمور التي تنتظر رأيا واجتهادا، لم يعد بوسع الفقيه والمجتهد حتى ولو انطبقت عليه جميع الشروط

السابقة، أن يفتي بها كما فعل العلماء في الماضي، ولا بد لكي يكون الاجتهاد منسجما مع روح الشريعة ومع حاجات المجتمع، أقول لا بد أن تقوم به لجنة من العلماء، ومن جميع الاختصاصات، بحيث نجد الفقيه بالمعنى المتعارف عليه، وإلى جانبه الاقتصادي والطبيب وعالم الاجتماع والمختص بالعلوم المالية...الخ، وهذا ما يعيدنا إلى احياء مبدأ الإجماع بالاختصاص، ولعل هذا هو الطريق السليم والمؤهل لمواجهة مشاكل العصر.

ولكي نعزز فرص النجاح، فإن من الضروري إيجاد بيئة حاضنة، تسودها الحرية وحق الاختلاف في الرأي، سواء كان الاختلاف مع علماء العصر أم مع المتقدمين، وأن نعمل على إيجاد جو من الثقة، بحيث
تنال هذه اللجان قبول ورضى الأكثرية، وهذا لا يكون إلا إذا كان اعضاؤها ممن يشهد لهم الجميع بالنزاهة والمعرفة والفكر الحر، فيجتهدون رأيهم بالحق، لا تأخذهم في الله لومة لائم، فيكتسبون ثقة المجتمع وينطلقون في العمل الجاد والملتزم بكل ما في وسعهم، وهؤلاء ينطبق عليهم الحديث الشريف: "إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر".

ولعلنا ما زلنا نذكر ما قلناه قبل قليل عن الامام محمد عبده الذي يرى: "ان الاختلاف بين البشر هو القاعدة السائدة والغالبة، وليس لأحد من المختلفين في الرأي أو الرؤية أن يدعي احتكار اليقين أو امتلاك الحقيقة المطلقة"، وهذه القناعة يجب أن تتحول إلى سلوك يتبناه المجتهد والمجتمع، وعندها سينطلق الإبداع والتقدم والتطوير، ويعود للإسلام عزه ومجده كما كان.

الفصل السابع
مواضيع حساسة وشبهات حول الإسلام

تحدثنا في الفصل الرابع عن القيم العالمية في الإسلام، وبينا بأدلة من القرآن والسنة أن الإسلام هو دين الحرية، وأوضحنا أن هذه الحرية تشمل حرية المعتقد، وحرية العبادة، وحرية الفكر والتعبير عن الرأي، وحرية الاختيار، ورأينا أن الله سبحانه قد سمح للإنسان أن يستخدم هذه الحرية حتى في معصية الله! وتحدثنا عن المسؤولية وبيّنا أن الإنسان لا يكون مسؤولا ما لم يكن حرا، وأكدنا أن المسؤولية في الإسلام هي مسؤولية فردية وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى.

وأشرنا في أكثر من موضع بأن معيار القيم في الإسلام مبني على العمل والعمل فقط، وأنه لا فضل لإنسان على آخر، لا في اللون، ولا في العِرق ولا في الجنس، ولا في الحسب والنسب، وإنما بالتقوى والعمل الصالح، لقوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِير (الحجرات 13).

كما بينا بأن الإسلام قد ساوى بين جميع الناس في الحقوق والواجبات، ذكوراً كانوا أم إناثاً، لذلك كان الناس أمام الشرع سواء، كما قال سبحانه: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (النحل 97).

ولقد كررنا بأن الإسلام هو دين السلام والمحبة والتسامح، بعكس ما يتهمه ويروج له الكثيرون، ولم نَنْسَ أن نقوم بعملية نقد ذاتي، مشيرين إلى مواضع الخلل الكامنة في سلوكنا

وتصرفاتنا، والتي تعطي الحجج لمن يتربص بالإسلام غير الخير، ليفرغ كل ما في جعبته على الإسلام والمسلمين، مما يزيد الحرج ويجعل مهمة الذين يعملون على شرح مبادئ الإسلام وايضاح قيمه السامية أكثر صعوبة، وهم يحاولون إعادة الأمور إلى مجراها الطبيعي، ورفع الالتباس الذي يخيم على القلوب والعقول، سواء كان ذلك عن حسن نية أو عن سوء نية، لأن النتيجة في الحالتين واحدة، تتلخص بتشويه صورة الإسلام والمسلمين، وزيادة العداء والعنصرية والكراهية، فيصبح التعايش مع الشعوب والأمم الأخرى أكثر صعوبة، إن لم يكن مستحيلا.

كما يجب علينا أن لا ننسى أن شرح وتفسير مبادئ الإسلام بشكلها الصحيح، وإن كان ضروريا، إلا أنه لا يكفي، لأن أكثر الانتقادات الموجهة للإسلام، هي في الحقيقة موجهة للمسلمين ولسلوكهم وتصرفاتهم، ومن هنا كانت المسؤولية الملقاة على عاتقنا جميعا كبيرة وهامة، مما يترتب علينا ان نفهم الإسلام بشكله الصحيح ونحسن فهم مبادئه أوّلاً، وأن ينعكس ذلك في سلوكنا وتصرفاتنا فنندمج بها حتى نصبح منها وتصبح منا ثانيا، وعندها فقط يصبح كلامنا مقنعا ومؤثرا، وهذا هو الشرط الأساسي لإنجاح الحوار وإزالة الشوائب والرواسب التي تخيم على علاقتنا بالآخرين منذ عهد طويل، وأنه قد آن الأوان لمعالجتها والتخلص منها ومن آثارها، وذلك من أجل فتح صفحة جديدة في العلاقات الدولية، قوامها الاحترام المتبادل والمحبة والعدالة والسلام، وهذه في الحقيقة هي رسالة الإسلام: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (النحل 90)، وعلينا تقع المسؤولية الكبرى لنبيّن للناس ما يحمله الإسلام وما يقدمه للإنسان وللإنسانية من خيرٍ ونفع، اليوم وغدا كما كان بالأمس، ولن يستطيع أن يفعل ذلك إلا من مارس الإسلام بنفسه وفي كل المجالات، وعندما يُجسّد المسلم مبادئ الإسلام، فإنه يُصبح مُلهما للآخرين ويدعوهم للبحث عن هذه القيم والمبادئ التي وجدوها في سلوكه فأحبوها وأُعجبوا بها، وهذا أقوى من كل النظريات والكتب والمحاضرات التي ننظمها عن الإسلام.

ولكي نساهم في هذه المهمة الصعبة، فإننا سنستعرض في هذا الفصل بعضا من المواضيع الحساسة التي تثار في وجه الإسلام من حين إلى آخر، ويستخدمها الكثيرون ذريعة للنيل من الإسلام ومهاجمته واتهامه بما ليس فيه. ومن أهم هذه المواضيع:

- الجهاد واختلاطه بالحرب المقدسة
- الجهاد والارهاب

- التطرف والإسلام
- الاصولية والسلفية
- السلطة ونظام الحكم في الإسلام
- المرأة في الإسلام: مكانتها، دورها، حقوقها وواجباتها مقارنة بالرجل
- الإسلام والحياة والعلم والتقدم والحداثة
- ...

الجهاد

الجهاد في اللغة: مصدر من الجَهد والجُهد بفتح الجيم وضمها، وهما الطاقة والمشقة، تقول جهد دابته وأجهدها، أي بلغ جهدها وحمل عليها فوق طاقتها.

والاجتهاد: بذل الوسع والمجهود، والجهاد بكسر الجيم أصله لغة المشقة.

وإذا كانت كلمة "جهاد" مشتقة من "الجُهد" وكذلك كلمة اجتهاد، وقد سبق وقلنا إنها تعني بذل الجهد والمستطاع، إلا انها قد تأتي بمعنى القتال، ولكنها لا تعني الحرب، وبالتالي فهي لا تعني الحرب المقدسة كما يحلو للكثيرين أن يترجموها.

أما شرعاً: فإننا نجد للجهاد معانٍ متعددة، حيث يحدثنا القرآن الكريم عن جهاد النفس والهوى، وهو الجهاد الأكبر كما سنراه في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، يقول تعالى: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (العنكبوت 69)، وقد رأى ابن القيم في هذه الآية القرآنية رأيا فريدا حيث يقول: "إن أكمل الناس هدايةً أعظمهم جهاداً، وأفرض الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا، فمن جاهد هذه الأربعة في الله، هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته، ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد، إلى أن قال، ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطناً، فمن نُصِرَ عليها نُصِرَ على عدوه، ومن نُصرتْ عليه نُصِرَ عليه عدوُه".

وقد سبق وقلنا بأن المقصود بهذه الآية هو الاجتهاد، لأن المولى يقول: لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا، أي للوصول إلى الحقيقة.

وقد روى بعض الصحابة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال حينما عاد من إحدى الغزوات: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، جهاد النفس والهوى".

وهناك الجهاد بالمال وبالقلم واللسان، بل إن الجهاد يكون بالقرآن نفسه، أي بإظهار وإبلاغ ما نزلَ فيه من الحق، لقوله تعالى: فلا تُطِعِ الكَافِرِينَ وجَاهِدْهُم بهِ جِهاداً كَبيراً (الفرقان 52)، والمعنى قاومهم بالصبر، وهذا ما أطلق عليه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم اسم: "الجهاد الاكبر".

اما الجهاد بمعنى القتال والذي سماه الرسول صلى الله عليه وسلم "الجهاد الأصغر"، فهو القتال المشروع للدفاع عن النفس والذي شرعته كل المواثيق الدولية، وهو ما نصت عليه مبادئ الأمم المتحدة في عصرنا الحاضر.

إن أول آية في القرآن تحدثت عن القتال هي التي نزلت قبل غزوة بدر، وهي الآية الكريمة التالية: أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأرض أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأمور (الحج 39-41).

ولا بد لي أن أشير هنا إلى روعة الأسلوب القرآني الذي أعطى الإذن للمسلمين بالدفاع عن أنفسهم ودون أن يذكر كلمة القتال بشكل صريح، بل أشار إلى ذلك بشكل ضمني وغير مباشر، فهو يقول إنه مسموح لمن يُعتدى عليه ويُظلم ويُطرد من أرضه، وخاصة بسبب آرائه ومعتقداته، أن يستعيد حقه ويدافع عنه بكل الوسائل، ويُفهَمُ منها القتال أيضا، ولكن دون أن يذكر كلمة قتال!

وتؤكد هذه الآية أيضا: وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ، ولنلاحظ مرة أخرى الكلمات المنتقاة بعناية وحكمة: دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ، فقد عبر عن الصراعات بالدفع

وليس بالقتال والحرب، والدفع هو كالمصارعة بحيث يدفع الواحد الآخر دون أن يقتله أو يقضي عليه، كما يكون بالتعبير عن الرأي لإقناع الخصم، وهذا صراع الأفكار السلمي والمفيد.

ولا بد أن نفهم هذه الآية الكريمة كما تستحق، فهي أول آية نزلت في القرآن وتسمح بالقتال، ولكن ليس للاعتداء على الآخرين، بل للدفاع المشروع عن النفس والارض وحرية الفكر والتعبير!

أجل إنها للدفاع عن حرية المعتقد، ولذلك يقول الله سبحانه أنه لولا أن يدافع الناس عن حريتهم ومعتقداتهم، لَسَادَ الظلمُ والتسلطُ والدكتاتورية، ومُنعَ الناسُ من ممارسة شعائرهم الدينية، بل لَقَامَ الظالم بتهديم المعابد والكنائس والمساجد والتي هي كلها بيوت الله التي يُعبد فيها ويُذكر فيها اسمه، ولذلك تؤكد هذه الآية بأن هؤلاء المضطهدين إذا انتصروا فإنهم لا يتصرفون كمن ظلموهم، بل أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وأقاموا الحكم الصالح الرشيد!

وإذا كانت الآية الأولى محل تأويل وتفسير، فإننا سنستعرض الآية الثانية والتي تتحدث عن القتال بشكل صريح كما جاء في قوله سبحانه: وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ * فَإِنِ انتَهَوْا فإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (البقرة 190–193)، ورغم أن هذه الآية قد نزلت بحق المشركين في الجزيرة العربية، الذين حاولوا بكل الوسائل محاربة الإسلام، بل والقضاء عليه، إلا أنها تظل واضحة جدا، فتسمح بالقتال لصد العدوان، وتؤكد على منع الاعتداء، فالله سبحانه لا يحب المعتدين.

إن هذه الآية تذهب بعيدا، إذ تطلب من المسلمين أن يوقفوا القتال فور توقف العدوان وإعادة الحق إلى نصابه، مما يجعل القتال أمرا استثنائيا، يجب أن يتوقف فور انتهاء الأسباب التي دعت إليه، ذلك أن العلاقات الدولية في الإسلام تقوم على مبدأ التعاون والتبادل والاحترام المتبادل، كما تشير إلى ذلك الآية التالية: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (الحجرات 13)، فالهدف من وجود الشعوب والأمم هو التعارف والتبادل والتعاون وليس الصراع والاقتتال، وهذا عامل من عوامل التقدم والاستفادة من معارف وخبرات الشعوب الأخرى، والحديث الشريف واضح ومكمل لهذه الفكرة كما جاء في قول

الرسول صلى الله عليه وسلم: "الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها اخذها"، وقوله أيضا: "اطلبوا العلم ولو في الصين".

إن القرآن لا يكتفي بتحريم العدوان ولكنه يدعو إلى السلام والعفو والتسامح، مؤكدا على أهمية هذه القيم، بل وأكثر، فإنه يعتبر الذين يتحلّون بهذه الصفات من الأبرار الذين لهم حظ عظيم، لأنهم استطاعوا بصبرهم وأخلاقهم أن يتعالوا فوق الأحقاد والضغائن وحب الانتقام، بل إنهم بدل ذلك تمسكوا بقيم التسامح والعفو وقابلوا الإساءة بالإحسان، فكانت النتيجة أنهم كسبوا الاعداء بسلوكهم وتصرفاتهم، فأصبحوا لهم أصدقاء وحلفاء بعد أن كانوا خصوما واعداء!

إن هذا هو ما أكدنا عليه في كل مناسبة من أن السلوك هو أقوى من كل سلاح لمواجهة الخصوم والاعداء، ولنقرأ معا هذه الآية التي تشرح ما قدمناه، يقول الله سبحانه: وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (فُصِّلَتْ 34–36).

ولا بد من التذكير بهذه المناسبة بأن التحية في الإسلام هي دعوة دائمة ومستمرة ويومية إلى السلام والمحبة والرحمة، وهذا ما تؤكده هذه الجملة الرائعة والتي اصبحت رمزا وشعارا للتحية عند جميع المسلمين: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

أخيرا وليس آخرا، فالآيات التي تدعوا إلى السلام كثيرة ومتنوعة، سنذكر منها دعوة القرآن الكريم للرسول صلى الله عليه وسلم إلى تبني سياسة المصالحة والسلام في كل مرة يبدي الخصوم توجها نحو ذلك، وفور أن يبدوا رغبتهم في إنهاء الخلافات ووضع حد للمشاكل القائمة من أجل حلها بالوسائل السلمية، كما تشير إليه الآية التالية: وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (الأنفال 69).

وهكذا يتضح لنا أن الأساس في علاقة المسلم بغيره، هي علاقة الرحمة والمحبة والبرّ والتواصل والتعارف والتعايش السلمي والتضامن ومحبّة الخير والهداية للجميع، كما في قوله تعالى: لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الّذِينَ لم يُقَاتِلُوكُم في الدّينِ ولم يُخْرِجُوكُم مِنْ دِيَارِكم أنْ تَبرُّوهُم وَتُقْسِطُوا إليْهِم، إنَّ اللهَ يُحِبُّ المقْسِطينَ. إنما ينْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الذينَ قَاتَلُوكُمْ في الدّينِ وأخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَاركُم وظَاهَرُوا عَلى إخْرَاجِكُم أنْ تَوَلَّوْهُم، ومَنْ يَتَوَلهُّم فأولئكَ هُمُ الظَّالمونَ (الممتحنة 8–9).

إن الإسلام بمبادئه وقيمه السامية، لا يكتفي بكل ما تقدم، بل يعتبر الإنسان والحياة الإنسانية من المقدسات التي لا يجوز المساس بها، وإذا كانت الدول والشعوب المتحضرة في أيامنا هذه تتحدث عن جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية، فإنها تفعل ذلك عندما تطال هذه الجرائم أعداداً كبيرة من الناس، وتستثني منها الأعمال والجرائم التي تكون هي طرفا فيها! فهي تكيل دائما بمكيالين، بشكل تحمي فيه الأطراف القوية، وتستخدم هذا السلاح في وجه الضعفاء، أمّا الإسلام فإنه يعتبر القتل بدون حق جريمة ضد الإنسانية حتى ولو كانت جريمة قتل فرد واحد!

كما أن الإسلام وضع مقابل الجريمة ضد الإنسانية، جائزة وميدالية شرف لكل من يعمل على حماية الإنسان والدفاع عنه وانقاذه، وهذا يؤكد على سمو هذه القيم وشموليتها وعدالتها وعالميتها، وهذا ما نجده في الآية التالية: مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأرض فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا (المائدة 32)، فالإسلام يعتبر أن من يبدأ القتل فلا شيء يمنعه من الاستمرار فيه، وبالتالي فإنه قد يستمر بارتكاب المجزرة تلو الأخرى، في حين نلاحظ أن جائزة الإسلام للسلام يجب أن تعطى لكل من يعمل على إنقاذ النفس البشرية، حتى ولو كانت نفسا واحدة، لأن هذا يؤدي إلى منع الحروب والاقتتال والحفاظ على السلام بين الامم.

من كل ما تقدم، لا يسعنا إلا أن نستغرب استخدام كثير من الكُتّاب، وخاصة في اللغات الاجنبية، لتعبير "الحرب المقدسة"، في معرض الحديث عن الجهاد، وهذا التعبير أو المصطلح هو من رواسب الحروب الصليبية، وكان يطلقه مسيحيو الغرب في ذلك الحين على حروبهم التي قاموا بها من أجل احتلال الأرض المقدسة والسيطرة عليها، وعلى رأسها القدس الشريف في فلسطين التي كانت مهد المسيحية وموطن السيد المسيح عليه السلام، لذلك نرى أنه ليس من العدالة في شيء، بل من الظلم أن يُسَمَّى الجهادُ "حربا مقدسة"، فهذا المصطلح ليس له وجود في قاموس الإسلام.

أما الارهاب والذي يمكن تعريفه في المصطلح المعاصر بأنه: "الاستعمال المنظّم وغير المشروع للعنف، أو التهديد به، بقصد إزهاق الأرواح البريئة، كالاغتيال وأخذ الرهائن، وقتل الابرياء..."، فهو مصطلح غريب وبعيد عن الإسلام، مخالف لمبادئه وقيمه وتعاليمه، ولنستمع لوصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه لجيش المسلمين، وهم في حالة حرب، وهو يقول: "لا تخونوا، لا تغلّوا، لا تُمثّلوا، لا تقتلوا طفلاً ولا شيخًا ولا امرأة، لا تغرقوا نخلاً ولا تحرقوه، لا تقطعوا شجرة، لا تذبحوا

شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا للأكل، وإذا مررتم بقوم فرَّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له..."، فهو في هذه الوصية الخالدة، يدعو الجنود حتى في ظروف القتال الصعبة والحرجة إلى حماية المدنيين، بل وأكثر، فهو يدعوهم للمحافظة على البيئة.

ولا أريد أن أقارن هذه التعاليم بما كان سائدا في تلك العصور، بل بما تقوم به جيوش العالم المتحضر والديمقراطي في عالم اليوم وهذا يكفي.

إن كلمة الإسلام مشتقة من السلام، فالإسلام يقف على النقيض من الحرب والعدوان، والقتال المشروع في الإسلام هو للدفاع عن النفس وصد العدوان والدفاع عن الحريات وعلى رأسها حرية المعتقد، والقتال في الإسلام لا يمكن أن يكون للاستيلاء على أراض وممتلكات وخيرات الشعوب الأخرى، وقد رأينا كيف بنى المسلمون في الاندلس، بعد فتحها، حضارة ليس لها مثيل.

ذلك أن الإسلام يعتبر نقل ثروات البلاد التي فتحها إلى بلاده الأصلية عملا محرما، لذلك وجدناهم يبنون الحضارات في كل بلد ينزلون به وينشرون العلم والمعرفة لأنهم اصحاب رسالة، بعكس الاستعمار الذي يستغل خيرات الدول المستعمرة وينقلها إلى بلده الأم، تاركا الدول التي استعمرها تعيش الفقر والتخلف والحرمان.

ان الإسلام يقف بحزم ضد الحروب الاقتصادية والعرقية، وضد السيطرة على مقدرات الشعوب الأخرى، والجهاد في عرف الإسلام هو القتال للدفاع عن حرية الإنسان ودون أن يفرض رأيه وفكره على الآخرين، والآيات القرآنية واضحة في ذلك أشد الوضوح، يقول الله تعالى: وَلَوْ شَاءَ اللهُ لآمَنَ مَنْ في الأرض كُلُّهُم جَمِيعاً، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (يونس 99)، ويقول أيضا: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (البقرة 256).

ولقد بينا من قبل أن الإسلام هو دين الوسطية والاعتدال، وأنه ضد التطرف، واوردنا كثيرا من الآيات التي تؤكد ذلك، ولكن تقديم الآيات وحده لا يكفي لإقناع الآخرين، بل علينا أن نترجم ما نقوله بأعمالنا وسلوكنا وأخلاقنا، وهذا ما قاله الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: "الإيمان ما وقر في القلب وصدّقه العمل".

الاصولية والسلفية

السَّلَفُ لغة: هم الآباء والأجداد، وجاء في القاموس: السين واللام والفاء "أصلٌ يدل على تقدُّمٍ وسَبْق"، فالسلف هم الذين كانوا قبلنا ثم مضوا فهم الجماعة المتقدمون، وعكسها الخَلَف وهم الاحفاد وكل من يأتي من بعد، كما جاء في الآية الكريمة فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (مريم 59-60).

واصطلاحًا: يقصد بهم المسلمون الأوائل من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، وقيل هم السلف الصالح في القرون الثلاثة الأولى من الإسلام، كما جاء في صحيح البخاري ومسلم من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ"، ولست أرى في هذا الحديث تحديدا واقتصارا وإنما ترتيبا، بمعنى أن الصحابة الذين رافقوا الرسول الكريم وعاشوا معه هم أكثر تأثرا وايمانا ممن يليهم، ولذلك يمكننا أن نقول بأن هذا المصطلح ينطبق على كل الصالحين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وهذا ما يشير إليه حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها".

ولا يخفى على أحد أن اقتصار السلف الصالح على القرون الثلاثة الأولى في الإسلام فيه تقييد وجمود، في حين أن تعميم هذا المصطلح ليشمل السلف الصالح إلى يوم القيامة، هو الذي يفتح باب الاجتهاد والتقدم والتطور، في حين أن التعريف الأول يجعل الاجتهاد أمرا صعبا، إن لم نقل مستحيلا، وهذا ما سنراه لدى شرحنا لمفهوم السلفية، وذلك عبر استعراض سريع للتيارات والحركات الإسلامية ولمبادئها الاساسية التي نشأت في بداية الدولة الإسلامية (الاموية والعباسية على وجه الخصوص)، مع الإشارة سلفا أن دراسة هذه الحركات وأفكارها يحتاج إلى كتاب كامل ليس هنا مكانه.

سبق وبينا ان التشريع الإسلامي اعتمد في بدايته على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وكان هذان المصدران كافيين للإجابة عن حاجات المجتمع في ذلك الحين، ولكن تطور الحياة واتساع الدولة والاختلاط بالحضارات الأخرى، ولّدَ حاجاتٍ جديدة وطرح اسئلة في أمور لم يعرفها المسلمون من قبل، وظهرت معاملات ومشكلات جديدة، ولم يتأخر رد علماء المسلمين، فنشأت

المدارس الفقهية وأشهرها: المالكية، والحنبلية والشافعية والحنفية، ونشأ علم جديد هو علم "اصول الفقه"، الذي يُعنى باستنباط الأحكام والقوانين بما يتلاءم مع الشريعة.

وتابع الإسلام انتشاره وتوسعت الدولة الإسلامية أكثر فأكثر، ودخلت في الإسلام شعوب كثيرة، وأدخلت معها ثقافات ومعارف متنوعة، وتعرّف المسلمون على الفلسفة اليونانية، فأخذوا منها وانتقدوها وطوروا فلسفة جديدة، وانتشرت العلوم والمعارف فكان كل ذلك ايذانا بولادة ما يعرف اليوم بالحضارة العربية الإسلامية، وكان من الطبيعي أن تتولد تيارات فكرية مختلفة، ولم يعد الاعتماد على النصوص الموجودة، وخاصة القرآن والسنة كافيا ليجيب على كل المستجدات، سواء ما يتعلق منها بالعقيدة أو بالمعاملات، وكان لا بد من إيجاد أجوبة لكل هذه الحالات، فتطورت المدارس الفقهية والتيارات الفكرية العقائدية لتلبي حاجات الناس، وبدأ المنهج العقلي يأخذ مكانا متقدما في الفكر الإسلامي حتى قدمه البعض على النقل، وانشأ المسلمون علما جديدا سموه "علم الكلام"، وكان من اشهر هذه التيارات الفكرية: المعتزلة والاشاعرة والسلفية وكلها تيارات سنية، وسأحاول استعراض هذه التيارات بشكل مختصر جدا، لكي نفهم السياق التاريخي لهذه الأفكار وما نتج عنها، وكيف تطورت بفكرها وآرائها، وما نتج عنها من حركات إسلامية في عصرنا الحاضر.

المعتزلة

ظهرت في بداية القرن الثاني الهجري في مدينة البصرة فرقة كلامية سنية، على يد "واصل بن عطاء"، عُرفت باسم المعتزلة، واعتمدت على العقل في تفسير العقيدة، مقدمة ذلك على النقل أي على ما جاء في النصوص، واعتبرت بأنّ العقل والفطرة السليمة قادران على تمييز الحلال من الحرام بشكل تلقائي، وكان تأكيد المعتزلة في البداية يتركز على فكرة التوحيد، ثم اتسع ليشمل مواضيع أخرى عُرفت بالأصول الخمسة وهي:

العدل، التوحيد، الوعد والوعيد، المنزلة بين المنزلتين، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأصبح الإقرار بها شرطا وركنا أساسيا في عقيدة الاعتزال، وسأكتفي بالحديث عن التوحيد كمثال لفكر المعتزلة، وذلك لان لمبدأ التوحيد عندهم مفهوم خاص، فهو يعني لهم: التنزيه المطلق، "ليس كمثله شيء"، وأكدوا على التوحيد بين الذات والصفات الالاهية، وذكروا ست صفات للذات،

وقالوا إن هذه الصفات ليست زائدة عن الذات إنما هي عين ذات الإله وهي: (العلم، القدرة، الإرادة، الحياة، السمع، البصر، واضاف الاشاعرة: الكلام).

وقد ميز المعتزلة بين صفات الذات وصفات الأفعال:

- صفات الذات: هي الصفات التي لا يجوز أن نصف الله بها وبضدها، لذلك لا يجوز أن نصف الله بالجاهل مقابل العالم، أو العاجز مقابل القادر الخ..

- صفات الأفعال: وهي الصفات التي يجوز أن يوصف الله بضدها مثل الرزاق، الذي يرزق وقد يمنع الرزق، كقوله تعالى: قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أكثر النَّاسِ لَا يَعْلَمُون (سبأ 36).

يعتبر المعتزلة أن الكلام هو من صفات الأفعال، لذلك قالوا بخلق القرآن، فكلام الله باعتقادهم مخلوق أو حادث، أي أنه وُجِدَ بعد أن لم يكن موجوداً، وتكلم الله به بعد أن لم يكن مُتَكَلَماً به!

وقد تصدى لهم الإمام أحمد بن حنبل، فآذوه وأدخلوه السجن، حيث كان الخليفة المأمون من أنصار هذا التيار الفكري، وقد ترتب على ذلك خلاف عقائدي كبير، قد يكون طبيعيا ومفيدا في تقدم العلم والمعرفة، لولا لجوء السلطة إلى فرض آرائها، حيث قام الخليفة المأمون بفرض القول بخلق القرآن، وطلب من الجميع أن يقروا بذلك! وكذلك فعل المعتصم والواثق بالله، ولعل هذا كان من أهم الأسباب في ولادة التيار السلفي كما سنرى لاحقا.

من أشهر المعتزلة الجاحظ، الجعد بن درهم، جرهم بن صفوان وبشر المريسي.

الأشعرية

نسبة لأبي الحسن الأشعري، هي مدرسة إسلامية سنيّة، اعتمدت على العقل إضافة إلى نصوص الكتاب والسنة، وواجهت المعتزلة، واستخدمت المنطق والعقل لترد عليهم وتثبت نتائج مختلفة لما يقوله المعتزلة، وقد اتبع منهجها كثير من العلماء، أمثال البيهقي والنووي والغزالي والعز بن عبد السلام وغيرهم.

وقد استخدم بعض العلماء التأويل لشرح بعض كلمات القرآن وهذا ما يرفضه السلفيون. وكان أبو الحسن الأشعري يعتقد أن الدفاع عن العقيدة السليمة، وغرسها في قلوب الجيل الإسلامي الجديد، يحتاج إلى الحديث بلغة العصر العلمية السائدة، واستعمال المصطلحات العلمية، ومناقشة المعارضين لأسلوبهم العقلي، ولم يكن يسوغ ذلك، بل يعدّه أفضل الجهاد وأعظم القربات في ذلك العصر.

وإذ يعتبر الكثيرون أن الإمام أبو حنيفة النعمان هو المؤسس الحقيقي لهذا المنهج وهذه المدرسة الفكرية، ومن بعده الائمة الشافعي والبخاري، إلّا أن أبا الحسن الأشعري هو الذي وضع الأطر التي نعرفها لهذا التيار الفكري، وسار عليه الأزهر الشريف منذ عهد صلاح الدين وكذلك الجامع الأموي في دمشق وجامع الزيتونة في تونس.

يستدل الأشعري على العقائد بالنقل والعقل، فيثبت ما ورد في الكتاب والسنة من أوصاف الله والاعتقاد برسله واليوم الآخر والملائكة والحساب والعقاب والثواب، ويستدل بالأدلة العقلية والبراهين المنطقية على صدق ما جاء في الكتاب والسنة، بعد أن أوجب التصديق بها كما هي نقلاً، فهو لا يتخذ من العقل حَكَمَاً على النصوص ليؤولها، بل يتخذ العقل أداة ليؤيدها.

إن الاستدلال عند الأشاعرة يكون بالأدلة النقلية (نصوص الكتاب والسنة)، وبالأدلة العقلية على وجه التأييد، فالأدلة النقلية والعقلية عندهم يؤيد كل منهما الآخر، فهم يرون أن النقل الثابت الصريح والعقل الصحيح لا يتعارضان.

والأشاعرة عندما يجادلون مخالفيهم الذين لا يؤمنون بالكتاب والسنة، فإنهم يقدمون الأدلة العقلية على النقلية لإقناعهم والرد عليهم، وهذا هو المنطق السليم، لأن القرآن والسنة ليسا بأدلة مقنعة لمن لا يؤمن بهما، وفي هذه الحالة لا يمكن الاستدلال بالنقل، بل يجب البرهان بالعقل، وبعد إقامة الأدلة العقلية على الإيمان بالله وأن القرآن كلام الله وأن محمد بن عبد الله هو رسول الله، عندها فقط يمكن الاحتجاج بالقرآن والسنة أي بالنقل.

وهناك عبارة مشهورة عند الأشاعرة وهي: "طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم".

السلفية

هي منهج إسلامي يدعو إلى فهم الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، وهم الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، باعتباره يمثل نهج الإسلام الأصيل، والتمسك بأخذ الأحكام من القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة، ويبتعد عن كل المدخلات الغريبة عن روح الإسلام وتعاليمه، والتمسك بما نُقل عن السلف.

وقد نشأت السلفية في مواجهة المعتزلة، وانحسرت بعد إبعاد المعتزلة عند مجيء الخليفة المتوكل، ثم استعادت مكانتها في القرن السابع على يد ابن تيمية، الذي عمل على إحياء الفكر السَّلَفي، وقام بشن حملة على من اعتبرهم أهل البدع، داعياً إلى إحياء عقيدة ومنهج السلف من أجل تحقيق النهضة.

ولقد أثارت دعوته جدلاً في الأوساط الإسلامية حينها فاستجاب بعض العلماء وطلبة العلم لأفكاره، مثل الذهبي وابن قيم الجوزية، ثم شهدت السلفية انحساراً كبيراً بعد ذلك، لتعاود الظهور مرة أخرى في القرن الثامن عشر الميلادي متمثلة في دعوة محمد بن عبد الوهاب في شبه الجزيرة العربية.

وقد أصبحت السلفية في جانبها المعاصر، تمثل مدرسة من المدارس الفكرية للحركات السنية التي تهدف إلى إصلاح أنظمة الحكم والمجتمع والحياة عمومًا بما يتوافق مع النظام الشرعي الإسلامي بحسب ما يرونه، متأثرة بأفكار أحمد بن تيمية، وقام محمد بن عبد الوهاب بإحياء هذا المصطلح من جديد في منطقة نجد في القرن الثاني عشر الهجري، وعُرِفَتْ هذه الحركة التي أسسها باسم الحركة الوهابية.

من أبرز ممثلي هذه المدرسة في العصر الحديث، ومن أهم أعلامهم: عبد العزيز بن باز ومحمد ناصر الدين الألباني ومحمد بن صالح بن عثيمين.

تعتمد السلفية في الأمور الدينية على المصادر التالية:

- القرآن: وهو المصدر الرئيسي للتّلقّي عند السلفية، ويستعينون على فهمه وتفسيره بالعلوم المساعدة على ذلك، كعلوم اللغة العربية، والعلم بالناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، وبيان ما هو مكيّ ومدنيّ، ونحو ذلك من العلوم.

- السنة الصحيحة: والسنة عندهم هي كل ما صححه علماء الحديث عن النبي من الأقوال والأفعال والصفات الخَلْقية أو الخُلُقية والتقريرات، والسنة منها الثابت الصحيح، ومنها الضعيف، والصحة شرط لقبول الحديث والعمل به عندهم بحسب قواعد التصحيح والتضعيف، ولا يشترطون أن يكون الحديث متواتراً، بل هم يعملون بالمتواتر والآحاد على السواء.

- الإجماع: هو اتفاق جميع رجال الدين المجتهدين من المسلمين في عصر من العصور على حكم شرعي، فإذا اتفقوا سواء كانوا في عصر الصحابة أو بعدهم على حكم من الأحكام الشرعية كان اتفاقهم هذا إجماعاً.

وهذه الأصول الثلاثة هي المصادر الرئيسية في منهج التلقي، والسلفيون لا يقرون قولاً ولا يقبلون اجتهاداً إلا بعد عرضه على تلك الأصول، ولا يخالفونها برأي ولا بعقل ولا بقياس، بل يجتهدون بآرائهم في ضوء تلك المصادر من دون أن يخالفوها، كما أن إجماع السلف عندهم حجة شرعية ملزمة لمن يأتي بعدهم.

- القياس: وهو حجة عند جمهورهم سواء كان قياساً جلياً "حجة قطعية" أو خفياً "حجة ظنية".

يعتقد السلفيون أنه لا تعارض بين نقل صحيح وعقل صريح، وأن النقل مقدم على العقل، فلا يجوز معارضة الأدلة الصحيحة من كتاب وسنة وإجماع بحجج عقلية أو كلامية.

مما تقدم يتبين لنا أن السلفية هي تيار فكري إسلامي، يتفق فيه أتباعه في التعامل مع النصوص الشرعية، ولكنهم يختلفون في التعامل مع الواقع الذي يعيشه المسلمون.

إن الهدف من القاء هذه النظرة على الحركات والتيارات الفكرية في الإسلام، لم يكن لدراستها أو مناقشة أفكارها، ولم يكن لتبني أفكار تيار دون آخر، وانما جاء ليبين بأنها تيارات فكرية نابعة من الفكر الإنساني، وُلدت في ظروف معينة، فهي تُعبّر عن رأي أصحابها، ولذلك فهي تحتمل الصواب والخطأ، وهي ليست تعبيراً عن التيار السائد في الإسلام والذي شرحناه عندما تحدثنا عن "منهج الوسطية"، وقد قدمنا ما يكفي من الآيات والاحاديث التي تدعوا إلى الحوار والتعايش السلمي والاحترام المتبادل، لكي يسود العدل والسلام والعيش الحر الكريم للبشرية جمعاء، لأننا في النتيجة أخوة من أمّ واحدة وأب واحد هما: آدم وحواء، وقد جاء في خطبة الوداع عن النبي

صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله اتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد، قالوا نعم، قال: فليبلغ الشاهد الغائب".

السلطة ونظام الحكم في الإسلام

مما تقدم يتبين لنا أن التيارات الفكرية التي تم استعراضها قد بدأت دينية عقائدية، ولكنها سرعان ما تحولت إلى تيارات سياسية دنيوية، لعب الحكام دورا في تطورها بل وفرضها على الناس، فكان ذلك بداية الانحراف عن فكر الإسلام الأصيل، الذي ترك للناس حرية الإيمان والكفر ومنع الاكراه في الفكر والعقيدة، مبينا أن الاله الخالق سبحانه، بيده كل شيء، ومع ذلك لم يجبر الناس على الإيمان، وأنكر حتى على رسوله الكريم إكراه أحد من الناس على الإيمان، لأن الإنسان حر وله حق الاختيار، وأن دور الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ينحصر بالدعوة والارشاد والتذكير، وليس بالسيطرة والقوة والاكراه، ولنقرأ معا قول الله سبحانه في الآيات التالية:

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الأرض كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (يونس 99).

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (البقرة 256).

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (الغاشية 21–22).

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (ق 45).

إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إلى رَبِّهِ سَبِيلًا (الإنسان 29).

وقد سبق وتحدثنا عن ذلك كثيرا ولا ضرورة للإعادة، فالآيات واضحة وليست بحاجة إلى شرح أو تفصيل أكثر.

لكن حديثنا عن التيارات الفكرية لن يكون كاملا دون الحديث عن النظام السياسي، أو لنقل عن نظام الحكم في الإسلام، لأن هذا الأمر كان وما يزال موضع خلاف بين التيارات الفكرية المختلفة، مع الاشارة إلى أننا سنستعرض ذلك باختصار، لكيلا نبتعد عن الهدف من هذا الكتاب.

وسنبدأ حديثنا بالسؤال التالي: هل هناك نظام محدد للحكم في الإسلام؟ ولعلنا لا نخطئ إن تسرعنا وأجبنا بالنفي عن هذا السؤال، وذلك لأن الإسلام لم يحدد نظاما معينا للحكم، تاركا للمسلمين أن يختاروا النظام الذي يناسبهم حسب ظروف الأمة في كل عصر، ومع ذلك فإن الإسلام جاء بمبادئ عامة تشكل الاطار الذي يسترشد به المسلمون في تسيير أمورهم، وذلك عن طريق الالتزام بمبادئ ومقاصد الشريعة، كما أشرنا من قبل، والمبنيّة على أساس "جلب المنافع ودفع المضار والمفاسد"، وقديما قال الفقيه الحنبلي ابن عقيل: "إنَّ السياسة ما كان فعلاً يكونُ معه الناس أقربَ إلى الصلاح وأبعدَ عن الفساد، وإنْ لم يضعه الرسول صلى الله عليه وسلم ولا نزل به وحي".

وقد اتفق العلماء على أن الإسلام دين شامل تناولت تعاليمه أمور الدين والعقيدة، كما تناولت أمور الدنيا، ووضعت نظاما فيه قواعد وشروط تنظم حياة الناس بأفضل الطرق، وتقوم على مبادئ عامة صالحة لكل زمان ومكان، ولم تأت بشكل مفصل لكي يتمكن المسلمون من تطويرها بما يتلاءم مع متطلباتهم وحاجات مجتمعاتهم في كل زمان ومكان.

وقد ربَط الإسلام هذا النظام بفِكرته الشاملة عن الكون والإنسان والحياة، وبوظيفة الإنسان في الوجود، ومن أهم القواعد التي يستند إليها نظام الحكم في الإسلام، ضمن إطار الشريعة، تقوم على مبدأ: "جلب المنافع ودفع المضار والمفاسد".

الخلافة

في الواقع لا نجد في القرآن الكريم تشريعا يتعلق بنظام الحكم، كما أن السنة الشريفة لم تشر إلى ذلك، وقد اعتمد الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته نظام البيعة، فبايعه المسلمون في مكة وكذلك الأنصار في المدينة، ولذلك نجد أن المسلمين الأوائل، كما يقول طه حسين، قد ارتاحت نفوسهم لهذه الطريقة التي ارتضاها الرسول الكريم، ولكنهم شعروا بالفرق بين مبايعة الرسول ومبايعة الخلفاء من بعده، فالرسول يُوحَى إليه، فمبايعته في الواقع كانت مبايعة لرب العالمين الذي أرسله،

كما جاء في الآية الكريمة: إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (الفتح 10)، أمّا مبايعة الخلفاء فهي عقد وعهد بين الأمة والخليفة، ويتوجب على كل منهم احترام العقد، ولهذا سمعنا الخليفة الأول أبا بكر الصديق رضي الله عنه يعلن للملأ: "أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لي عليكم".

وقد رأينا أن المسلمين الأوائل حاولوا تطوير طريقة اختيار الخليفة، فأوصى أبو بكر بالخلافة لعمر، ولكن هذه الوصية لم تكن إلا ترشيحا له، ولم يصبح عمر خليفة إلا بعد أن بايعه المسلمون، ثم أوصى عمر بالخلافة ورشح لها ستة أشخاص، وتم اختيار عثمان من بعده، وهكذا نرى تطور الطرق التي اتبعها المسلمون في اختيار الخلفاء، ولا بد أن نتذكر دوما أن الإسلام وضع قاعدة اساسية لإدارة شؤون المسلمين، كما جاء في الآية التالية: وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ (الشورى 38)، كما أمر الله سبحانه الرسول الكريم باستشارة المسلمين في أمورهم، كما جاء في قوله تعالى: فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (آل عمران 159)، ولست بحاجة إلى القول بأن الشورى هي شكل متطور من أشكال الديمقراطية، ليس في ذلك العصر فقط، وإنما في عصرنا الحاضر أيضاً، وما يهمنا اليوم، هو أن نعرف أن الشورى هي القاعدة، وعلى المسلمين أن يبنوا عليها نظامهم السياسي بما يحقق روح الشورى وبالشكل الذي يرضونه لأنفسهم.

وقد روى لنا القرآن الكريم قصة ملكة سبأ، ودور السلطة السياسية والعسكرية في عملية اتخاذ القرارات، كما جاء في القرآن الكريم: قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ * قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (النمل 32-34).

وهنا نرى أن الملكة صاحبة السلطة السياسية، تطلب رأي القادة العسكريين، الذين يجيبون دون مبالغة، ويعلنون استعدادهم لخوض المعركة، ولكنهم يعيدون القرار للسلطة السياسية التي يجب أن تقرر، وعندما نقرأ هذه الآيات نظن أننا أمام أكثر الدول ديمقراطية في العصر الحديث! فرئيس الجمهورية فيها هو القائد الأعلى للجيش والقوات المسلحة، وعندما يريد اتخاذ قرار بالحرب، فإنه

يستشير البرلمان وهيئة الأركان، ولكنه في النهاية هو من يتخذ القرار الصعب مع كل ما يرافقه من مسؤولية.

وهذا ما يأمر الله به نبيه الكريم بقوله: فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (آل عمران 159)، فالرسول الكريم يشاور أصحابه، ثم يتخذ القرار بصفته القائد السياسي للأمة.

وهكذا نجد أن من حكمة الله رب العالمين، أنه لم يحدد طريقة معينة للشورى، لكي يترك للمسلمين أن ينظموا الشورى بما يتناسب مع مجتمعاتهم، ولا أجد هنا خلافا مع الديمقراطيات الحديثة، إلا أن الفارق الأساسي، أنه في ظل الديمقراطيات المتقدمة في عصرنا الحاضر، تقف المعارضة في وجه السلطة، وتحاول بكل الطرق والوسائل إفشالها لتأخذ مكانها! في حين أن الشورى تطالب المسلمين عند اتخاذ السلطة قراراتها، بالعمل معها لإنجاح أعمالها، لأن في ذلك تحقيقاً للمصلحة العامة! فالاختلاف في الرأي لا يبرر الوقوف في وجه القرارات لمجرد أننا في المعارضة! ولنقرأ قوله تعالى: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (آل عمران 103-104).

الخلافة والخلاف بين السُّنَّة والشيعة

خلافا لما يعتقده الكثيرون، فإن الخلاف الاساسي بين السنة والشيعة هو خلاف سياسي وليس خلافاً دينياً، إذ لا خلاف بينهم في أي من أركان الإسلام الخمسة.

إن نقطة الخلاف الرئيسية تكمن في شخصية الخليفة الشرعي للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، ففي حين يؤمن السُنَّة بأن النبي محمد مات ولم يحدد للأمة الإسلامية خليفة من بعده مما أدى لاجتماع عدد من الصحابة لاختيار خليفة الرسول بعد وفاته في سقيفة بني ساعدة، وتمت مبايعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه كأول خليفة للمسلمين، يرى الشيعة أن الرسول قد أعلن أن الخليفة من

بعده هو الإمام علي بن أبي طالب، وأن الخلافة يجب أن تكون لأهل البيت، لذلك فإن الخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان ليسوا خلفاءً شرعيين، وبذلك يكون الإمام علي بن أبي طالب هو أول خليفة شرعي للمسلمين.

أما الخلافات العقائدية والفقهية فهي خلافات ثانوية لا تبرر الصراعات والفرقة التي تفتت المسلمين في عصرنا الحاضر، وهذا مخالف لمبادئ الإسلام وروح الإسلام، ومخالفة صريحة لنص القرآن، كما جاء في هذه الآية الكريمة: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (الحجرات 10)، وكذلك ما جاء في الآية التالية: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (آل عمران 103).

وما جاء في هذه الآية أيضا: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (الانعام 159).

موضوع المرأة والرجل في الإسلام

يُعتبر الحديثُ عن المرأة في الإسلام من أكثر المواضيع حساسية، وأكثر ها مثارا للجدل، سواء بين المدافعين عن الإسلام أو خصومه، حتى بدا لمن يتتبع الموضوع عن قرب، بأنه الموضوع الوحيد الذي يهم الإسلام والمسلمين في عصرنا الحاضر، وأن كل مشاكل المسلمين قد تم تقديم الحلول لها باستثناء أوضاع المرأة، يشهد على ذلك كثرة المقالات والكتب والأبحاث التي تصدر في هذا المجال وبأكثر من لغة.

ولست أريد في هذه المقدمة أن أقلل من أهمية هذا الموضوع، فالمرأة هي نصف المجتمع، وتهميشها لا يخدم المجتمع وهو ليس في مصلحة أحد، وبالتأكيد ليس في مصلحة الرجل.

لكن ما أريد الإشارة إليه عبر هذه المقدمة، هو أن الإسلام ينظر إلى هذا الموضوع بشكله الواقعي والطبيعي، بحيث يساوي بين الرجل والمرأة في المكانة والكرامة والقيمة الإنسانية، وهذا ما تؤكده الآيات القرآنية الكثيرة ومنها قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ

عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (النساء 1)، وقوله سبحانه: فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ (آل عمران 195)، وكذلك ما جاء في الآية التالية: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ، وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ، وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ، وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ، وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ، وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ، وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ، وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ، أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (الأحزاب 35).

وبإمكاننا أن نلاحظ ببساطة أن المساواة بين الرجل والمرأة في الإسلام، هي القاعدة وهي الأصل، وخاصة في العبادات، فأركان الإسلام الخمسة، من صلاة وزكاة وصوم وحج، موجهة للمرأة كما للرجل، وهي فرائض يتساوى فيها الرجل والمرأة، مع مراعاة وضع المرأة الفيزيولوجي خلال العادة الشهرية، أو بعد الولادة، فيخفف الله عنها الواجبات مراعاة لظروفها، وهذه رحمة من الله وليس انتقاصا من مكانتها، فالمرأة بنظر الإسلام إنسان كما أن الرجل إنسان، وكما أن هناك فوارق جسدية بين المرأة والرجل، فإن الإسلام يعترف بان هناك فوارق في الأدوار أيضا، تماما كما أن هناك فوارق بالأدوار بين الرجال أنفسهم أو بين النساء، لذلك فإن الإسلام يرى في علاقة الرجل والمرأة علاقة تكامل وتكافل، لا علاقة سلطة أو سيادة، وعلى كل منهما أن يقوم بالمهام المرتبطة بهذا الدور، وهذا ما يُعرف في العلوم الإدارية بمبدأ (تقسيم العمل)، ولن نجد وصفاً للعلاقة بين الزوجين أجمل ولا أشمل من قوله تعالى: هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ (البقرة 107).

وسنرى في الفقرات القادمة أن الإسلام الذي ساوى بين الرجل والمرأة بالفروض والواجبات، وكذلك في الثواب، قد ساوى بين الجنسين في العقاب، وإذا كانت هناك تحفظات أخلاقية في الإسلام، كما في كل الشرائع السماوية، فهي تحفظات تنطبق على الرجل كما تنطبق على المرأة، والأخلاق ليست كما يتخيل البعض، ضريبة على النساء دون الرجال، بل هي ضوابط لحياة الرجل والمرأة على السواء.

المرأة قبل الإسلام

لم يكن وضع المرأة عبر التاريخ، وخاصة في علاقتها بالرجل، وضعا تسوده العدالة أو الاحترام، بل كانت في كثير من الحالات والبلدان تعاني الإهانة والاستبداد، ولم يكن لها حرية التصرف أو الاختيار، ليس بمالها فقط، بل حتى بنفسها وبأمورها الشخصية، فكانت تُباع وتُشرى،

وتُوهب أو تُقرض، بل كانت تُستخدم كسلعة لتسديد الديون، ناهيك عن أنها لم تكن تملك أو تَرِثُ، والأدهى من ذلك كله، أنها كانت عند وفاة زوجها تُوَرَّثُ مع ما كان يتركه من مال أو متاع، إضافة إلى ما كان شائعا عند العرب من عادة وأد البنات وهن أحياء!

ولست بحاجة إلى التذكير بأوضاع المرأة عند الحضارات القديمة، في اليونان وروما، بل حتى في أوروبا وعلى مستوى المفكرين والفلاسفة، ولكنني سأكتفي بالأمثلة التالية:

- قال اليونانيون عن المرأة: إنها شجرة مسمومة وإنها رجس من عمل الشيطان.
- وقال الرومان: المرأة ليس لها روح.
- وقال الصينيون: المرأة مياه مؤلمة تغسل السعادة.
- وعند الهنود قالوا عنها: ليس الموت، والجحيم، والسم، والأفاعي، والنار، أسوأ من المرأة
- وفي فرنسا: عقد الفرنسيون في القرن السادس مؤتمراً للبحث: هل تُعَدُّ المرأةُ إنساناً أم غير إنسان؟! وهل لها روح أم لا؟ وإذا كان لها روح، فهل هي روح حيوانية أم روح إنسانية؟ وإذا كانت روحاً إنسانية، فهل هي على مستوى روح الرجل أم أدنى منها؟ وأخيراً "قرروا أنَّها إنسان، ولكنها خُلقت لخدمة الرجل!".
- وأصدر البرلمان الإنكليزي قراراً في عصر هنري الثامن ملك إنكلترا، يحظر على المرأة أن تقرأ كتاب العهد الجديد أي الإنجيل لأنَّها تعتبر نجسة.
- وعند العرب قبل الإسلام: تُبغَضُ بغض الموت، بل يؤدي الحال إلى وأدها أي دفنها حيّة.

المرأة في الإسلام

وعندما جاء الإسلام، ألغى نظام وراثة النساء كما تُوَرَّثُ التركات والمتاع، وأعطى للمرأة حقها كاملاً في أن تفعل بنفسها ما تشاء، وجعل لها حقا في الميراث، وجعل لها ذمة مالية مستقلة

عن الرجل، سواء كان الأب أو الأخ ام الزوج، فليس لأحد أن يتصرف بمالها، وليس لأحد أن يمنعها من التصرف بما تملك بحرية.

وقد سبق وأشرنا في المقدمة بأن الإسلام قد ساوى بين الرجل والمرأة في المكانة والكرامة والقيمة الإنسانية، كما ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة في حق الحياة، وجعل التعدي على هذا الحق من أكبر الذنوب، كما استنكر الإسلام ما كانت تفعله بعض القبائل في الجاهلية من وأد للبنات، واعتبرها جريمة شنيعة.

كما ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة في الأحكام الشرعية، كالقصاص والدية، وجعل دم المرأة مساويا لدم الرجل، وساوى بينهما في التكليف والجزاء، فلا تختلف المرأة عن الرجل في التكاليف الشرعية والجزاء الأخروي، وكذلك نجد المساواة في التصرفات المالية، فإذا بلغ الإنسان وأصبح عاقلا راشدا، كانت له شخصيته القانونية وذمته المالية الكاملة، وأصبح حرا في أن يتصرف بما يملكه كما يشاء، بالبيع والهبة والوصية والإيجار وغير ذلك، يستوي في هذه الاحكام الرجل والمرأة، وفي ذلك تأكيد لا لبس فيه على حق المرأة في العمل والتجارة وكل مجالات الاستثمار تماما كالرجل.

ولا بد أن نشير إلى الموضوع الأهم وهو المساواة في حرية التفكير والرأي والتعبير، فما دامت المرأة كالرجل في مسؤولية التكليف والجزاء، فإنها تتساوى معه في حق التفكير وحرية الرأي ووجوب النظر والتدبر والتفكر وخاصة حقها في الدراسة والتعليم، كما جاء في الحديث الشريف "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة"، وهذا هو أول تشريع عالمي لإلزامية التعليم في المجتمع المسلم.

وكلنا يذكر ما جرى في صلح الحديبية، وكيف تردد المسلمون بقبول هذا الصلح الذي وقعه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدخل الرسول على زوجته أم سلمة صائحاً: "هلك المسلمون يا أمَّ سلمة أمرتهم فلم يمتثلوا"، وفى رَوِيَّة وحزم، قالت أمُّ سلمة: اعذرهم يا رسول الله، فقد حمّلتَ نفسك أمراً عظيماً في الصلح، ورجعوا دون فتح ولا حج، فهم لذلك مكروبون، والرأي أن تخرج ولا تلوي على أحد، فتبدأ بما تريد، فإذا رأوك فعلت، تبعوك وعلموا أن الأمر حتم لا هوادة فيه، وهم مؤمنون بك، محبوك مضحون فيك، فانشرح من النبي صدره واستقر قلبه واطمأن إلى ما ارتأت ربة الفكر الجيد والرأي الناضج، وقام من فوره إلى هَدْيِهِ (أي الأُضْحِيَة) فَنَحَرَه، ودعا بالحلاق فحلق رأسه،

وصَدَقَ رأيُ أم سلمة، فلم يكد المسلمون يرون النبي يذبح ويحلق، حتى تواثبوا إلى الهدْيِ (أي الأضاحِي) فنحروا، وإلى الرؤوس فحلقوا، ثم رجعوا إلى المدينة موفين بعهدهم مؤمنين بحكمة نبيهم.

وكلنا يعرف أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبايع النساء كما يبايع الرجال، والمبايعة تشبه التصويت في عصرنا الحاضر، فكانت المرأة تدلي بصوتها كالرجل.

وكان من ثمار هذا التطور الجديد الذي جاء به الإسلام، أن مارست المرأة المسلمة في عصر الإسلام الذهبي، ما كان معروفاً من وجوه النشاط السياسي والاجتماعي والعلمي والمدني والاقتصادي، كما مارست جميع الحريات كالرجل دون منع أو إنكار كما تشهد على ذلك صفحات التاريخ الإسلامي.

وهكذا نجد أن الإسلام جاء ليقرر وحدة الجنس البشرى في المنشأ والمصير، وفى الحياة والممات، وفى الحقوق والواجبات، أمام القانون وأمام الله، في الدنيا وفى الآخرة، لا فضل إلا للعمل الصالح ولا كرامة إلا للأتقى، ليزيل من أفكار الناس ومن قيم المجتمع، قواعد التفرقة الزائفة، والافتخار بالحسب والنسب والمال والجاه، وليرد البشر إلى حقيقتهم الكبرى، ويرجعهم إلى أصلهم الواحد، فإذا انتفى أن يكون فردٌ أفضل بطبيعته من فرد، فليس هناك من جنس وليس هنالك من شعب هو بنشأته وعنصره أفضل من الشعوب الأخرى، فالبشر جميعاً ينحدرون من نفسٍ واحدة ومن أصل واحد، فهم إخوة في النسب، وهم متساوون في الأصل والمنشأ، لذلك فإن اختلاف الأجناس ليس له علاقة بالتفاضل وإنما هو سبب ودعوة للالتقاء والتعارف كما جاء في الآية القرآنية: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِير (الحجرات 13).

وقد ساوى الإسلام في تطبيق هذه المبادئ بين المسلمين وأهل الكتاب (اليهود والنصارى)، إلا فيما يتعلق بأمور دينهم، فتُحترمُ عقائدُهم وشعائرُهم.

وقد بدأ الإسلام ثورة حقيقية فيما يتعلق بالمرأة وأوضاعها وحقوقها، وأهمية هذه الثورة أنها جاءت قبل 15 قرنا! في حين أنه في فرنسا، بلد الحرية والمساواة وحقوق الإنسان، لم تحصل فيها المرأة على حق الانتخاب إلّا بعد الحرب العالمية الثانية!

ولا بد هنا من الاشارة إلى أن هذه الثورة قد تمت في مجتمع قبلي بدوي، وفي ظروف اجتماعية معينة، ولم يكن بإمكانها أن تنجح أو أن تلقى القبول، لو لم يدعمها التشريع السماوي والفكر النبوي، ومع ذلك فإن المجتمع الذكوري بمفاهيمه القديمة الجامدة، قد أعاق هذه المساواة، وحاول تعطيلها فيما بعد، ولعل عدم استكمال هذه الثورة يعود بالدرجة الأولى إلى التخلف الاجتماعي والثقافي الذي أصاب المسلمين في العصور اللاحقة، وعادت العادات والأعراف والتقاليد لتسود في المجتمع على حساب المبادئ والنصوص، التي كانت سباقة في إعطاء المرأة كثيراً من الحقوق التي لا نجد لها مثيلا حتى في عصرنا الحاضر، وسأحاول تلخيص الحقوق التي أعطاها الإسلام للمرأة، ثم أستعرض النقاط التي يعتبرها البعض انتقاصا لحقوقها، لكي نستطيع بموضوعية أن نُكَوِّنَ فكرة عن وضع المرأة في الإسلام، وسأختم هذه الفقرات بالحديث عن مستقبل العلاقة بين الرجل والمرأة ومكانة المرأة في عصرنا الحاضر.

حقوق المرأة في الإسلام

- ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة في المكانة والكرامة والقيمة الإنسانية، وهذا ما تؤكده الآيات القرآنية الكثيرة ومنها قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (النساء 1)، وفي هذا تأكيد على المساواة في أصل الخِلقة، فالرجل والمرأة خُلقا من نفس واحدة، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إنما النساء شقائق الرجال"، رواه أبو داود والترمذي

- اعطى الإسلام للمرأة حق الاختيار، فلا تتزوج إلّا برضاها، ولا يجوز إكراهها على الزواج بمن لا ترغب به، ناهيك عن بيعها وإهدائها كما كان سائدا في الجاهلية.

- ألغى الإسلام نظام وراثة النساء كما تُوَرَّثُ التركة، وأعطى للمرأة حقها كاملاً في أن تفعل بنفسها ما تشاء، كما جاء في الآية التالية وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (البقرة 234)، وقد كانت المرأة قبل الإسلام تُورَثُ مع أموال زوجها كالمتاع.

- ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة في حق الحياة، وجعل التعدي على هذا الحق من أكبر الذنوب، كما استنكر الإسلام ما كانت تفعله بعض القبائل في الجاهلية من وأد للبنات واعتبرها جريمة شنيعة، كما جاء في الآيات التالية: وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ (النحل 58–59)، وكذلك: وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً (الإسراء 31).

- ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة في الأمور المالية، وأعطى للمرأة كالرجل، ذمة مالية مستقلة، ولكل منهما حق التصرف بأمواله كما يشاء، كما في الآية الكريمة: وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (النساء 32)، ولأن المرأة لم يكن لها حق التصرف في أموالها، فقد أكد الإسلام على هذه الاستقلالية، ولم يسمح للرجل أن يتصرف بمالها، سواء كان أباً، أخاً أو زوجاً!

- يَعتبر الإسلامُ المرأة غنيةً بغنى زوجها وليس العكس! ويُعتبر الزوجُ شرعاً مسؤولاً عن ديون زوجته، في حين أنها غير مسؤولة عن ديونه، وأخيرا يُعتبر الزوج هو المسؤول عن نفقة الاسرة والبيت والزوجة والاولاد...

- وتجب الاشارة، في هذا الموضع، إلى أن كل ذلك إنما جاء لحماية المرأة، وليس هنالك ما يمنع أن يتعاونا معا في كل أمور الحياة، فالحياة الزوجية مبنية على المحبة والمودة والرحمة وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً (الروم 21).

- ساوى الإسلام بينهما في التكليف والجزاء، فلا تختلف المرأة عن الرجل في التكاليف الشرعية والجزاء الأخروي، كما تشير إليه الآيات القرآنية الكثيرة ومنها: فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ (آل عمران 195)، وكذلك ما جاء في الآية التالية: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ، وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ، وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ، وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ، وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ، وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ، وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ، وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ، أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا

عَظِيمًا (الأحزاب 35)، وقوله تعالى: وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (التوبة 71)، وقوله تعالى: وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (النساء 124)، وقد جعل الإسلام على المرأة من الواجبات والمسؤوليات، والموالاة والنصرة ما على أخيها الرجل، قال تعالى: وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَه (التوبة 71).

- كما ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة في الجانب السلبي أيضا: الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ (النور 2)، وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا (المائدة 38)، فما هو مُحرَّمٌ على المرأة هو مُحرَّمٌ أيضا على الرجل والعقوبة واحدة، وسنعود لمناقشة هذا الموضوع بعد قليل.

- الإسلام هو أول تشريع عالمي فرض إلزامية التعليم في المجتمع على الرجل والمرأة، كما جاء في الحديث الشريف "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة"، وقد سمعنا الرسول صلى الله عليه وسلم يقول "خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء"، يقصد زوجته عائشة رضي الله عنها، وكان شعرها أحمرا، فجعل منها مرجعية دينية فقهية.

- كرّم الإسلام المرأة وذكّر المسلمين بأن المرأة هي الأم والزوجة والبنت، وابتدأ بالأم التي نالت من التكريم والاحترام الكثير، إذ لا يساويها أحد في حقها على أبنائها، بما أسدت لهم من جميل، وما تحملت من متاعب، كما جاء في الآية الكريمة: وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا (الأحقاف 15)، وفي الحديث: "أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال أمك، قال ثم من؟ قال أمك، قال ثم من؟ قال أمك، قال ثم من؟ قال أبوك" رواه البخاري ومسلم. وقد رأينا كيف كرَّمَ الإسلام الزوجة، وقد وصفها القرآن بأنها سكن للرجل، وأن علاقتهما علاقة مودة ورحمة، قال عز وجل: وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون (الروم 21)، وفي الحديث يقول الرسول الكريم: "خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي".

شبهات حول اوضاع المرأة في الإسلام

لا بد لي قبل أن اتحدث عن هذه الشبهات ودراسة ما يعتبره البعض انتقاصا لوضع المرأة في الإسلام، من الإشارة إلى أن النصوص الشرعية، كما رأينا اعلاه، قد أعطت المرأة الكثير من الحقوق، وأن الإساءة في استخدام هذا التشريع لا تعود للتشريع نفسه، وإنما تعود، في أكثر الأحيان، للأشخاص الذين يسيئون فهمه أو يجهلون أحكامه.

كما أحب ان أؤكد على نقطة هامة، وهي أن الإسلام لم يأت ليغير كل شيء في المجتمع دفعة واحدة، وأنه كان يراعي الأعراف السائدة في عصره، والتي يقبلها الناس، ما لم تكن متناقضة مع روح الإسلام ومبادئه، فإنه يقوم بتبديلها أو إصلاحها، لأنها ضارة في المجتمع، ولا يستقيم بقاؤها في ظل الإسلام، وترك ما دون ذلك للأعراف والمجتمعات ليعملوا على تحسينها وتطويرها بما يتلاءم مع قيمهم وأعرافهم، وهذا ما نجده في قوله تعالى: خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (الأعراف 199)، وقد روى البخاري من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير في قوله تعالى: "خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ" قال: "ما أنزل الله هذه الآية إلا في أخلاق الناس"، وقال البخاري: العُرف هو المعروف.

ومن هنا يتبين لنا أنه من الضروري، في فهمنا وقراءتنا للنصوص، أن نميز بين ما أقره الإسلام وهو من العرف، وما فرضه فهو من الشريعة، والفرق بينهما شاسع وكبير.

وقد سبق وأشرنا إلى هذه النقلة النوعية والثورة الحقيقية في تصحيح أوضاع المرأة، وقلنا إن عدم استكمال هذه الثورة يعود بالدرجة الأولى إلى التخلف الاجتماعي والثقافي الذي أصاب المسلمين في العصور اللاحقة، وعادت العادات والاعراف والتقاليد لتسود في المجتمع على حساب المبادئ والنصوص، وهذا ما سنراه بعد قليل.

نقاط الانتقاص من حقوق المرأة

إن من يراقب أوضاع المرأة في المجتمعات المسلمة، لا بد أن يلاحظ الظلم الاجتماعي والسياسي والفكري الذي تعاني منه المرأة المسلمة في هذه المجتمعات، وكثيرا ما نقرأ آراءً لبعض "رجال الدين"، مع أنه لا كنيسة في الإسلام، وهم يفتون ويحرمون ويقررون بأن على المرأة أن تفعل

أو لا تفعل، وأنه يجوز لها أو لا يجوز، دون أن يميزوا بين العرف والشريعة، ودون الالتفات إلى مقاصد الشريعة السمحة التي عبر عنها رب العالمين بقوله: يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ (البقرة 185)، وقوله سبحانه: هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ (الحج 78).

وسأحاول استعراض بعضٍ من هذه النقاط لشرحها وفهمها ضمن اطارها الصحيح، راجياً أن لا أبتعد عن الصواب، فإذا أصبت فمن الله، وإن اخطأت فمن نفسي، والله ولي التوفيق.

- قوامة الرجل، كما جاء في الآية الكريمة: الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ (النساء 34).

- الإرث، وإعطاء الذَّكَر ضعف نصيب المرأة، لقوله تعالى: يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ (النساء 11).

- شهادة المرأة، كما جاء في قوله تعالى: وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ (البقرة 282).

- تعدد الزوجات، كما جاء في الآية التالية: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً (النساء 3).

- الطلاق بيد الرجل دون المرأة، لقوله تعالى: وَإِذا طَلَّقْتُمُ النَّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ (البقرة 231).

قوامة الرجل

يعتقد الكثيرون أن القوامة تعني سلطة الرجل أو سيادته على المرأة، في حين أنها تعني المسؤولية أكثر منها السلطة، يقول العرب فلان يقوم بخدمة فلان، أي يسهر على خدمته، فهل هذه سيادة أم مسؤولية كما أشرنا، ولنقرأ قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ (النساء 135)، وهذه هي مسؤولية الشهادة بالعدل وليست السيادة كما هو واضح من الآية الكريمة.

ولكننا سنعود إلى المعنى الأول أي القيادة، فكلنا يعرف أنه لكي تستقيم الأمور في أيّ منظمة، كبيرة كانت أم صغيرة، لا بد من تطبيق مبدأ (وحدة القيادة)، يقول المولى عز وجل مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إذا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (المؤمنون 91)، ولأن العائلة وحدة اجتماعية صغيرة، فإنه لا بد لها من مسؤول يديرها ويقوم بشؤونها، ويتحمل أعباءها ويقوم بحمايتها، فهل تكون هذه القيادة العائلية للرجل أم للمرأة؟ أم يشترك الرجل والمرأة معاً في قيادتها؟

لا بد قبل الإجابة على هذا السؤال أن نُذكّر بأن أكثر القوانين الاوروبية، كما في فرنسا مثلا، تتحدث عن دور الرجل وتعتبره "رب العائلة"، والقرآن الكريم يعطي هذا الدور للرجل وذلك لسببين: الأول لأنه جسديا أقوى من المرأة، فعليه تقع مسؤولية حماية الأسرة والدفاع عنها، والسبب الثاني أن الرجل هو من كان يعمل وعليه تقع مسؤولية الانفاق على الاسرة، وقد سبق وأشرنا إلى أن المرأة، حتى وإن كانت غنية، فليس عليها واجب النفقة على الأسرة، ولكن لها أن تفعل ذلك برضاها، ومن هنا كانت القوامة للرجل من حيث المبدأ، ولا بد أن نؤكد بأن قوامة الرجل على المرأة لا تعني سيادة الرجل عليها، ولا تعني الاستبداد والتسلّط والإجحاف وسلب حقوق المرأة الإنسانية، بل تعني تحميل الرجل مسؤولية إدارة الأسرة، لقوله صلى الله عليه وسلم: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيّته".

وأخيرا لا بد من التذكير بأن جوهر العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة في الإسلام، يجب أن تقوم على المحبة والاحترام والتعاون كما جاء في القرآن الكريم: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (الروم 21).

ولا بد لي أن أضيف أخيراً، بأن هذه "القوامة" ليست ثابتة للرجل ولا حكراً عليه، إذا لم يوف حقّها ويقم بواجبها، كما أنها تقتصر على شؤون الأسرة، وقد سبق وأشرنا أنه لا يحق للرجل أن يمد يده إلى مال زوجته أو يمنعها من أن تتاجر بمالها، والإسلام يضمن لها ذلك، وقد يكون مفيدا أن نذكّر بهذه المناسبة ما جاء في بعض الروايات من أن فاطمة الزهراء، بنت رسول الله، تقاضت مع علي عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يقسّم العمل بينهما، فصار الاتفاق أنّ الزهراء تطحن وتعجن وتخبز، وأنَّ أمير المؤمنين يكنّس البيت ويستقي الماء ويحتطب، وهكذا يتبين لنا مما تقدم أن الفارق بين الرجل والمرأة هو فرق في الأدوار وليس في القيمة والمكانة، وأن الرجل له بعض

الخصائص المختلفة عن المرأة، كما للمرأة بعض الخصائص المختلفة عن الرجل، ومن روعة الأسلوب القرآني أنه قال: الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، ولم يقل بما فَضَّلَ الرجال على النساء، ومن الواضح في الآية الكريمة أن للرجل مزايا على المرأة كما أن للمرأة مزايا على الرجل وهذا ما يدل عليه التعبير القرآني: بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ.

الإرث

جاء الإسلام في عصر لم تكن المرأة تملك فيه حتى نفسها، ليس عند العرب فحسب، بل لدى كل الشعوب الأخرى، وكانت تُعتبر سلعة يرثها أهل زوجها، ولم يكن بإمكانها التصرف بنفسها، فبدأ الإسلام بإعطائها ذمة مالية مستقلة مع حرية التصرف بمالها دون وصاية من أحد، ثم أعطاها الحرية لتفعل بنفسها ما تشاء إذا مات زوجها، بل وأكثر، فقد جعل لها حصة من الميراث، وليس من المبالغة أن نقول بأن الميراث كما جاء في القرآن الكريم كان ثورة حقيقية ضد التقاليد التي كانت سائدة في العالم وقتها، وخاصة تقاليد المجتمع العربي، بحيث أصبحت المرأة وارثة وليست داخلة في الأشياء التي تورث، أو على الأقل كانت ممنوعة من الميراث.

ولعل من المفيد أن نشير إلى أن آيات الميراث قد جاءت في سورة "النساء"، وكأنما أراد الله سبحانه أن يبين لنا أنه سيكون للنساء اعتبار خاص في موضوع الإرث، وقد جاءت آيات الميراث في بداية السورة، ثم جاءت الآية الاخيرة لتذكر بما تقدم، وهي: يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (النساء 176).

وقد يظن البعض أن الإسلام يظلم البنت عندما يعطيها نصف حصة أخيها من تركة الأب أو الأم، كما جاء في قوله تعالى: يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ، وهذه الملاحظة ليست جديدة ولا غريبة عن الإسلام بما يحمل من حرية التعبير، وقد جاء في الحديث أن أم سَلَمَةَ قَالَتْ "يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَغْزُو الرِّجَالُ وَلَا نَغْزُو، وَإِنَّمَا لَنَا نِصْفُ الْمِيرَاثِ"، فنزلت الآية: وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا

فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (النساء 32).

ولا بد لكي نفهم هذا التوزيع أن نذكّر بأن الإسلام يحرص أكثر ما يحرص على العدالة ويقدمها على المساواة، ومن ذلك جاءت القاعدة الفقهية: "الغُرْمُ بالغُنْم"، أي أن هناك علاقة بين المسؤولية والأجر، بين الحقوق والواجبات، ولأن الولد بمقدار ما يرث من أهله إذا كان لديهم مالاً، فإنه يتحمل نفقتهم إذا كانوا بحاجة خلال حياتهم، ولأن الرجل هو من كان يعمل في الغالب وبالتالي فهو الذي لديه القدرة على إعانة أهله في حياتهم، فقد فرض عليه الإسلام ضعف ما على أخته في النفقة، ومن العدالة أن يعطيه ضعف ما أعطى أخته تماشيا مع واجب كل واحد منهما، كما أن الإسلام أوجب عليه النفقة على أخته إن لم يكن لها معيل، في حين لم يكلفها الشرع بأي مسؤوليات تجاهه، وأخيراً فإن هذه القاعدة ليست عامة، فالأم ترث كالأب مع أنها أنثى، والاخوة لأم يتساوى فيهم الذكر والانثى.

ولن اطيل الحديث أكثر ولكنني أجد أنه من الضروري أن الفت الانتباه إلى أن هذه الحصة من الميراث التي تُعطى للمرأة، هي الحد الادنى الذي يحفظ لها حقها، وأنه ليس هناك ما يمنع أن يتقاسم الأخوة التركة بالتساوي إن شاؤوا، أو أن يتنازل الأخوة عن حصتهم لأخواتهم، إذ يجب أن لا ننسى أن علاقة الأخوّة هي علاقة محبة ومسؤولية ورحمة، وليست علاقة مادة وطمع، وما قلناه عن تنازل الأخ عن حصته لأخته، يمكن أن نقوله عن تنازل الأخت عن حصتها لأخيها إن كان بحاجة وهي ميسورة الحال، والشرط الوحيد لذلك أن يكون برضى الطرفين ودون ضغط أو إكراه.

شهادة المرأة

يرى البعض في قوله تعالى: وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ، انتقاصا من أهلية المرأة، إذ جعل شهادتها مساوية لنصف شهادة الرجل، ولعل هذا الخطأ في فهم الآية بهذا الشكل يعود إلى عدم التمييز بين الشهادة والإشهاد، ولكننا قبل أن نشرح ذلك سنشير إلى أن هذا المقطع هو جزء من الآية المتعلقة بالديون والمعاملات التجارية وهي: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إذا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِن كَانَ الَّذِي

عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأخرى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إذا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيراً أَو كَبِيراً إلى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إذا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فإنه فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (البقرة 282)، وكلنا يعرف أنه كان من النادر في ذلك العصر أن تتعاطى المرأة التعامل بالأمور المالية، وبالتالي كانت معرفتها بالمصطلحات الخاصة بهذا المجال محدودة، مما يجعلها عرضة للنسيان، لذلك تتوجه هذه الآية بالنصح والإرشاد لصاحب الحق أن يُحضر من يشهد له، وهذا هو الإشهاد، وأن يكتب العقد كاتب بالعدل، وهنا جاء الإرشاد بإحضار رجلين أو رجل وامرأتين، وهذه الآية ليست موجهة إلى القاضي ولا تتعلق بالشهادة أمام القاضي، فحكم القضاء مبني على البيّنة، والشهادة لا تتخذ من الذكورة أو الأنوثة معيارا لقبولها أو رفضها، وإنما معيارها قناعة القاضي بصدق الشهادة، بصرف النظر عن جنس الشاهد، ذكراً كان أو أنثى، وبصرف النظر عن عدد الشهود، فالقاضي إذا اطمأن إلى البيّنة، يمكن أن يعتمد شهادة رجلين، أو امرأتين، أو رجل وامرأة، أو رجل وامرأتين، أو امرأة ورجلين، أو رجل واحد أو امرأة واحدة، ومن هنا يتأكد لنا أنه لا أثر للذكورة أو الأنوثة في الشهادة التي يحكم بها القضاء، لأن القضاء يصدر أحكامه بناء على ما لديه من بينات.

وقد أشار أحد الفقهاء، في حديثه عن الإشهاد الذي تحدثت عنه آية سورة البقرة، أن نسيان المرأة ومن ثم حاجتها إلى أخرى تذكرها "أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأخرى"، ليس طبعا ولا جبلة في كل النساء، وليس حتما في كل أنواع الشهادات، وإنما هو أمر له علاقة بالخبرة والمران، أي أنه مما يلحقه التطور والتغيير.

وأخيراً لا بد من الإشارة إلى أن النظرة السلبية للمرأة والقول بأنها عاطفية، وأنها لا تملك الخبرة، هي نظرة مخالفة للواقع حيث نجد أن المرأة في أيامنا هذه قد بلغت في العلوم المعاصرة وفي مجالات الحياة المختلفة مستوى تتميز به عن كثير من الرجال، مما يتطلب إعادة النظر في كثير من هذه الاحكام، وهذا ينطبق على الشهادة كما ينطبق على القيادة، ولكن مشكلة الكثيرين فينا أنهم يقرؤون في الكتب ولا يتابعون واقع الحياة.

وسنختم هذا الموضوع بما قلناه في أكثر من مكان، من أن القرآن والسنة حددا أحكاماً تفصيلية ثابتة للعبادات، أما المعاملات فلم يحددا لها في الغالب سوى مبادئ عامة، تاركين للناس مهمة تطبيق هذه المبادئ في شتى نواحي الحياة، وهذه هي دائرة الاجتهاد المشروعة، لذلك يرى محمد عبده أن الدين أُنزلَ لمصلحة الناس، وأن مِن أصوله منع الضرر والضرار، فإذا ترتب على شيء مفسدة في زمن لم تكن تلحقه فيما قبله، فلا شك في وجوب تغيير الحكم وتطبيقه على الحالة الحاضرة، على قاعدة درء المفاسد مقدم على جلب المصالح".

تعدد الزوجات

يعترض أنصار حقوق المرأة على نظام تعدد الزوجات الذي يقره الإسلام، ويعتبرون أن فيه إهداراً لكرامة المرأة وإجحافاً بحقها واعتداءً على مبدأ المساواة بينها وبين الرجل، مرددين الآية التالية: فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ، وكأن هذه الآية الكريمة تحض على تعدد الزوجات، إن لم تكن تأمر بذلك!

إن السبب في هذه الرؤية المبسطة أنهم لم يقرؤوا الآية كاملة فأخرجوها من سياقها العام، ولم يفهموها على حقيقتها، وسنوردها كما جاءت في سورة النساء: وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا * وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً.

إنَّ أول ما يلفت الانتباه، هو أن هذه الآيات قد وردت لدى الحديث عن الأيتام والعناية بهم وحفظ أموالهم وتمكينهم من الاستفادة منها، وحذرت الآيات من أكل أموالهم بالباطل أو التفريط فيها بأي شكل من الأشكال، وقد جاء موضوع تعدد الزوجات في قوله تعالى "فانكحوا ما طاب لكم من النساء"، جواباً للقسم الاول من الآية "وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى"، بشكل يوحي بأن هناك ارتباطا وعلاقة بين الاهتمام باليتامى وتعدد الزوجات، والمقصود من سياق الآيات الأولى من سورة النساء هو وضع القواعد الأساسية في كيفية معاملة اليتامى وإدارة أموالهم لأنهم فقدوا آباءهم وأصبحوا بحاجة إلى ولي يرعاهم ويدير شؤونهم، وخاصة المادية منها، وهذا يتطلب من الولي أن يتردد على اليتامى ليتابع أمورهم ويقدم لهم الخدمات والمساعدات، وهو في تردده هذا سيكون على احتكاك بالأمهات الأرامل، وقد تتولد علاقات غير شرعية مع هؤلاء الامهات، ومن هنا جاءت الآية

لتسمح بزواج الرجل من الأمهات الأرامل منعا من الانزلاق في الرذيلة، وهكذا نجد أن السماح بنكاح النساء وعددهن إنما جاء جوابا لشرط الخوف من عدم العدل في اليتامى، وهذا ما لم ينتبه إليه كثير من العلماء والمفسرين، والله أعلم.

ثم إن الله يقول: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً، وهذا شرط يحد من اللجوء إلى ذلك إلّا كما قلنا في الحالات الضرورية والخاصة، وقد جاء في آية أخرى: وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ (النساء 129)، وهذا تأكيد على تحديد اللجوء إلى التعدد، دون أن يمنعه نهائيا، لكي يمكن اللجوء إليه في حالات الضرورة، والقاعدة الفقهية تقول: "الضرورة تقدر بقدرها".

مما تقدم، يبدو لنا أن تعدد الزوجات إنما يكون من الأرامل وأنه جاء لغاية سامية تتعدى حب اللذة إلى الرغبة في فعل الخير لليتامى.

ولقد أشرنا في غير مناسبة إلى أن الإسلام دين واقعي لا يختبئ خلف القيم المثالية عندما يواجه مشكلة اجتماعية، بل يحاول إيجاد حل مناسب لها، ويعمل على تأطيرها وتنظيمها ووضع الضوابط لها، بدل أن يتركها للفوضى ولرغبات الناس ونزواتهم، ومن هنا فإننا نجد أن إباحة تعدد الزوجات، إنما جاء استجابة لحالة اجتماعية، هي التي تسمح أو لا تسمح باللجوء إلى هذه الآراء، وخلاصة الرأي ما يلي: عندما تندلع الحروب فإن أكثر القتلى إنما يكون بين الرجال الذين يحاربون، وتكثر الأرامل واليتامى، ولأن كثيرا من هذه الأرامل لن يجدن رجالا للزواج، ولأن المرأة إنسان كالرجل، لها رغباتها وحاجاتها الجنسية، وهي بحاجة لإشباعها، ولأن الزنا محرم في الإسلام، كما في كل الشرائع السماوية، لذلك أباح الإسلام، وضمن شروط، تعدد الزوجات، على أن يكون ذلك هو الاستثناء وليس القاعدة، وذلك لإيجاد حل للأرامل ضمن القانون، وخاصة خلال الحروب أو بعدها حيث تكون هذه الحالات أكثر شيوعا من الحالات العادية ويزداد عدد الأيتام، وكذلك الحاجة إلى من يتدبر شؤونهم والاهتمام بهم ورعايتهم وتقديم العون لهم دون ظلم أو إساءة لهم.

إن الأصل في الزواج هو الزواج بواحدة، وقد خلق الله آدم وخلق معه زوجة واحدة هي حواء، يقول المولى عز وجل: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا، وقد ذكر القرآن وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ولم يقل أزواجها، كما أننا نقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ، ولا شك بأن تعدد الزوجات يخالف المودة والرحمة وسكون النفس التي جعلها الله سبحانه آية لقوم يتفكرون، وسأكرر من جديد أن العلاقة بين الرجل والمرأة كما شرعها الله هي علاقة مودة ومحبة ورحمة، وهذه العلاقة الزوجية الصحيحة هي التي تجلب السكينة والطمأنينة لكل منهما، وهذا لا يكون في علاقات الجنس العابرة، ولا في حالات الزنا أو العلاقات التي تبنى على هامش العلاقات الزوجية، لأنها مبنية على الغريزة والشهوة فقط وليس على المودة والرحمة، ولذلك فهي لا يمكن أن تدوم ولن تكون سكنا ولا طمأنينة ولا راحة بال.

إن المجتمعات الغربية الحرة والديمقراطية والتي تدافع عن حقوق الإنسان وعن حقوق المرأة قد منعت قانونيا تعدد الزوجات، لكننا نعرف جميعا، وبعيدا عن كل نفاق، أن نسبة كبيرة من الرجال المتزوجين، لديهم عشيقات أو صاحبات، وربما يكون لهم أولاد منهن، ويحاولون إخفاء ذلك عن الناس وعن المجتمع، وهؤلاء الرجال ليسوا من عامة الشعب فقط، وإنما من السياسيين ورجال الاعمال بل ورؤساء الجمهورية في بعض الأحيان، مخالفين بذلك قوانين الجمهورية والتي يقع على عاتقهم حمايتها والدفاع عنها، فإذا بهم يعتدون عليها ولا يعملون على احترامها عندما يتعلق الأمر بهم شخصيا.

أما الإسلام فإنه يؤكد على العلاقة الزوجية المخلصة، ويحرم الزنا والخيانة الزوجية، وبكل واقعية يضبط مسألة التعدد، فيسمح بها عند الضرورة، ولكنه يعتبر ذلك الاستثناء وليس القاعدة، مما يقلل من أهمية هذا الموضوع، ووضعه ضمن الإطار الصحيح، بدل أن نجعل منه محورا للقضايا الإسلامية المعاصرة.

وتجدر الاشارة في هذه المناسبة إلى الحديث النبوي الذي رواه مسلم في صحيحه حيث يقول الرسول الكريم: "إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب، فلا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، إلا أن يحب ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم، فإنما ابنتي بضعة مني يريبني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها"، وقد اتفق العلماء على أنه يحق للمرأة أن تشترط على زوجها، في عقد النكاح، ألا يتزوج عليها، وذلك لقول الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ، ولقول النبي صلى الله عليه وسلم: "المسلمون على شروطهم" ولقوله: "إن أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج"، وقد نصت أكثر القوانين في العالم على أن "العقد شريعة المتعاقدين".

وأخيرا فإنه لا بد لنا من الاعتراف بحاجة المجتمع إلى التطور والتغيير، شرط أن يرتبط ذلك بفهم مبادئ الإسلام فهماً صحيحاً، وذلك لأن الإسلام ليس دينا يقبل التغيير والتطور فقط، بل يعتبر التطور من مستلزمات الحياة الضرورية، لأنه دين عالمي صالح لجميع الشعوب، ولكل زمان ومكان، وهذا لا يتحقق الا بقراءة النصوص الدينية في ضوء المتغيرات القائمة، ومصالح الأمة دون الخروج على ثوابتها القطعية، وذلك من خلال تأويل النصوص تأويلاً جديداً، فما كان صالحاً في زمن قد يسبب أضراراً في زمن آخر، ومن هنا رأى الامام محمد عبده أن "الدين أُنزل لمصلحة الناس، وأن من أصوله منع الضرر والضرار، فإذا ترتب على شيء مفسدة في زمن لم تكن تلحقه فيما قبله، فلا شك في وجوب تغيير الحكم وتطبيقه على الحالة الحاضرة، عملا بالقاعدة الفقهية: درء المفاسد مقدم على جلب المصالح".

الطلاق

ورد في سورة البقرة: الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاّ أَنْ يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (البقرة 229)

اختلف العلماء في موقفهم من الطلاق، فذهب عدد منهم إلى أن الأصل فيه هو الإباحة، وذهب الأحناف إلى أن الأصل في الطلاق هو الحظر، لأنه ضرر بنفسه وزوجته وأولاده، إن لم تكن هناك حاجة إليه، فكان حراما كإتلاف المال لقول النبي: "لا ضرر ولا ضرار"، وذهب البعض إلى أنه مباح لقول النبي "أبغض الحلال إلى الله الطلاق"، وقد سماه النبي حلالا، وإنما يكون مبغوضا من غير حاجة إليه فيكون مكروها، يقول أحد الفقهاء: "ولولا أن الحاجة داعية إلى الطلاق لكان الدليل يقتضي تحريمه كما دلت عليه الآثار والأصول ولكن الله أباحه رحمة منه بعباده لحاجتهم إليه أحيانا"، وأما غالبية العلماء فقد قالو بإباحة الطلاق مستدلين بقوله تعالى: لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاء مَا لَمْ تَمَسُّوهُنُّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (البقرة 236).

ولن أتحدث هنا عن أحكام الطلاق وشروطه وأنواعه، فهذه المواضيع مكانها كتب الفقه التي أسهبَتْ في شرحها، ولكنني سأتحدث هنا عن حقوق المرأة في الطلاق، لأن الطلاق في الإسلام، من حيث المبدأ، هو بيد الرجل، كمبدأ القوامة الذي تحدثنا عنه وناقشناه من قبل، وقد أثار الكثيرون هذا الموضوع معتبرين أن المرأة ليس لها حق الطلاق، مما ينتقص من حقوقها، ولذلك سأحاول الإجابة عن هذه النقطة، لصلتها بالنقاط التي أشرنا إليها والمتعلقة بحقوق المرأة.

سبق وقلنا إن العلاقة بين الرجل والمرأة كما شرعها الله، هي علاقة مودة ومحبة ورحمة، وهذه العلاقة الزوجية الصحيحة هي التي تجلب السكينة والطمأنينة لكل منهما، كما جاء في الآية الكريمة: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، ولا بد أن نشير إلى روعة التعبير الرباني عندما يتحدث عن المحبة والمودة، وهنا نكتشف سر الحياة الزوجية كما جاء في هذه الآية، فالعلاقة الزوجية في بدايتها تقوم على أساس الحب والغرام، ولكنها لتستمر فإنها بحاجة إلى الاحترام والتقدير والعطف والرحمة، لذلك عندما يختفي الحب والرغبة فإن الإسلام يُذكّر الرجال بهذه الحقيقة بقوله سبحانه: وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً (النساء 19)، وكلنا يعرف كيف يتصرف كثير من الرجال، وخاصة في البلاد الغربية، إذ يتزوج الرجل في بداية حياته من فتاة من عمره، وعندما ينجح في حياته ويصبح أكثر غنى، فإنه كثيرا ما يحب فتاة صغيرة ويترك زوجته في سن لا تجد فيه، في أغلب الأحيان، شريكا جديدا لحياتها، وهنا نجد الإسلام يحث الرجل على عدم التخلي عن زوجته وإن كانت أقل جمالا، لأنه بلا شك، فإن لديها صفات أخرى جميلة، ينساها الرجل في لحظة تكون الرغبة هي محور تفكيره دون أي شيء آخر.

ومع ذلك فإن كان لا بد من الطلاق، فإن الإسلام يحفظ حق المرأة ويمنع الرجل أن يأخذ أي شيء مما كان أعطاه أو اشتراه لزوجته كما جاء في قوله تعالى: وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً (النساء 20-21).

جعل الإسلام الطلاق بيد الرجل، ولكنه أعطى الحق للمرأة أن تجعل العصمة بيدها إذا تم الاتفاق على ذلك في عقد الزواج، ومعنى العصمة أنه يحق لها أن تفسخ عقد الزواج، كما أعطاها الحق باللجوء إلى الخلع وهو اتفاق بين الزوجين على إنهاء عقد الزواج بالتراضي بينهما.

أخيرا لا بد أن نشير إلى أن الإسلام يعتبر الزواج علاقة مقدسة يجب الحفاظ عليها، فهي اتحاد بين جسدين وروحين وانفصالهما سيترك آثارا على كل من الزوجين، وفي ذلك مشقة وأسى، ولهذا طالب الزوجين والأهل بالتدخل لإنقاذ الزواج، وأنشأ مبدأ التحكيم لمساعدتهما قبل اللجوء إلى القضاء، وهذا ما نجده في أحدث التشريعات والقوانين العصرية، كما جاء في هذه الآية: وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (النساء 35).

وقد رأى الإمام محمد عبده أن الطلاق محظور في نفسه، مباح للضرورة، لأنه أبغض الحلال عند الله، ويشير إلى عواقبه الوخيمة، وضرورة إصلاح أي خلاف بين الزوجين باللجوء إلى التحكيم، فإذا فشل الحكمان أن يقاربا بينهما وقع الطلاق.

ورغم كل ما تقدم فان كثيرا من قوانين الأسرة في البلاد العربية والإسلامية، لا تعطي حق الطلاق للمرأة، وتغيير ذلك يبقى من الأمور الصعبة في واقع الحياة العملية، لأن تغيير العادات والآراء السائدة ليس سهلا في أي مكان وليس في بلاد المسلمين فقط.

الحجاب

إذا كان الحديث عن المرأة في الإسلام من أكثر المواضيع حساسية وأكثر ها مثارا للجدل، فإن الحجاب هو من أكثر القضايا التي يختلف حولها الكثير من الناس، ونادرا ما نجد أحدا لم يُدلِ بدلوه في هذا الموضوع، سواء كان ذلك عن علم ومعرفة أو عن رأي شخصي، حتى أصبح من الصعوبة بمكان التمييز بين هذه الآراء، ومعرفة ما يستند منها إلى دليل وما يعبر عن رأي شخصي، بل أصبح من غير السهل التمييز بين ما جاء من العادات والأعراف والتقاليد، أو ما جاء من الدين الحنيف، ولهذا فإنني سأتوخى الحيطة والحذر في الحديث عن موضوع بهذا القدر من الحساسية، ولا أدل على مدى الاختلاف وعمق الفجوة التي تفصل بين أصحاب هذه المواقف، من أن البعض يعتبر الحجاب فرضا وركنا هاما من أركان الإسلام، ويستدل على ذلك بآيات من القرآن الكريم وأحاديث نبوية، ورأي آخر يعتبره من العادات والأعراف، وأن الإسلام أقر هذا العرف ولم يفرضه كبديل عما كان سائدا في عصره، بدليل أنه كان لباس المرأة العربية قبل الإسلام، كما كان لباس النساء في اليهودية والمسيحية، ولباس الراهبات خير دليل على ذلك.

إن ارتداء الحجاب، من وجهة نظر المتمسكين به، هو أمر تفرضه الشريعة، فارتداؤه طاعة لله واتباع لشريعته، وعدم ارتدائه معصية وإثم كبيرين، لذلك لا يمكن اعتباره أمراً تقره الحرية الشخصية، أو أنه مسألة لها ارتباط بالزمان والمكان والأعراف والتقاليد، كما يقول البعض، ومن هنا نستطيع ان نرى الهوة الشاسعة واسباب الخلاف والنزاع بين الطرفين، المدافعين عن الحجاب والمناهضين له.

وهكذا باتت مسألة الحجاب تفرض نفسها على الفكر المعاصر، ولم يعد النقاش يتسع للحديث عن غيرها من القضايا، بل أصبحت قضية سياسية في كثير من الدول التي رأت في الحجاب مظهرا وشعارا سياسيا يؤدى إلى التفرقة بين المواطنين والتمييز بينهم، مما حدا ببعض الدول إلى إصدار القوانين التي تحد من لباسه في الدوائر الرسمية أو في الأماكن العامة!

ومن المستغرب جداً، أن تلجأ بعض الدول الحرة والديموقراطية إلى اصدار قوانين وتشريعات تتعلق بلباس المرأة فتحدد ما هو مسموح من عدمه، وكلنا يعرف أن هذا ليس من اختصاص القوانين! إن من أبسط مبادئ الحرية الشخصية هو أن يختار الإنسان لباسه كما يحب، ولست أدري كيف يكون من حق المرأة أن تلبس الثياب القصيرة جداً، في حين تُمنع من ارتداء الملابس المحتشمة، وأن يتم ذلك باسم القانون!

اللباس والحجاب

لم يولِ القرآن مسألة اللباس اهتماما كبيرا، فكلمة اللباس ذُكرت في القرآن عشر مرات، منها مرة واحدة فقط لتعني اللباس أو الثياب، كما أن كلمة الحجاب ذُكرت في القرآن سبع مرات، وليس فيها مرة واحده بمعنى زي المرأة أو لباسها، ولعل هذا يشير إلى أن هذه المسألة، رغم أهميتها، هي مسألة ثانوية، ولهذا لا نجد في القرآن الكريم نصا قطعيا يحدد هيئة ثياب المرأة أو رسمها وشكلها، ومن الغريب أن أكثر الآراء التي عالجت مسألة الحجاب، لا تشير إلى آية اللباس رغم أهميتها، حيث يقول المولى سبحانه: يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (الأعراف 26)، فهذه الآية الكريمة تؤكد على المضمون والجوهر لا على الشكل والمظهر، وهي تخاطب بني آدم رجالا ونساء ذكورا وإناثا على حد سواء، وتتحدث عن نوعين من الثياب، النوع الأول لباس مادي ملموس وهو اللباس الذي يواري العورات،

والثاني معنوي وروحي وهو "لباس التقوى"، وتعتبره أهم وخير من اللباس المادي، ولا أريد أن يفهم أحد من هذه الملاحظة ان لباس التقوى يُغني عن ستر العورات، فكلنا يعرف أن الإنسان بطبعه لديه قدر من الحياء، وأنه لا توجد حضارة في العالم إلا وتفرض على مواطنيها ستر العورات، وكل القوانين تمنع السير في الشوارع والأماكن العامة بدون ملابس، ومن هنا نجد أن الآية لم تخاطب المسلمين أو المؤمنين فقط، بل خاطبت البشرية جمعاء بقولها: "يَا بَنِي آدَمَ".

ولا بد لنا أن نتساءل هنا عن معنى السوءات أو العورات التي تتحدث عنها الآية، والتي علينا سترها؟

إنَّ السَّوْءَة مشتقة من السوء، وهي ما يسوء الإنسان ولا يحب أن يطلع عليه أحد غيره، ولكن هذا يختلف من مكان إلى آخر ومن زمان إلى زمان، وهو مرتبط بالقيم الأخلاقية السائدة في كل عصر وفي كل مكان، والآية لم تحدد ما هي السوءات، ونحن نعرف أن ما لم يحدده النص، يصبح مسألة متروكة للاجتهاد، وقد ترك الإسلام للمجتمعات والأمم، إمكانية تحسين وتطوير هذه الأعراف بما يتلاءم مع القيم السائدة في كل عصر، ما لم تكن متناقضة مع روح الإسلام ومبادئه، وهذا ما نجده في قوله تعالى: خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (الأعراف 199)، وقد روى البخاري من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير في قوله تعالى: خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ قال: "ما أنزل الله هذه الآية إلا في أخلاق الناس"، وقال البخاري: العرف هو المعروف، وقد تعارف البشر في كل انحاء العالم على أن العورات بحدها الأدنى تشمل الأعضاء التناسلية، وصدر المرأة وتمنع القوانين كشفها في الأماكن العامة، وتعاقب من يخالفها، أمّا الرأي السائد في الإسلام فإن عورة الرجل هي ما بين السرة والركبتين، وجسم المرأة كله عورة ما عدا الوجه والكفين والقدمين.

ولست أجافي الحقيقة إذا قلت بأن الحجاب موجود في جميع الشرائع والقوانين العالمية المعاصرة، وأن الخلاف هو في حجمه وشكله ومداه!

إنَّ القرآن الكريم لم يفرض زيّا معينا على المرأة، ولكنه أمر بالاحتشام في الملبس والسلوك وعدم التبرج وعدم لفت النظر بالزينة المبالغ فيها، وأن هذا اللباس يجب أن يكون محتشما لا يصفّ ولا يشفّ، وليس به ما يلفت النظر، وأن الحكمة منه، هو تمييز المرأة المسلمة لكي لا يؤذيها أحد، ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا، وأن العرف له دور كبير في طريقة ونوع اللباس

الذي ترتديه المرأة، ولم نقرأ في التاريخ أن المسلمين فرضوا زيا معينا في البلاد التي فتحوها، وقد رأى الشيخ القرضاوي "أنَّ الحجاب (الزي) هو ليس في مستوى الصلاة والزكاة، فهذه أركان الإسلام الأساسية (فرائض ركنية شعائرية)، أما الحجاب فهو فريضة من فرائض الإسلام الاجتماعية (فريضة اجتماعية).

الإسلام والحداثة

يعتبر الحديث عن الحداثة في الإسلام من أكثر المواضيع مثارا للجدل والاختلاف بين المدافعين عن الإسلام واعدائه، وبات الموقف من الحداثة يفرض نفسه على الفكر المعاصر، بل أصبح معيارا لتصنيف المفكرين والباحثين بين أولئك الذين ينادون بالحداثة ويدافعون عنها، وأولئك الذين يرفضون هذه الحداثة ويهاجمونها، وتعتبر الفئة الأولى أن أحد أهم أسباب تأخر المسلمين اليوم يعود، بشكل كبير، إلى رفضهم للحداثة التي نشأت في أوروبا وأدت إلى التقدم العلمي والثورة الصناعية وساهمت في تطور العالم الغربي كما نراه اليوم، في حين بقيت الدول الإسلامية متأخرة عن اللحاق بركب الحضارة وفي كل الميادين.

وترى الفئة الأخرى أن الحداثة تشكل خطرا وجوديا على الإسلام وأنها تهدف إلى القضاء على القيم الإسلامية، وأنها ثقافة وجودية ملحدة تقف على النقيض من كل دين.

وأمام هذه المواقف والآراء المتناقضة لابد لنا أن نحدد مفهوم هذا المصطلح لكي نتعرف إلى الأسباب التي أدت إلى كل هذا الاختلاف وكأننا نتحدث عن مواضيع لا تمت إلى بعضها بِصِلَة!

فالحداثة لغة هي مصدر من فعل "حَدَثَ"، يقال حدَثَ الأمرُ: أي وقع وحصَل، وحدَثَ الشَّيءُ: كان جديدًا وعكسه قدُمَ، والأحداث هم صغار السِّنّ، والحداثة هي أول الأمر وابتداؤه، فالحداثة في اللغة هي الجديد أو التجديد وعكسها القديم، والحديث هو إيجاد شيء لم يكن موجوداً وابتداعه، والمحدث هو الأمر المبتدع، ولعل كلمة "بدعة" هي التي تثير خشية ورفض الحداثة لدى كثير من المسلمين كما سنراه بعد قليل.

الحقيقة أن الحداثة مصطلح غربي يشمل التغيرات العلمية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية والأدبية التي بدأت في أوروبا في أواخر القرن الخامس عشر أو بداية القرن

السادس عشر، فالبعض يرى بأن الحداثة ظهرت بفكر ديكارت في القرن السابع عشر، والبعض الآخر يربطها بعصر الأنوار في القرن الثامن عشر، والبعض يربطها بالثورة الأمريكية سنة 1776م والثورة الفرنسية 1789م.

وقد أدت الحركات الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية التي اجتاحت اوروبا، مع ما رافقها من اكتشافات جغرافية وفتوحات استعمارية، وفي ذات الوقت، من ثورة علمية تقنية رافقت الثورة الصناعية، كل ذلك قد أدى إلى نشوء ما يعرف بالحداثة، ونتج عن ذلك كله طفرة حقيقية في التطور الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، وتطورت بموجبها قوى العلم والتقنية والانتاج تطورا واسعا وسريعا.

وإذا كنا نربط الحداثة عادة بالتقدم التكنولوجي والصناعي وبزوغ العلم منهجاً وممارسة، إلا أن التغيرات الفكرية كانت الأكثر تأثيرا، وتجسدت في الصراع والخصام الأدبي بين أنصار التجديد وأنصار القديم.

وقد تمثلت الحداثة في المجال السياسي بالديمقراطية والتعبير عن حرية الفرد والمجتمع وظهور المنظمات والأحزاب والنقابات...الخ

أما في المجال الاقتصادي فقد اتخذت الشكل الرأسمالي عبر فتح الأسواق لتصريف المنتوجات الصناعية والزراعية بهدف الربح.

وفي الجانب الاجتماعي تجسدت الحداثة في ظهور أنماط جديدة للاستهلاك والثورة على العادات والتقاليد وخروج المرأة إلى العمل وانفراط عقد الأسرة.

مما تقدم يتبين لنا أن الحداثة لا تخص مجالات الإبداع الفني والنقد الأدبي فقط، ولكنها تخص الحياة الإنسانية في كل مجالاتها المادية والفكرية على حد سواء.

وإذا اعتبرنا أن الحداثة هي محاولة للتجديد والإبداع وتجاوز التقليد والتخلف، وأنها تعبر عن التحول الهائل الذي غزا مجال الفكر والتقنية والمعرفة بصفة عامة، وأنها حركة نهوض وتطوير وابداع هدفها تغيير أنماط التفكير والعمل والسلوك، وأنها حركة تنويرية عقلانية مستمرة هدفها تبديل النظرة

الجامدة إلى الأشياء والكون والحياة، فهل صحيح، كما يدعي الكثيرون، أن الإسلام يتناقض معها ويرفضها وأنه لا يستطيع التعايش معها والاستفادة منها؟

الحقيقة أنه من الظلم أن نتهم الإسلام بأنه ضد التطور والتقدم، خاصة إذا قرأنا التاريخ وعرفنا ما قدمه الإسلام والمسلمون في المجالات العلمية والأدبية والفلسفية، وكيف استطاع الإسلام أن ينتقل بشعب بدوي، من البداوة والبدائية إلى قمة العلوم والحضارة وبفترة لا تتجاوز الخمسين عاما! فشيد بذلك حضارة رائعة ونهضة رائدة وحداثة حقيقية وفقت بين الجوانب المادية والروحية التي استلهمتها من الإسلام وأعطت للعالم أجمع الحضارة والعلم والمعرفة ودون مقابل.

لقد استطاع الإسلام ان يغيّر طريقة العرب في التفكير، اذ أمرهم بتوحيد الله والابتعاد عن العادات والتقاليد الموروثة واستخدام العقل والابتعاد عن عبادة الأصنام، كما جاء في قوله تعالى وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (البقرة – 170).

وكان لحداثة هذا الدين الدور الكبير في تغيير البنى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فتغيرت المفاهيم وتغيرت معها اللغة والفكر والدين والعلاقات الاجتماعية، وهكذا وجدنا بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي يجلسون حول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم على قدم المساواة مع أشراف قريش، في مشهد لم يشهده التاريخ لا من قبل ولا من بعد الإسلام، أما مبدأ المساواة بين الناس في الحقوق الذي نصت عليه وثيقة (إعلان الاستقلال الأمريكي)، فإنه لم يعمل على تحرير العبيد الا بعد أكثر من قرن من الزمان، ولم يؤد إلى القضاء على التمييز العنصري ضد الزنوج حتى الآن!

إن إلقاء نظرة سريعة على الشعر العربي في العصرين الأموي والعباسي يؤكد بما لا يدع مكانا للشك أن الإسلام قد ساهم في تطوير الشعر لغة واسلوبا ومضمونا مقارنة مع الشعر الجاهلي، كما رأينا كيف تطور الشعر الاندلسي بشكل جديد ونظم جديد، كل هذا بتأثير الإسلام الذي كان في جوهره حداثة بكل ما في الكلمة من معنى! فالإسلام من هذا المنظار ليس ضد الحداثة بل كان سباقا لمفهوم الحداثة الذي لم تعرفه أوروبا إلا في القرن السادس عشر على أبعد تقدير.

وهكذا وجدنا القرآن يدعو إلى إعمال العقل وإلى التمرد على الأفكار الموروثة، لأنها تقف عائقا أمام الإنسان في سعيه لإخلاص التوحيد والعبودية لله رب العالمين، وآيات القرآن التي تدعو إلى التفكير في الكون والوجود وإعمال العقل أكثر من أن تحصى، وليس من باب الصدفة أن نجد أن أول كلمة من القرآن الكريم نزلت على محمد هي "اقرأ"، ولو تأملنا كلمات القرآن لوجدنا أن كلمة "العلم" ومشتقاتها قد وردت في القرآن أكثر من خمسمائة مرة، دلالة على أهمية العلم في الإسلام، وسنذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (الزمر 9)

إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (فاطر 28)

أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (يس 77-83).

من كل ما تقدم يتبين لنا أن الحداثة ليست مجرد كلمة لها معان لغوية بسيطة، ولكنها كلمة ذات مدلولات تاريخية، اجتماعية، أدبية، فكرية وفلسفية، وهي ليست مصطلحاً خاصاً بالنقد والأدب، ولكنها تشير إلى صيغ عديدة تدل على الحضارة والتقدم، فهي ابتداء، تدل على مخالفة الأنماط السابقة، وتتمرد على خصائصها وسماتها، فهي صيغة مميزة للحضارة تعارض صيغة التقليد، وبالتالي فهي تعارض جميع الثقافات الأخرى السابقة أو التقليدية.

ويرى محمد أركون، أستاذ العلوم الاجتماعية في جامعة السوربون الفرنسية، أن الإسلام في لحظة انبثاقه التاريخية كان يمثل لحظة حداثة بالتأكيد، أما اليوم فقد أصبح الإسلام نوعا من التراث ومن التقليد، ومن تراكم المعارف والمواقف الثقافية المكررة، وبالتالي لا يمكن لنا أن نقول بأن الإسلام يمثل حاليا الحداثة.

إن المشكلة في العالم العربي بشكل خاص والإسلامي بشكل عام، أنه لا توجد فيهما حداثة علمية، كما هو الحال في الغرب، ولكن هناك حداثة شعرية عربية تكاد تضارع في بعض وجوهها الحداثة الشعرية الغربية،
ولقد رأينا أن الحداثة العلمية الغربية متقدمة على حداثة الشعر، بينما نرى، على العكس، أن حداثة الشعر في المجتمع العربي متقدمة على الحداثة العلمية.

إن الخلاف الحقيقي بين انصار الحداثة، في العالم الإسلامي، وبين رافضي هذه الحداثة، إنما ينبع برأينا من الاختلاف في نقطة الانطلاق، حيث يرفض مناهضو الحداثة الجوانب الأدبية والفكرية والأخلاقية التي ينادي بها انصار الحداثة، ويعتبرونها فكرا مستعارا ومستوردا لا يمتُّ إلى واقعنا بصلة، في حين أنهم يتقبلون الحداثة العلمية والتقدم الصناعي والتقني ولا يجدونها متعارضة مع الإسلام، لأن إعمال العقل والاجتهاد، واعتماد العلم والمعرفة والحرية، لا تتعارض مع القيم الإسلامية، بل هي من صميمها كما أشرنا في أكثر من موضع، في حين يتهمهم خصومهم بأنهم ضد الحداثة بكل أبعادها، وأن هذه المواقف من أهم الأسباب الكامنة وراء تأخر العالم الإسلامي في عصرنا الحاضر، ويبررون ذلك بما جاء في حديث جابر عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في خطبه: إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ وَشَرُّ الْأمور مُحْدَثَاتُهَا وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ، لكن أصحاب هذا الرأي لم يدركوا أن هذا الحديث يقصد أمور الدين والتي، كما أشرنا من قبل، تخص العبادات، والتي قلنا دوما أنه لا اجتهاد فيها، وذلك لأن الدين عقيدة لا يوضع في مقام النظريات الفلسفية التي تتغير وتتجدد مع تطور الإنسان، أما أحكام المعاملات فهي التي تتغير بتغير الزمان والمكان، وما يؤكد أن هذا الحديث يشير إلى الدين هو قول الرسول لابن عمر: "ابن عمر، دينك، دينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا".

لقد تطورت الحياة وتطورت وسائل النقل واخترع الإنسان آلات حديثة أراحت معظم الناس تقريباً، واستخدم الإنسان السيارة والطيارة، فهل أراد النبي عليه الصلاة والسلام أن كل شيء جديد محدث، وأن كل محدث بدعة، وأن كل بدعة ضلالة؟ وهل تأمين الماء النظيف الساخن للمصلين في المساجد بدعة ينطبق عليها هذا الحديث لأنه لم يكن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم؟

ولنقرأ قول الله سبحانه وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (النحل 5-8).

إن البدعة من ابتدع، وابتدع أي استحدث شيئا جديداً لم يكن من قبل، وهناك آلاف الأدوات والأجهزة لم تكن من قبل، فهل هي بدعة؟ هنا يجيء حديث آخر ليوضح المقصود بالبدعة، عَنْ الْمُنْذِرِ بْنِ جَرِيرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَمِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا لَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا"، رواه مسلم والترمذي.

وهكذا نجد أنفسنا، في العالم العربي والإسلامي أمام فئتين من المثقفين: فئة فهمت الحداثة فهما سطحيا وشكليا، بعيدا عن الواقع والمجتمع الذي تعيش فيه، فتأثرت بالحداثة المرتبطة بالحضارة الغربية وتاريخها، فأرادت نقلها وإسقاطها على المجتمع العربي والإسلامي، حيث لا وجود لحداثة في العلم أو في المجتمع أو في الاقتصاد، فاقتصرت على الإبداع الفني والأدبي، وبقيت غريبة عن الواقع الاجتماعي ومشاكله فلم تعبر عنه وبالتالي لم تؤثر فيه.

وفئة ترفض الحداثة من حيث المبدأ، وتعتبرها تهديدا للدين واللغة والفكر والثقافة، أو في أحسن الأحوال، تريد إعادة إنتاج الماضي في الحاضر، وبذلك يكون التقدم عند هؤلاء ليس في السير نحو المستقبل وإنما في العودة إلى الماضي.

والحقيقة أن الحداثة الصحيحة هي كالسيارة نسير بها نحو الأمام، وعيوننا على المستقبل، ولكننا ننظر في المرآة بين الحين والآخر، لنلقي نظرة إلى الوراء، لنرى الماضي، ولكن دون أن نطيل النظر إليه حتى لا نتعرض لحادث!

وهكذا يتبين لنا من كل ما تقدم أن الإسلام كدين ليس ضد الحداثة والتقدم، فهو مع العلم والحرية والتطور، ولكنه يدعو إلى العلم والتقدم الذي يسعى إلى خدمة الإنسان والحفاظ على البيئة، وينادي بالحرية التي لا تعتدي على حرية الآخرين، ويحض على مكارم الأخلاق، وينادي بالعدالة والمساواة وتكافؤ الفرص، ولأن الإسلام دين وليس نظرية فلسفية، فقد ربَط هذا النظام بفِكرته الشاملة عن الكون والإنسان والحياة، وبوظيفة الإنسان في الوجود، فهو باختصار ينادي بالتقدم والتطوير المسؤول عن إعمار الأرض حيث جعله الله خليفة فيها وأمره بالحفاظ عليها وسخر له كل ما فيها

من ثروات ليستعملها بشكل رشيد وأن يفكر بمصلحة الأجيال القادمة، فهي أمانة في عنقه وليست ملكا له وحده!

الخاتمة

إن الإسلام الذي نريد أن نعلمه لأولادنا هو الدين الذي ارتضاه الله لنا وأتم به نعمته علينا، كما جاء في قوله تعالى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِينًا (آل عمران 3).

الإسلام الذي نريد أن نعلمه لأولادنا هو الدين المشترك بين جميع الرسالات السماوية، هو دين إبراهيم وموسى وعيسى ودين محمد عليهم أفضل الصلوات وأتم التسليم، لا نفرق بين أحد من رسله ونحن له مسلمون.

الإسلام الذي نريد أن نعلمه لأولادنا هو دين الحوار والتسامح والعيش المشترك كما تؤكده آيات القرآن الكريم:

ادْعُ إِلىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (النحل 125-126).

وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (فُصِّلَتْ 34-36).

الإسلام الذي نريد ان نعلمه لأولادنا هو دين الرحمة والإحسان والرفق حتى بالحيوان، فها هي امرأة تدخل النار بسبب قطة، ورجل يدخل الجنة بفضل كلب كما جاء في الحديث:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "عُذّبت امرأةٌ في هرّة، سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها، ولا سقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض".

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ بِئْراً فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ فَإِذا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنْ الْعَطَش، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنْ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ بِي، فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ. قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا فَقَالَ نَعَمْ فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ".

الإسلام الذي نريد أن نعلمه لأولادنا هو دين الوسطية التي لا تقبل العَنَت ولا التحجُّر ولا التعصب، وهو دين اليسر والرأفة والرحمة، كما تشير إليه الآيات التالية:

يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ اليُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ (البقرة 185).

يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا (النساء 28).

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (آل عمران 159).

الإسلام الذي نريد أن نعلمه لأولادنا هو دين الحرية: حرية العبادة، وحرية الفكر، وحرية المعتقد، وحرية التعبير، وحرية الاختيار، لأن تصرفات البعض في مصادرة الحريات وكبتها لا يمت إلى الإسلام بصلة، ولقد رأينا الإنسان عبر تاريخه الطويل يحاول أن يسلب الآخرين حريتهم، ويعتدي على حقوقهم، بغيا ودون حق، وبالنتيجة فإن كثيرا من الناس يظنون بأن الدين، وخاصة دين الإسلام، هو الذي يسلب الحرية، إلى غير ذلك من الادعاءات التي تقف على النقيض من الإسلام وأفكاره السمحاء.

فالله سبحانه قد وهبنا حرية كاملة، تسمح لكل إنسان أن يؤمن أو أن يكفر، أن يطيع أو أن يعصي، أن يصدّق بآيات الله أو أن يكذّب بها، لكنه في المقابل جعله مسؤولا عن مواقفه وممارسته

لهذه الحرية، حيث يقول المولى عز وجل:

وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأرض كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ (يونس 99).

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (البقرة 256).

وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (الكهف 29).

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِر (الغاشية 21–22).

ومن هذه الآيات نستطيع أن نستخلص ما يلي:

- إن الله الذي خلق الإنسان، قادرٌ على إجباره وتسييره كما يشاء، ولكنه من مبدأ الحرية المعطاة للبشر، لم يفعل وتركه حرا.

- إذا كان الله لم يستخدم قدرته ولم يسلب الإنسان حريته، فليس من حق أحد من البشر، بمن فيهم رسول الله، أن يُكره أو يُجبر أحدا على اعتناق الإسلام!

- لا إكراه في الدين، لأن هذا يؤدي إلى النفاق، فطريق الحق واضح وكذلك طريق الضلال، وعلى كل إنسان أن يختار طريقه بكل حرية وأن لا ينسى مسؤوليته في اتخاذ القرار.

- يحدد الله سبحانه دور الرسول في حياة البشر فيقول له: بلغ رسالة الله للبشر وذكرهم بها، فإنك مُذَكِّر، ولكن ليس لك حق السيطرة عليهم أو مصادرة حريتهم!

- وأخيراً فإن علينا أن ندرك بأن الدين هو كالطبيب الذي يردد أمام الجميع بأن التدخين ضار بالصحة وأنَّ علينا ان لا ندخن، ولكنه لا يستطيع أن يمنع التدخين، وهذا هو المراد بقوله تعالى: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ، لذلك فإنه ليس من حق أحد أن يجبر الناس على الصلاة أو الصوم أو غيرها من الاركان، فحساب الناس متروك لله رب العالمين، وهذا تأكيد لقوله سبحانه: فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِر.

الإسلام الذي نريد أن نعلمه لأولادنا هو دين المحبة والتكافل الاجتماعي كما جاء في الحديث الشريف: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"، وهو دين المساواة وتكافؤ الفرص لأن المساواة في الإسلام هي كالحرية قيمة إنسانية عليا، وقد تجلى ذلك واضحا في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربيّ على عجميّ، ولا لأبيض على أسود إلاّ بالتقوى".

إن هذه المساواة تساوي بين الناس جميعاً:

المسلم وغير المسلم، الغني والفقير، الأبيض والأسود، الرجل والمرأة، فالكل سواء، وقد بين القرآن الكريم أن الناس متساوون في الواجبات والحقوق، وأن المعيار الوحيد لتفضيل أحدهم على الآخر هو عمل الإنسان وسلوكه وتقواه، وهذا ما تبينه الآية الكريمة: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (الحجرات 13).

لكن الإسلام لم يتوقف عند المساواة بل جعلها مقرونة بالعدل، والعدل هو روح الإسلام وكيانه لأنه لا تستقيم حياة ولا حضارة دون عدل، وقد وضع الإسلام إلى جوار العدل مبدأ الإحسان، ليلطف من حدة العدل الصارم الحازم، وترك بابا مفتوحاً للتسامح والعفو دون أن يعطل العدالة التي تبقى هي الاساس، وهكذا نجد أن العدل والاحسان هما أمر الهي لكل البشر كما جاء في الآية التالية: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (النحل 90)، وفي هذه الآية أيضا: إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلى أَهْلِهَا وَإِذا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ (النساء 59).

إن دين الإسلام الذي نريد أن نعلمه لأولادنا هو هذه الرابطة أو العلاقة بين العبد وربه والتي تبدأ بالتسليم والقبول بوحدانية الله ثم تتوسع لتشمل العبادات كلها، وعندها يكون الدين كاملا، وهنا نصل إلى مبادئ الدين الحنيف الذي تشترك فيه كل الشرائع السماوية، وهذا هو الدين القيم كما سماه القرآن: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أكثر النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (الروم 30).

ما نريد أن نعلمه لأولادنا هو أن العبادة التي تمثل قاعدة الإسلام وأساسه، تشمل كل جوانب الحياة، فهي وإن كانت طاعة للخالق جل وعلا، إنما هي في نفس الوقت إعداد للمؤمن وتربية وتهذيب للنفس الإنسانية لتسمو بها إلى العلى حيث العلاقة المباشرة مع الله الخالق سبحانه، إن النفس التي تصل إلى هذا السمو، هي نفسٌ أبية عزيزة قوية لا تخاف إلا الله، وهي نفسٌ لا تُباع ولا تُشترى، تصغر في عينها الاشياء كلها والدنيا بما فيها ويصبح الله الخالق دليلها ومرشدها وسندها وملهمها، فتجود بالخير والعطاء لكل ما حولها وتمتنع عن الشر والإيذاء حتى ولو بمجرد كلمة عابرة.

وهكذا نجد أن للعبادة أفقا رحبا ودائرة واسعة، تبدأ بالفرائض والأركان الشعائرية من الصلاة والصيام والزكاة والحج، وتشمل ما زاد على الفرائض من ألوان التعبد التطوعي من ذكر وتلاوة ودعاء واستغفار، وتسبيح وتهليل وتكبير وتحميد.

وهي تشمل حسن المعاملة والوفاء بحقوق العباد، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان لليتيم والمسكين وابن السبيل، والرحمة بالضعفاء، والرفق بالحيوان، وهي تشمل الأخلاق والفضائل الإنسانية كلها، من صدق الحديث، وأداء الأمانة، والوفاء بالعهد، والقيام بأعمال الخير والبر والمعروف وعدم الكذب والغش والظلم والاحتيال والغدر والخيانة والغيبة... وغير ذلك من مكارم الأخلاق.

وكذلك معاملة الناس في البيع والشراء والعلاقات الاجتماعية كل ذلك عبادة، اما العبادات أو ما يسمى بالشعائر التعبدية من صلاة وزكاة وصوم وحج، فما هي في الواقع إلا تهيئة لهذه العبادة الكبرى وما هي إلا أداة تربوية للوصول إلى ما فيه خير الإنسانية جمعاء، ولهذا استخلف الله الإنسان في الأرض ليعمرها ويحافظ عليها فهي امانة في أعناقنا، ومن هنا نؤكد أن الإسلام هو من أكثر الشرائع دفاعا عن البيئة واحتراما لها.

ما نريد أن نعلمه لأولادنا هو أن الخطأ في فهم العبادة يقود إلى عدم فهم آثارها ومعانيها، مما يؤدي إلى الحرمان من آثارها ومعانيها، وما مَسخَ العبادات عندنا وصيرها عديمة التأثير، إلا تفسيرُها بمعاني الدنيا، فذهبت آثار العبادات وبقيت صُوَرُها، فلم تنهَ الصلاة عن الفحشاء والمنكر، ولم تقِ الزكاة النفوس من الشُّح والبُخل، ولم تحل مشكلة الفقر، ولم يهذّب الصوم النفوس، ولم

يكفكف من ضراوتها، ولم يزرع فيها الرحمة، ولم يؤد الحج دوره في التعارف بين الناس والتبادل والوحدة، فضاعت اركان الإسلام ولم يبق منها سوى الاسم، فعمَّ الجهل والضلال.

ما نريد أن نعلمه لأولادنا هو أن علينا أن نعود إلى القرآن الكريم، لنفهم العبادات كما أرادها الله سبحانه وكما شرحها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم نعمل على دراستها لنكتشف بعضا مما فيها من حكمة الله ورحمته، وكلنا ثقة وايمان بان الله سبحانه لم يشرعها لنا لحاجة له فيها، وانما لتكون، كما كررنا في كل مناسبة، أداة تأخذ بنا نحو الخير والنجاة.

ولنردد جميعاً دعاء الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: اللَّهُمَّ انْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَعَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا إلى عِلْمِنَا.

نبيل الشيخ عثمان قدورة
فرنسا 2017